قضية القُبلات
وبقية الاجتهادات

وكذلك
من هو جمـــال البنـــا ؟
وما هي دعوة الإحياء ؟

المحتويات

الحمد لله
الذي لا نعبد أحدًا سواه

[illegible]

في شهر مارس عام 2008م تناقلت الدوائر الإسلامية في القـاهرة نبـأ «فتـوى» أصدرها جمال البنا تبيح تبادل القبُلات ما بين الشبان والشابات قبل أن يتزوجوا.

وعندما سألوني قلت:

أولاً: لقد مللت من القول بـأني لا أطلـق «فتـاوى»، بـل إن عـزوفي عن الفتـوى والمفتي والمستفتي كاد يصـل إلى حـد القـرف، وإني أقـول لمن يسـألني: « اسـتفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك »، كما قال الرسول [illegible] وأن السائل على نفســه بصيرة وهو أدرى بهـا من المفـتي، فهـو أقـدر على تكييفهـا، وبالتـالي معالجتهـا، وبـدلاً من أن يستسهل فيسأل كان عليه أن يفكر، وإذا تطلب الأمـر فعليـه بمطالعـة المراجـع، وهي متاحة للجميع.

ولكن الفقهاء ما كانوا يسمحون بهذا الذي لا يجعل لهم ضـرورة، لهـذا اسـتدرجوا الناس لطلب الفتوى ورفعوا في الصحف، وأجهـزة الإعلام شـعارات: اسـألوا الفقيـه.. اسألوا أهل الذكر.

ثانيًا: أنني لم أدعُ إلى تبادل القبلات ما بين الشبان والشابات، وإنما قلت: إن هذا رد فعل سيء لفعل سيء هو تعسف الآباء والأمهات في فرض شروط صـعبة للـزواج، لا يمكن للشاب العادي الوفاء بها، وماذا تكـون النتيجـة عنـدما يتـأخر سـن الـزواج إلى الثلاثين أو الأربعين ؟! ماذا يفعل الملايين من الشبان والشـابات طـوال عشـرين سـنة مع أقوى الغرائز التي جعلها الله في الإنسان ؟!

وقلت: إن القبلات هي من اللمم الــذي إمــا أن يغفــره اللـــه، وإمــا أن تمحــوه الحسنات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

وقلت: هل من الغريب أن يمارس الشباب تصرفات غير سليمة بعد أن أغلـق في وجههم الباب السليم ؟ إن تبادل القبلات قد يكون أهــون ما يلجأ إليه هؤلاء، وهناك مـا هو أسوأ من زواج عرفي أو شـذوذ جنسـي.. الخ، ولا فائـدة أن نلـوم الشـباب وننعتهم بأسوأ النعوت، فهذا رد فعل، ومادام الفعل قد حدث فلابد أن يحدث رد الفعـل، فضـلاً عن أنه لا داعي لأن نحملهم ما لا طاقة لهم به، إن اللـه تعـالى الـذي خلـق الإنسـان ــ وهو أعلم به من حبل الوريد ــ ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286) وتسـامح مع صغار الذنوب وجعل كفارتها فعل الحســنات، فهل نرفض رحمة الله، فلا نرحم، ولا

ندع رحمة الله ؟ فهل تكون الحماقة والادعاء والضيق برحمة الله إلا هذا ؟ إن الجميع أصيبوا بداء النعامة، وآثروا أن يغطوا رؤوسهم عن مواجهة المشكلة ؛ لأنهم هم المسئولون عنها كآباء وأمهات وليس طبيعيًا أن يتهموا أنفسهم.

وتناولت أجهزة الإعلام وما في بعضها من إغراض وسوء قصد ونية، وما فيها جميعًا من بحث عن الإثارة، وإن بعضها عجز ـ لسطحيتها ـــ عن أن تفهم كلامنا، أدى هذا بها لأن تقول مرة: إني «أحلل» القبلات، ومرة: «أدعو لتبادل القبلات»، وأنا لا أجيز لنفسي ولا للفقهاء، أن نقول هذا حرام وهذا حلال، وهذا رأي قديم لي عبرت عنه في مقال بجريدة القاهرة بعنوان «ليس للفقهاء أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام» في العدد 24 الصادر في 26/9/2001م، ما قلته بالفعل: (إنه رد فعل سيئ لعمل سيئ) أو أنها من اللمم.

إن النظرة إلى القبلات ليست إلا جزءًا من سوء فهم قضية المرأة، كالنقاب الذي يقولون عنه: إنه فريضة، والختان الذي قال عنه أحد أئمة الأزهر: إنه من شعائر الإسلام التي يحارب عليها.

وكتبت ردًا على بعض ما أوردته صحفية مغمورة في جريدة (الأهرام) من غمز ولمز ولم تنشره الأهرام، فأعدنا نشره في مقالنا الثالث لـ (المصري اليوم) الذي صدر في الأربعاء 2/4/2008م، وكتبت ردًا على مقال استعظم القضية «القبلات يا أستاذ جمال ؟» رددت عليه بمقال «الله أرحم بالبشر من البشر بأنفسهم»، كما كتبت ثلاث مقالات في جريدة (المصري اليوم) تحت عنوان حديث القبلات ظهرت ما بين يوم 21/3/2008 ويوم 2/4/2008م.

ولكن الأمر زاد عن حده، ووجد من الدعاة الجدد من يقول في مقابلة تليفزيونية: لو كان جمال البنا من الأزهريين لذبحته، وكشف كل هذا عن جهالة مفرطة وسطحية سائدة، وأن الأمر يتطلب معالجة مسهبة لا تسمح بها المقالات الصحفية، ومن هنا جاء هذا الكتاب الذي تضمن دراسة مسهبة لقضية العلاقات الجنسية ما بين الجنسين في الإسلام، وما أحاط بها من سوء فهم، وأن فكرتنا عن المرأة أقرب إلى الجاهلية منها إلى الإسلام، بحيث عرض وجهة نظر كاملة جديدة تمامًا عن الموضوع.

وانتهزت الفرصة لأعرض الاجتهادات التي عرفت عني، والأساس الذي قامت عليه، وهو دعوة الإحياء الإسلامي، كما عرفت القراء بجمال البنا والعوامل التي أدت لأن يقوم بدعوته.

ورب ضارة نافعة.

فإن هذه الإثارة التي أريد بها النيل منا وتشويه فكرنا كانت السبب في إصدار هذا الكتاب الذي يضم ثلاثة أقسام رئيسية هي:

<u>القسم الأول</u>: قضية القبلات، وكل ما تثيره من مسائل واشكالات.

القسم الثاني: من هو جمال البنا ؟ وما هي دعوة الإحيـاء ؟ الذي يتضمن عرضًا للعوامل التي أثرت على حياة وفكر جمال البنا مما لم يكتب من قبل، ويعد بمثابة تعريف بجمال البنا، ويتبع هذا تلخيص لدعوة الإحياء.

القسم الثالث: الاجتهادات ــ أو كما يقولون عليها الفتـــاوى ــ التي أثارت الزوابع حول جمال البنا، وهي باستثناء "القبلات" التي عولجت معالجة خاصة في القسم الأول، وموضوع عدم إفساد التدخين للصيام، وقضية حرية العقيـدة، وعـدم وجود حد للردة، وقضايا المرأة.

والخيرة فيما اختاره الله.

القاهرة في **شـــــوال 1429 هـ**
أكتوبر 2008م

القسم الأول
قضيــة القـُبُـــلات
مداخل لمعالجة الموضوع

المدخل الأول: رد فعل سئ لفعل سئ.

المدخل الثاني: كيف تعامل الإسلام مع الضعف البشري ؟

(1) الاعتراف بالخطــأ وأن الإنســان واقع فيه لا محالة.
(2) الحسنات تذهب صغار الذنوب، والتوبة تذهب كبائر الإثم والفواحش.
(3) ماذا قال المفسرون عن اللمم ؟

المدخل الثالث: نظرتنا إلى المرأة أقرب إلى الجاهلية منها للإسلام.

المدخل الرابع: ليس الدين ـ وحده ـ هو كل شيء.

المدخل الخامس: العصر الحديث: الحاضر الغائب.

المدخل السادس: الحبُّ والجمال.. عالمان مغيبان عن المجتمع الإسلامي.

المدخل الأول
رد فعل سيء لفعل سيء

كنا نتحدث في لقاء تليفزيوني عن ظاهرة «انفلات» الشباب والشابات في الجامعة ولواذهم بصور شاذة من العلاقات كالزواج العرفي أو زواج «البوي فرند» الذي أباحه فقيه يمني، وأخف هذه الممارسات تبادل القبلات.

القضية قضية علاج ظاهرة اجتماعية، وليست فتوى مستقلة أو ردًا على سؤال: أحلال أو حرام ؟

هي إذن دراسة لظاهرة اجتماعية شاذة في ضوء الإسلام.

والظواهر لا تحدث عبثاً أو تلقائيًا، إنها رد فعل لممارسة متبعة ومقررة، ولها أسبابها من فهم القيم ودرجة تطور المجتمع في المجالات الاقتصادية أو الاجتماعية وسيادة النفسية البورجوازية.

فهذه الظاهرة تبادل القبلات.. رد فعل سيئ لفعل سيئ، وكما هو معروف، فإن الفعل يكون له رد فعل، وأن رد الفعل يأخذ خصائص الفعل الأصلي، فإذا كان الفعل الأصلي فاسدًا يقوم على اعتبارات سطحية، ومظهرية، فلابد أن يكتسب رد الفعل شيئاً من هذه الخصائص.

أما ما هو الفعل الأصلي فهو **مسلك الآباء والأمهات وتعنتهم في حكم شروط الزواج**، فما أن يتقدم أحد الشباب إلى الأب والأم ليخطب ابنتهما حتى يحاسبانه حساب الملكين.. كم لديه من ثروة ؟ ماذا سيدفع من مهر ؟ هل لديه شقة ؟ هل هو مستعد لتقديم أثاث لثلاث غرف ؟ هل هو «جامعي» لأن ابنتهم جامعية ؟ والشاب مسكين لا يملك إلا القليل الذي ادخره، أو ساعده والداه فيه، أو ما يحصل عليه من مرتب عمل.

إن شرطاً واحدًا من هذه الشروط لا يتوفر للشاب العادي، وعندئذ يُرفض بلا رحمة.

عندئذ لا يكون أمام الشاب إلا أحد أمرين: أن يبيع نفسه في أسواق النخاسة العربية والأوروبية فيعمل في غسل الأطباق وتنظيف دورات المياه سنين عددًا حتى يوفر ما يمكنه من شراء شقة.. وهذا أمر إن كان ممكناً في سنين خلت فهو في حكم المستحيل الآن، والثاني: أن ينطلق شاء أو لم يشأ مع رد الفعل، ولما كان الفعل سيئاً فإن رد الفعل لابد أن يكون سيئاً أيضًا.

قدرت أحد البحوث[1] عن تكلفة الزواج في مصر بحسب الفئات، تكلفة حفل الزفاف بالنسبة للموظفين إلى 43 شهرًا من مجمل دخل العريس، وبالنسبة لأفقر الموظفين يتعين على العريس ووالده أن يدخروا كامل دخلهم لمدة 88 شهرًا أو أكثر من سبع سنوات، وأن تملك الشقة يتطلب ما يساوي خمس سنوات من مدخراتهم مما يجعل الانتقال من العزوبية إلى الزواج اثنى عشر عامًا.

ولاحظ البحث أن هذه الصعوبات تحمل الآباء على أن يساعدوا أبناءهم وبناتهم بتحميل جزء كبير من النفقة لمساعدة أبنائهم وبناتهم، ولكن هذا وإن كان من ناحية ييسر صعوبة الزواج، فإنه من ناحية أخرى يزيد في أهمية متطلبات الآباء والأمهات التي أدت للصعوبة بحيث لا يمكن للابن التملص منها.

إن الإسلام عندما يأمر بشيء، أو ينهى عن شيء، فإنه يرتب الأوضاع بما يسهل إتيان هذا الشيء أو الامتناع عنه، فعندما يرتب عقوبة قاسية على السرقة، فإنه يفترض أن يكون المجتمع عادلاً، ويشترط شروطاً عديدة لسلامة الإجراءات، فإذا لم يتحقق هذا فيصبح من غير المنطقي أن ننفذ عقوبة السرقة على سارق، وهذا ما أدركه عمر بن الخطاب عندما قال لأحد الذين رشحهم للولاية: ماذا تفعل إذا أتي إليك بسارق ؟ قال: أقطع يده. قال: فإن عمر بن الخطاب سيقطع يدك إذا كان السارق جائعًا.

وفي الحالة التي نحن بصددها فإن الرسول ﷺ وضع المعيار الذي يجب أن يلحظ عند التزويج: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه.. إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**» ؟ وقد ضرب الآباء والأمهات بهذا المبدأ عرض الحائط، وعندما يأتيهم صاحب الدين والخلق، ولكنه فقير.. فإنه يرفض فورًا.

فماذا ننتظر، وقد رفضنا المبدأ النبوي وتجاهلنا تحذير الرسول ﷺ «إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» ؟ لقد حدث ما حذرنا منه الرسول ﷺ، وليس تبادل القبلات إلا أبسط صور هذه «الفتنة والفساد الكبير».

لماذا تلومون الشبان إذا لاذوا بصور شاذة ومنحرفة من السلوك الجنسي بعد أن حرمتموهم من الزواج الشرعي ؟

لماذا تطالبونهم بسلوك مثل سلوك الصحابة، وما من واحد منكم يقبل أن يزوج ابنته كما زوج محمد ابنته الحبيبة فاطمة من عليٍّ، بحشية ورداء، إن غطى الرأس بدت الأقدام، وإذا غطى الأقدام بدت الرأس ؟

لكي نكون عدولاً يجب أن نحكم في كل حالة في سياقها، ولا يمكن أن نقتطع نصوصًا عن الأصل، الذي أدى إليه، ولا يجب أن نصلح الظاهرة نفسها إذا تجاهلنا الأصل والسبب الذي أدى إلى هذه الظاهرة، هذه كلها اعتبارات يجب أن تكون نصب

---

1 **مبادرة شباب الشرق الأوسط، مركز ولفنسون للتنمية التابع لمعهد بروكنز وكلية دبي للإدارة الحكومية، ص 18.**

أعيننا، ولا يجوز إغفالها واتباع أسلوب «النعامة» التي تخبئ رأسها ظانة أن ذلك سيحول دون حدوث الوقائع.

يجب أن نعلم أن «طبائع الأشياء» حاكمة، وأن الله تعالى وضع سنناً للمجتمع لا يمكن أن يسـير ويتقدم إلا بها، وأن مخالفتها ستؤدي ــ لا محالة ــ إلى فساد كما قال الرسول ﷺ، ولن يجدي شيئاً أن نلوم الشبان والشابات، كما لن يجدي شيئاً أن ننصحهم لأن الفعل لابد وأن يولد رد فعل، وأن الفعل السيئ لابد وأن يولد ردًا سيئاً، فلنعد إلى قول الرسول ﷺ، ولو اتـُّبع هذا المبدأ لحُلت المشكلة، ولما كان هناك صورة من صور الانحراف ما بين الشباب والشابات، ولكننا ضربنا به عرض الحائط، ورفض الآباء والأمهات صاحب الدين والخلق.

لماذا نندب ونلطم إذا تصرف هؤلاء الشباب لذلك، وقد دفعهم إلى ذلك دفعًا الآباء والأمهات المحترمون المبجلون الذين يتمسكون بالمظاهر «البورجوازية» المخالفة كل المخالفة لما وضعه الإسلام، بل والمخالفة لطبيعة الأشياء ؟ ففي الخارج مثلاً: ما أن يبلغ الشاب الثامنة عشر حتى يستقل بحياته، وعندما يريد الزواج، فلا يطالب بمهر ولا يطالب بملكية شقة، وإنما يسكن «استوديو»، أي غرفة وصالة صغيرة ودورة مياه ومطبخ، وما حاجته وهو يستهل حياته بثلاث غرف ؟ فحل المشكلة حلاً يقترب من الحل الإسلامي.

إن تبادل القبلات ليس هو أسوأ شيء، ففي إحصائية أصدرها المجلس القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية تبين وجود 20 ألف حالة اغتصاب سنويًا، ناهيك عن أن 60 % من الإناث يتعرضن للتحرش الجنسي، أما صحيفة لوبون الفرنسية فأكدت حدوث أكثر من 200 ألف حالة زواج عرفي في العام الماضي فقط، وهذه هي الحالات المسجلة، تخيل ــ إذن ــ عدد الحالات الأخرى التي لا يعرف عنها أحد، أما من وقعوا بالفعل في فخ هذا الزواج فكان الحل في الطلاق الذي ترتفع مؤشراته بالفعل، حيث أصدرت جمعية الماذونين الشرعيين في مصر إحصائية مزعجة، ذكرت فيها أن متوسط عدد حالات الطلاق في مصر سنويًا وصل 462 ألف حالة، وأن 42 % من هذه الحالات تتم بين المتزوجين حديثاً من السنة الأولى إلى الرابعة، وهو ما يؤكده جريرة الزواج المتعجل.

المسألة ــ إذن ــ ليست تبادل القبلات، إنها أدهى وأمر، ولكنهم لا يريدون أبدًا مجابهة الحقائق أو الاعتراف بها بحيث يجوز ــ رغم هذه الحالة ــ أن يقدم الشيوخ حلهم، إن على من لم يستطع الزواج أن يستعفف أو ليصم، كما قال الرسول ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإن لم يستطع فليستعفف وليصم فإنه له وجاء**».

نقول: هل يعقل أن يستعفف خمس سنوات مثلاً أو عشر سنوات أو يصوم هذه المدة !!؟؟

إن الرسول ﷺ عندما قال هذا افترض أن المدة لن تطول، وأنها قد تستمر شهورًا ثم تنتهي.

وكما هو معروف، فلم يكن الزواج في الأزمان القديمة مشكلة، لقد كان يتم بمجرد أن يصل الفتى والفتاة سن البلوغ، وما كان يطلب من العريس شقة أو أثاث، لقد كان يخصص له غرفة، ولم تكن الشقق على كل حال صعبة أو غالية، وقد رأينا بأعيننا في شبابنا إعلانات «شقة للإيجار» تتدلى من معظم البيوت، وبأرخص الإيجارات.

كان يمكن أن يقول: لينصرف الشباب إلى الرياضة التي تستهلك طاقتهم الزائدة، أن تـُيسر لهم سبل المطالعة والقراءة والثقافة والتمكن من الآداب، لأن هذه هي فترة التأسيس في حياتهم، ولكن شيئاً من هذا ما كان ليخطر لهم لأنهم لا يعملون فكرهم، ولأن سيطرة الوعي الديني جعلتهم يستخدمون حديثاً نبويًا في غير موضعه.

مرة واحدة في تاريخنا الحديث استطاع قائد نابغ أن يشغل الشباب عن مطالب الغريزة، ذلكم هو حسن البنا الذي كان «يستلم» المراهق في آخر سني دراسته الثانوية وأولها في الجامعة ــ أي في أشد فترات الشــباب حرجًا واشتعالاً ــ فيشغلهم في مجاهـدات من حفظ قـرآن وحديث ومطالعة الأدب العربي والتدريب على الخطابة وممارسة الرياضات والقيام بمهام دعوية، بحيث ملأ حياتهم حتى أوصلهم في الزواج، واجتاز بهم هذه الفتـرة دون أن يقعوا في مأثم، بل اكتسبوا ثقافة وعفة.

لم تتكرر هذه التجربة بمثل هذا النجاح، لأن التجارب الأخرى لم يكن لها صمود هذه التجربة القائم على الإيمان الديني الذي لم يتوفر في هذه التجارب.

ومع هذا فهل خلصت هذه التجربة من آثار جانبية ؟ أتصور أن هؤلاء بعد أن أمضوا سنوات في الزواج ألم بهم نوع من الأسى، إن شبابهم الجميل انتهى دون أن يحسوا تلك العاطفة الرقيقة العذبة التي كانت تنشأ ما بين فتى وفتاة يجلسان على مائدة واحدة في ناد أو يسيران الهوينا على شاطئ النيل، إن تلامس أيديهما كان يكفي لإشعال هذه العاطفة دون أن يخطر بذهنهما شيء من «الشهوات»، لأن الحب ــ وحده ــ هو الذي كان يسعدهما.

* * *

على أن هناك في المجال الإسلامي نفسه شاهد يمكن أن نستأنس به: فعندما كان الرسول ﷺ في إحدى الغزوات شكا إليه أصحابه أنهم يعانون من بُعدهم عن زوجاتهم حتى لقد قال أحدهم: «هل نختصي» ؟

لم يقل لهم الرسول ﷺ تعففوا أو صوموا.. ولكنه أباح لهم زواجًا مؤقتاً بمدة بعدهم عن زوجاتهم.. وهو ما يقولون عنه نكاح المتعة.

ثم حرمه بعد ذلك..

ولكنه يعطينا مؤشــرًا أن الرسـول ﷺ ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ**﴾ (التوبة: 128)، وإذا كان بعض الصحابة قد «عنتوا» عندما حيل بينهم وبين زوجاتهم لعـدة أيام، فهل نقول للشباب: اصبروا لسـنوات ؟

* * *

مع هذا كله فقد يقول قائل:

هل لو لم يتعسف الآباء والأمهات، فهل تتصور أن المشكلة ستنتهي، ولن يكون هناك انحراف أو تحلل عما وضعه الإسلام من معايير في العلاقات الجنسية ؟

فأقول: إن هذه التجاوزات ستحدث ولكنها ستكون محدودة، وستحدث كثمرة للضعف البشري، وليس «كرد فعل سئ لفعل سئ».

وهذا ما ينقلنا إلى المدخل الثاني وهو تعامل الإسلام مع الضعف البشري.

المدخل الثاني

كيف تعامل الإسلام مع الضعف البشري ؟

[1]

الاعتراف بالخطأ وأن الإنسان مدرك ذلك لا محالة

يعترف الإسلام بالضعف البشري، وأن هذا الضعف جزء من الطبيعة التي جبل الله عليها النفس البشرية ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ (الشمس: 7 ــ 10)، ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ (الإنسان: 3)، ﴿**وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً**﴾ (النساء: 28).

ذلك أن الله تعالى لم يرد للإنسان أن يكون كالملائكة التي خلقت من نور ولا تعرف إلا التهليل والتسبيح، فقد خلقه من صلصال من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، فحمل كل ما في الأرض من كثافة، ثم نفخ فيه من روحه فسما به إلى سماوات الضمير والإرادة، ثم أرصد له الشياطين لغوايته، وأرسل إليه الرسل لهدايته، فهذا الكائن المعقد الذي يولد قطعة لحم لا تري ولا تسمع.. ثم ينمو فيزحف على أربع.. ثم يقف على قدمين ويشب وتتكامل له الأعضاء كافة حتى يكون شابًا قويًا أو فتاة جميلة، يدفعه الطموح والإرادة وتضغط عليه محدودية الموارد، وإلحاح الغرائز، هذا الكائن لابد أن يتعرض للمخاطر، وليس أمامه إلا أن يدخل مدرسة التجربة والخطأ فيخطئ ويتعلم من خطئه.

لم يستبعد الإسلام الخطأ على الإنسان، بل رآه أمرًا طبيعيًا، لهذا فإنه جوز الخطأ على الأنبياء أنفسهم ــ وهم المثل العليا للبشرية ــ في غير ما كلفوا بتبليغه، لأنهم في غير إطار التبليغ الرسالي ﴿**بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**﴾ (إبراهيم: 11)، ولذلك يجري عليهم ما يجري على البشر، فقال القرآن عن آدم: ﴿**فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**﴾ (طه: 115)، وعن سليمان: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**﴾ (ص: 34)، وقال عن يوسف: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ (يوسف: 24)، وقال عن موسى: ﴿**وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنْ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً**﴾ (طه: 40)، وقال عن ذي النون: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ (الأنبياء: 87)، وقال عن محمد: ﴿**وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ**﴾ (الشرح: 2،3)، ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ (الإسراء: 73 ـ 75)، ونحن لا نجهل ما تذكره كتب التفسير عن هذه الآيات، لكن

ظاهر الكلمات والسياق يأباها، وليس الأنبياء بعد بمعصومين لولا رحمة الله بهم وفضله عليهم، وليس ما هو أصرح من كلمة يوسف ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: 33).

وقال الرسول ﷺ: (**كل بني آدم خطاءون، وخير الخطائين التوابون**)،
وقال ﷺ: ([illegible]).

[illegible]

[illegible] (219 :[illegible]) [illegible] (28 :[illegible]) [illegible] (33 :[illegible]).

[illegible] «الديالكتيك» [illegible] (8 :[illegible]) [illegible] (64 :[illegible]) [illegible]

[illegible]

[illegible] (100 :[illegible]).

[illegible] (16 :[illegible]) [illegible] (33 :[illegible]).

[illegible]

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أما القـول بأن الأفضل أن لا يخطئ، فالإســلام يستبعده، لأن الضعف غـالب على الطبيعـة البشــرية، فإذا قلنا: إن شخصًا مـا لا يخطئ. فالحقيقـة أنـه يخطئ ولكن في السر، وبعض الإسلاميين يتقبل هذا على أساس الحديث "**الناس كلهم معافون إلا المجاهرين**"، ولكن الخطأ هو عدم التفرقة ما بين المجاهرة التي تتضمن عنصرًا من عناصـر التحـدي أو عـدم الاكـتراث، وهـو محـل النهي، وبين مجـرد الممارسـة، والـذي يخطئ سرًا ويخفي خطأه ويظهـر بمظهـر الـبريء في العلن هـو في الحقيقـة يـرتكب أعظم الآثام، لأنه يعني الكذب والنفاق والتبدي في الظاهر بخلاف ما عليه في الباطن، ويمكن أن يتحول التصرف من المرأة المنهي عنها إلى "الأمــرد" الذي ليس عليه نهي صريح في القـرآن، وتدل كثرة الإشارات إليه في الكتب التراثية والتحـذير من صـحبته حتى لو كان قريبًـا كـابن أخ مثلاً إن ذلـك كـان محـل ممارسـة، وهنـاك حـالات ذكـرت بالاسم عن توله بالأمرد وصل إلى درجة حب قيس لليلى وجميل لبثينة، وكانت النتيجـة فيها ما كانت لقيس وجميل الجنون أو الموت، واقرأ "طوق الحمامة" لابن حـزم ففيـه أمثلة لذلك، وليس من البعيـد أن تنتهي هـذه العلاقـة بـاللواط، وهـو أسـوأ من القبلات مئات المرات، وكان يمكن لفرد ما في هذا العصر أن يحل فـرد مشـكلته بـأن يشـتري جارية كما كان ذلك ممكناً في العصور القديمة، وهم لا يعدون هذه المعاشرة الجنسـية إثمًا، وقـد سـلك الجاحـظ هـذا المسـلك فلم يـتزوج، وحلت الجـواري في حياتـه محـل الزوجات.

[2]

الحسنات تذهب صغار الذنوب، والتوبة تذهب كبائر الإثم والفواحش

يتعامل الإسلام مع هذا الضعف طبقًا لاستراتيجية طويلة تدوم مادام الإنسان ولا تقف إلا عند «الغرغرة»، أي الدقائق التي قبل الموت عندما تفارق الروح الجسد.

وهذه الاستراتيجية ذات طبيعة إيجابية ــ حيوية ــ عملية، وقوام هذه الطبيعة ما يمكن أن نسميه «المقاصة»، أي مقابلة السيئات بالحسنات، ولم يكن مناص من أن تكون هذه هي طبيعة الاستراتيجية الإسلامية، لأنه بعد أن سلم الإسلام بالضعف البشري وأن الإنسان سيقع في خطأ، وسيرتكب ذنبًا لا محالة وبحكم طبيعته وخلال سنوات عمره الطويلة، فلم يكن من محل إلا «المقاصة»، أي تقديم الحسنات والأعمال الطيبة والخيرة بقدر ما اضطره ضعفه البشري لارتكاب سيئات فتمحو الحسنات السيئات.

والأساس في هذه المقاصة هو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: 114)، وقول الرسول ﷺ: (**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**)، ويصور هذه المقاصة تصويرًا رمزيًا حديث المفلس الذي صور المفلس يأتي بصلاة وصيام وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، وهذا أكمل تصوير لمضمون المقاصة.

ويفرق الإسلام في هذه المقاصة بين نوعين من الخطأ، نوع نسميه الضعف، ونوع نسميه الشر، والضعف هو ما يعود إلى الضعف في الطبيعة البشرية وسمته الرئيسية أنه لا يضر أحدًا غير صاحبه، أما الشر فقد لا يكون بالدرجة الأولى نتيجة للضعف وإنما يحدث لقوة الإغراء وضراوة الإغواء، وهو عادة لا يقف عند حد، وإنما يميل للاستشراء، وهو لا يقع على صاحبه وإنما ينسحب على الآخرين فالسرقة شر، والقتل شر ، وسوء المعاملة شر.

والقسم الأول (الضعف) يكون ذاتي الطبيعة، والقسم الثاني (الشر) له طبيعة اجتماعية بمعنى أنه يقع على آخر. كما أن المقاصة لا تكون كافية في حالة الشر، إذ لابد من إصلاح ما أفسد كإعادة المسروق أو التعويض عن الخسائر.. إلخ.

والإسلام رفيق مع القسم الأول (الضعف)، ولكنه جاف مع القسم الثاني لأنه يسيء إلى الآخرين، ولهذا يستخدم الرحمة مع الأول ويستخدم العدل مع الثاني.

* * *

نوجه النظر إلى نقطة هامة، تلك هي أن هذه الاستراتيجية الحيوية الإيجابية العملية تختلف تمام الاختلاف ــ إن لم تتعارض ــ مع الاستراتيجية التي وضعها الفقهاء للتعامل مع الضعف البشري والتي تقوم على (سد الذريعة)، أي أنها تريد أن تحول بين الإنسان وبين الوقوع في الأخطاء والذنوب بإبعاده عن العوامل التي تؤدي إلى الخطأ والذنوب، أو بوضعه في "صوبا" لا يمكن للآثام أن تدخلها، وفاتهم أن الضعف مغروس في النفس الإنسانية نفسها، وباب سد الذريعة باب متسع في الفقه الإسلامي،

وبعضهم بناه على أن العبرة بالمآل وأنه يدخل في فقه المآل، بينما ركـز آخـرون على تحديد مدى المفسدة التي يجب سـدها، ولمـا كـان الاتجـاه الفقهي بصـفة عامـة يأخـذ بالأحوط ويتوقى عدم وجود ثغرات يسـمح منهـا ظهـور المفسـدة، فـإنهم توسـعوا في استخدامها، وكان كل ما جاءوا به من مباحث طويلة قائمة على فقه يعـالج التصـرفات كما لو كانت أعمالاً ثابتة جامدة، يفصل فيها المنطق الصوري، وأنهم تجاهلوا أصولاً في الشريعة لا يسمح بمثل هذا التزيد والتحوط، لأنه يخالف اعتبـارات اعتمـدتها الشـريعة، وما قضت به الطبائع من أن التوسـع في التحريم يؤدي إلى آثـار عكسـية، وأن طبيعـة المعالجة تتناقص مع الطبيعة الحيوية الديناميكية التفاعلية للسلوك للتعامـل الإسـلامي معها (والإسلام هنا هو إسلام الله والرسول وليس إسلام الفقهاء).

والأساس الذي يقوم عليه مبدأ سد الذريعـة هـو أن كـل وسـيلة تـؤدي إلى حـرام يجب تحريمها، ويذكرون في دعم مبدأ سد الذريعة الآيـة ﴿وَلا تَسُـبُّوا الَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُـبُّوا اللَّهَ عَـدْوًا بِغَيْـرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعـام: 108)، ولكن لمـا كـانت دلالـة الآيـة محدودة، فإن الاستخدام الأعظم جاء عن طريـق حـديث (المـرأة عـورة)، فـإذا كـانت المرأة عورة، فإن سد الذريعة دون الفتنة بهذه العـورة هـو حجزهـا في الـبيوت داخـل أربعة جدران، وإذا خرجت لضرورة يجب أن تخرج كما لو كـانت شـبحًا، وينسـحب هـذا على كل المناشط التي يمكن أن تقوم بهـا، كمـا يلجـأون إلى حـديث: "**الحرام بيِّن، والحلال بيِّن، وبينهما متشـابهات لا يعلمهـا كثـير من النـاس، فمن اتقى الشـبهات اسـتبرأ لدينـه وعرضـه، ومن وقـع في الشـبهات وقـع في الحرام**".. إلخ.

وليس من العسير أن نعرض استشـهادًا أقـوى يـرد على سـد الذريعـة كـأن يـأتي النص القرآني محـدداً لمـا حـرم اللـه كمـا جـاء في الآيـة ﴿أَتْـلُ مَـا حَـرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: 151) وما بعدها، فيكون سد الذريعة افتياتاً عليهـا، وكـذلك حـديث الرسـول ﷺ عن أن (**الحلال ما أحله الله في كتابه، والحـرام مـا حرمـه اللـه في كتابـه وبينهما عفو فـاقبلوا من اللـه عافيته**)، ومنهـا التوجيـه النبـوي للمؤمـنين (**إذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**)، فهـذه كلها ترى في سد الذريعة افتياتـًا على الشريعة.

وقد أثبتت التجارب أن المحـاولات الـتي قـامت بهـا بعض النظم الدينيـة الحاكمـة مسيحية أو إسلامية لاستئصال الشر والفساد من منبعه والحيلولـة دون ظهـوره بـاءت بالفشل، وأنها حتى عندما تكتسب نجاحًا ظاهريًا وموقوتًا تدفع ثمنًـا باهظًـا في وسـائل وأسـاليب تتطلب القمـع والتجسـس وتـؤدي إلى ظهـور السـوق السـوداء، والتهـريب، والتحايل وإفساد الضمائر والنفوس، لأن هذا الأسلوب يجافي طبيعة المجتمع البشري، وما فيـه من ضـعف وشـهوات، ومـا أراده اللـه لـه من وجـود الحـق والباطـل.. الخـير والشر.. الإرادة والهوى.

لقد كانت "التجربة والخطأ" أول مدرسة تربوية، ويبدو أن هناك أمورًا لا يمكن أن نتعلمها إلا بها كالسباحة مثلاً، فإذا لم نتعلم إلا بها فلا مناص عنها، وعلينا أن نقدم بلا تردد، ولكن ما كان يمكن أن يرد بفكر الدعاة الإسلاميين هذا المسلك لأنهم حصروا أنفسهم في دائرة ضيقة ينظرون منها ويحكمون على الأشياء طبقًا لها، ولو أنهم درسوا المجتمع الإنساني والنفس البشرية دراسة موضوعية شاملة لأدركوا أن الحرمان المحرق لا يقل سوءًا عن الشهوة الجامحة، وأنه يذل النفوس ويوهنها ويوجد فيها ثغرات عديدة يمكن أن تؤتي منها.

وبالطبع فإن من يسلك هذا المسلك لا يمكن أن يفهم العمق الذي تضمنه فهم الإسلام للذنب، وأن الوقوع في الذنب لا يخلو من آثار تصب في خانة المصلحة لا المفسدة، وهو سر لا يمكن أن يدركه الفقهاء الجامدون والأعراب الجفاة، ولكن الإسلام الذي جاء من عند الله الذي يعلم بما في صدر الإنسان وما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد يدرك أن الوقوع في الذنب قد يكون هو نفسه نوعًا من سد الذريعة بمعنى عدم تكرار الذنب، كما أنه يحول دون تسلل عاطفة الزهو بعدم الخطأ على غيره، والزهو في حد ذاته من كبائر الذنوب، وأنه من الخير أن يذنب أحد مرة ثم يتوب ويندم على هذا الخطأ أفضل من أن لا يخطئ أبدًا، وأن التوبة بحكم أنها ابتهال صاحبها إلى الله تعالى ورغبته المخلصة في العفو والرضا أعمق أثرًا في الصلاح.

إن صيغة الحديث النبوي "**كـُتب على ابن آدم حظه من الزنا مدرك ذلك لا محالة**" تؤكد أن الإسلام سلم بالطبيعة البشرية وضعفها، وأن ذلك سيسوق صاحبها إلى الذنب لا محالة، ولكن الإسلام جعل هذا الذنب الذي سيقترفه ـــ لا محالة ـ هو من اللمم، وأن عليه أن يتبعه بالحسنة التي تمحوه، وبهذاساير الطبيعة البشرية دون أن يفقد الأثر الإسلامي، ولولا النفاق الاجتماعي الذي يحكم المسلمين، ورغبة المزايدة على الإسلام ودعوى التقوى والورع لانحسمت المشكلة، أو بمعنى أصح لما أصبحت مشكلة، بل أصبحت المسلك الطبيعي الذي يتقبله المجتمع من نفس ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس: 8).

إن المجتمع الأوروبي حل مشكلته الجنسية باعتبارها أمرًا طبيعيًا وشخصيًا لا حساب ولا عقاب عليه، ولكن هذا الحل وإن أبعد المشكلة الجنسية فإنه أفسح لها المجال لكي تجاوز كل الحدود "الآمنة" فكأنه خلص من نقيض ليقع في نقيض، أما الإسلام فإنه عندما اعترف باللمم، وأن الإنسان واقع فيه لا محالة، فإنه فرض على المسلم أن يكفر عنه بالحسنات والاستغفار.. الخ، فلم يجعل هذا اللمم أمرًا مباحًا دون مقابل، بل إنه أجاز الوقوع في ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ (الشورى: 37)، وجعل التوبة تكفيرًا عنها، بمعنى أنه لم يوصد الأبواب، ولكن جعل ملاذاً لكل من يدخلها، وبذلك تعامل مع مكوني الطبيعة البشرية "الفجور والتقوى".

ولهذا جاء الحديث (**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم**)، ومن لا يتعمق في فهم هذا الحديث فإنه لا يدرك الأبعاد التي يصل إليها من يستغفر ويتوب بحيث تتحقق آيات سورة الفرقان ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: 68ـ70) .

* * *

حتى الآن لم نتحدث عن تفاعيل ومفردات استراتيجية المقاصة للتعامل مع الضعف البشري، وكقاعدة عامة فإن الإسلام يضع خطًا وسطًا يمثل سلوك المسلم النمطي، ويفترض أن يؤدي ما يوجبه، وأن يتجنب ما ينهي عنه، فعليه أن يصلي الصلوات المفروضة الخمس، وأن يؤدي الزكاة، وأن يصوم رمضان، وأن يحج مرة واحدة إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعليه أن يتجنب ما أمر الله باجتنابه صراحة كالشرك أو عدم الإيمان بالرسل أو الكتب السماوية أو اليوم الآخر، وأن يتجنب المحرمات في المأكل والمشرب كشرب الخمر وأكل الخنزير، وأن لا يقرب السرقة أو الزنا أو الشهادة الزور، وأن يكف يده عن كل صور الأذى للآخرين، وأن يعامل الناس بخلق حسن.

المسلم الذي يلتزم بذلك دون أي زيادة فلا يكون عليه مآخذ، ويكون كالأعرابي الذي عندما عرض الرسول ﷺ عليه أركان الإسلام تعهد بأدائها دون أن يزيد عليها فقال الرسول ﷺ: (أفلح إن صدق).

فوق هذا الخط يوجد خط الفضل الذي يبيح لمن يشاء أن يزيد ما يشاء، سواء كان ذلك في القربات أو في أعمال الخير على تفضيل في الأولويات، فما ينفع الناس أفضل عما يقتصر نفعه على نفسه وحده، وينطبق عليهم جميعًا ﴿اسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: 148).

وتحت خط القصد يمكن أن يحدث التقصير، وبالطبع فما من مسلم سيجحد أصول العقيدة من إيمان بالله والرسول واليوم الآخر حتى وإن كانت الأغلبية قد لا تعلم تمامًا أعماق وأبعاد هذا الإيمان.

ويمكن أن يحدث تقصير في العبادات (من صلاة أو صيام أو حج)، وطبقًا لمبدأ المقاصة، فإن عليه أن يأتي من الحسنات ما يتكافأ مع حجم التقصير، فإذا كان استسلام لشر فعليه التوبة وإصلاح ما أحدثه هذا الشر.

وقد كاد الفقهاء يوثنوا الصلاة ويعتبروا من يقصر فيها كافرًا بقدر تقصيره، والصلاة على أهميتها قربى كبقية القربات ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: 45)، وقد

يقدم القرآن عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الجهاد، تبعًا لمناسبات معينة، وقد صرح بأن ذكر الله أكبر، كما وضع تيسيرات عديدة تصل إلى حد الجمع ما بين الظهر والعصر، وما بين المغرب والعشاء إذا تعسر عليه إقامة كل صلاة في وقتها، فقد رخص بذلك الرسول وقال: (**لكي لا أشق على أمتي**)، فإذا حدث تقصير فإن الحسنات تكفر عنه، شأن الصلاة في هذا كشأن كل العبادات.

وإذا كان الذنب مقارفة الزنا أو شرب الخمر، فإن هذا أيضًا تسويه المقاصة، ومن المسلم به أنه لا يوجد إثم يجاوز رحمة الله "قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا (الزمر: 53)، وإن استثنت إحدى الآيات الشرك، والمفروض أن لا يقع من مسلم.

وتجدر الإشارة إلى أن الناس في معظم الحالات تفهم الله تعالى بالصورة التي في أذهانها عن الملوك والأباطرة، وتجري عملية "إسقاط" نفسية إنسانية على الله، ويجب أن نستبعد هذا تمامًا، وأن تكون الصورة التي في ذهننا عن الله هي التي عرضها القرآن بمقايسة تختلف عن مقاييسنا وخزائنه لا تنفد، ويميل بعض الناس بحكم رواسب قديمة من تاريخ الأديان أو شذوذ في النفس أن يعلي جانب القسوة في حين أن الله هو الرحمة، وعندما أراد الرسول تقريب رحمة الله إلينا قال: "**إنها تعادل مائة مرة رحمة الأم بوليدها**"، لهذا فإن الله تعالى يكافئ على الحسنة بعشر أمثالها، وعلى السيئة بسيئة واحدة، وقد يرتفع عدد العشرة فيصل إلى سبعمائة مرة.

كما يجب أن نذكر أن الله تعالى تجاوز عن كثير من السيئات كرمًا منه ولطفًا كما قال: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (الأحقاف: 16)، وكما قال: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا (آل عمران: 31)، كما أنه قال: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ (النجم: 32)، فوضح أن اللمم لا يدخل ــ ضرورة ــ في ما يفترض أن يجتنبه المؤمنون واللمم قد يكون صغار الذنوب وكما قد يكون مقاربة الذنوب الكبيرة دون أن يتوغل فهذا أيضًا يدخل في باب غفران الله ورحمته.

لا يهم الإسلام بوجه خاص أن يقترف المسلم ذنبًا، ولكن يهمه أن تظل حاسة الإيمان مرهفة في نفسه، وأن هذه الحاسة مع اقترافه الخطأ تجعله في حالة استغفار وندم، وفي الوقت نفسه فإنه يقدم له الوسائل التي يكفر بها عن ذنبه حتى لا يصبح أسير الإحساس بالخطأ طول الوقت، ومثل هذه الحالة أثمن عند الإسلام من حالة الذي لا يخطئ ولا يحس بحاسة الاستغفار كما أشرنا من قبل، وقد جعل القرآن الكريم الاستغفار حصانة من عذاب الله، كوجود الرسول بين جنبي المسلمين فقال: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (الأنفال:

33)، وكما قلنا فإن هذه الأبعاد السيكولوجية هي مما لا يدركه الفقهاء الجفاة الـذين لا يعنون إلا بظاهر النص وبظـاهر النفس الإنسـانية أمـا أعماقـه فهـذا ممـا لا يخطـر لهم ببال.

وهناك أمران أخيران يجب أن نعلمهما:

الأول: أن باب المقاصة مفتوح حتى الغرغرة، أي حتى تفارق الروح صاحبها، وقبل هذا يمكن أن يتوب فتمحى عنه كل سيئاته، بل لو اتسع له الأجل لعمل صالحًا، فـإن سوءاته تلك مهما تعاظمت تتحول إلى حسـنات ﴿وَالَّذِينَ لا يَـدْعُونَ مَـعَ اللَّهِ إِلَهـاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَـلْ ذَلِـكَ يَلْـقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَـهُ الْعَـذَابُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَيَخْلُـدْ فِيـهِ مُهَانـًا * إِلاَّ مَنْ تَـابَ وَآمَنَ وَعَمِـــلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: 68ـ70)، وعلى هذا فلا يمكن إصدار حكم قاطع على من ارتكب إثمًا لأن من المحتمل أن يتوب فيمحى هذا المنكـر، وقـد تضـيق معاييرنـا عن تحمـل هذا، فنقضي ونحكم فورًا بمجرد ارتكاب الإثم ، وهو أمر مفهوم لأن مقاييسـنا لا يمكن أن تتسع وتنفسح وتصبح كمقاييس الله.

الثاني: أن الحساب سيكون على مجموع الحسنات ومجمـوع السـيئات وغلبـة أحـدهما على الآخـر، وليس على كـل ذنب على حـدة لأن ذلـك يجـافي المبـدأ السـابق والمحاسـبة لا تحـدث إلا يـوم القيامـة، وعلى مجمـوع عمـل الفـرد، فـإن زادت الحسنات فإلى الجنة، وإن زادت السيئات فالنار مصيره ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُـوَ فِي عِيشَـةٍ رَاضِـيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَـةٌ * وَمَـا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ (القارعـة: 6ـ10)، ولكن الحسـاب لا يكـون كحسـابنا ولكن بحسـاب أن الحسنة بعشر أمثالها أو حـتى بسـبعمائة ضـعف، والسـيئة لا تحسـب إلا واحـدة، يضاف إلى هذا ما أشرنا إليـه من تجـاوز اللـه تعـالى لكثـير من الـذنوب ولعـدم احتساب اللمم.

وقد صورت بعض الأحاديث، وما يتبادر إلى الذهن أن الإنسان ما أن يخطئ حتى يعاقب على خطئه فيدخل النار ثم يخرج منها لأنه ما من ذنب يمكن أن يوبـق المسـلم في النار، ولكن الأمر في نظرنا هو ما صورته الآية موازين تزن مجمـوع الحسـنات في كفة ومجموع السيئات في كفة ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَـةٌ ﴾.. الخ، والفـرق أن المسـلم في حالـة غلبـة مـوازين الحسنات يدخل الجنة ويعفى من دخول النار، مع ملاحظة أن حساب الحسنات يختلـف عن حساب السيئات، فهو قد يصل إلى أن تعد الحسنة بسبعمائة ضعف الشيئة.

أعتقد أن ميزانية حساب الحسنة بعشر أضعافها وفي حالات بسبعمائة ضـعف لا يمكن أن توقع ظلمًا على أحد، بل يغلب أن يكون مصير الأغلبية الساحقة الجنـــة، وأن

الإسلام أبعــد ما يكون عن القسوة كما يصور البعض، إنه الرحمة الـتي تفـوق التصـور البشري.

[3]
ماذا قال المفسرون عن اللمم ؟؟

أهالوا علينا الاتهامات، وقـالوا: إننـا نـدعو للزنـا والتحلـل، واعتقـدوا أن مـا نقولـه مخالف للقرآن الكريم.

حسناً، تعالوا ــ إذن ــ نقرأ ما قال كبار المفسرين (الطبري والنيسابوري والقرطبي وابن كثير والبغوي وسيد قطب) في تفسير ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ (النجم: 32)، لقد كنت مشفقاً أن أعلن هذا لأنه يفوق بكثير ما أعلناه، ولكن تعصبات الحمقى والأدعياء تجعلني أنقل حرفيًا ما قالوه.

قال الطبري ــ وهو شيخ المفسرين ــ في تفسيره:

(جامع البيان في تفسير القرآن)

الجزء السابع والعشرون ـ الطبعة الأولى ـ بولاق سنة 1329 هـ (ص 38 ــ 40)

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾، يقول تعالى ذكره ولله ملك ما في السموات وما في الأرض من شيء، وهو يضل من يشاء وهو أعلم بهم، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا يقول ليجزي الذين عصوه من خلقه فأساءوا بمعصيتهم إياه فيثيبهم بها النار، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى يقول وليجزي الذين أطاعوه فأحسنوا بطاعتهم إياه في الدنيا بالحسنى، وهي الجنة فيثيبهم بها، وقيل عني بذلك أهل الشرك والإيمــان، ذكر من قال ذلك. حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني عبد الله بن عياش قال: قال زيد بن أســلم في قول الله ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا: المؤمنون. وقوله الذين يجتنبون كبائر الإثم يقول الذين يبتعدون عن كبائر الإثم التي نهى الله عنها وحرمها عليهم فلا يقربونها، وذلك الشرك بالله وما قد بيناه في قوله إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم، وقوله: والفواحش وهي الزنا وما أشــبهه مما أوجب الله فيه حـدًا، وقوله إلا اللمم.

اختلف أهل التأويل في معنى إلا في هذا الموضع، فقال بعضهم: هي بمعنى الاستثناء المنقطع، وقالوا: معنى الكلام الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللم الذي ألموا به من الإثم والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام، فإن الله قد عفا لهم عنه فلا يؤاخذهم به ذكر من قال ذلك، حدثني علي قال ثنا أبو صالح قال ثنا معاوية عن علي عن ابن عباس قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَــائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَـمَ﴾ قال:

المشركون ؛ إنما كانوا بالأمس يعملون معنا فأنزل الله عز وجل اللمم ما كان منهم في الجاهلية، قال: واللمم الذي ألموا به من تلك الكبائر والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام وغفر لهم حين أسلموا، حدثني يعقوب قال ثنا ابن علية عن ابن عياش عن ابن عون عن محمد قال: سأل رجل زيد بن ثابت عن هذه الآية ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾، قال: إلا اللمم، قال: كبائر الشرك والفواحش الزنا، تركوا ذلك حين دخلوا في الإسلام فغفر الله لهم ما كانوا ألموا به وأصابوا من ذلك قبل الإسلام.

وكان بعض أهل العلم بكلام العرب ممن يوجه تأويل إلا في هذا الموضع إلى هذا الوجه الذي ذكرته عن ابن عباس يقول في تأويل ذلك: لم يؤذن لهم في اللمم، وليس هو من الفواحش، ولا من كبائر الإثم، وقد يستثنى الشيء من الشيء وليس منه على ضمير قد كف عنه فمجازه إلا أن يلم بشيء ليس من الفواحش ولا من الكبائر قال الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

واليعافير الظباء والعيس الإبل وليسا من الناس فكأنه قال: ليس به أنيس غير أن به ظبـاء وإبلاً. وقال بعضهم: اليعفور من الظبــاء الأحمر، والأعيس الأبيض، وقال بنحو هذا القول جماعة من أهل التأويل ذكر من قال ذلك، حدثني محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور عن معمر عن الأعمش عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي ويصدق ذلك الفرج ويكذبه فإن تقدم بفرجه كان زانيًا وإلا فهو اللمم، حدثنا ابن عبد الأعلى قال ثنا ابن ثور عن معمر قال وأخبرنا ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: **إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدركه ذلك لا محالة، فزنا العينين النظـر، وزنا اللسـان النطـق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه.** حدثني أبو السائب قال ثنا أو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مسروق في قوله إلا اللمم قال: إن تقدم كان زنا، وإن تأخر كان لممًا، حدثني يعقوب بن إبراهيم قال ثنا ابن علية قال ثنا منصور بن عبد الرحمن قال سألت الشعبي عن قول الله ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ **قال: القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة** إذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل وهو الزنا.

وقال آخرون: بل ذلك استثناء صحيح، ومعنى الكلام ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ إلا أن يلم بها ثم يتوب ذكر من قال ذلك، حدثني سليمان بن عبد الجبار قال ثنا أبو عاصم قال أخبرنا زكريا بن إسحق عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ **قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب قال: وقال رسول الله ﷺ**:

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبــد لك ما ألما ؟

حدثنا ابن المثنى قال ثنا محمد بن جعفر قال ثنا شعبة عن منصور عن مجاهد أنه قال في هذه الآية إلا اللمم قال: الذي يلم بالذنب ثم يدعه وقال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبـــد لك ما ألما ؟

حدثني محمد بن عبد الله بن بزيغ قال ثنا يونس عن الحسن عن أبي هريرة أراه رفعه في ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ **قال: اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود، قال: فتلك الإلمام، حدثنا ابن بشار قال ثنا ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن في قول الله ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾** قال: اللمة من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لا يعود. حدثني يعقوب قال ثنا ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن في قول الله ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ قال: اللمة من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لا يعود. حدثني يعقوب قال ثنا ابن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ قال: قد كان أصحاب النبي ﷺ يقولون: هذا الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر فيخفيها فيتوب منها. حدثنا ابن حميد قال ثنا مهران عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس **إلا اللمم يلم بها في الحين، قلت: الزنا ؟ قال: الزنا ثم يتوب. حدثنا ابن عبد الأعلى قال ابن ثورة قال قال معمر كان الحسن يقول في اللمم: تكون اللمة من الرجل بالفاحشة ثم يتوب. حدثنا ابن حميد قال ثنا مهران عن سفيان عن إسماعيل عن أبي صالح قال: الزنا ثم يتوب.**

قال ثنا مهران عن أبي جعفر عن قتادة عن الحسن إلا اللمم قال: أن يقع الوقعة ثم ينتهي. حدثنا أبو كريب قال ثنا ابن عيينة عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس قال: اللمم الذي تلم المرة. حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد قال أخبرني يحيى بن أيوب عن المثنى ابن الصباح عن عمرو بن شعيب أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: **اللمم ما دون الشرك. حدثنا ابن بشـــار قال ثنا أبو عامر قال: ثنا مرة عن عبد الله بن القاسم في قوله إلا اللمم قال: اللمـــة يلم بها من الذنوب.** حدثنا ابن حميد قال ثنا جرير عن منصور عن مجاهد في قوله إلا اللمم قال: الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه. قال: وكأن أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون:

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبـــد لك ما ألما ؟

وقال آخرون ممن وجه معنى إلا إلى الاستثناء المنقطع: اللمم هو دون حد الدنيا وحد الآخرة قد تجاوز الله عنه. ذكر من قال ذلك.

حدثنا ابن حميد قال ثنا مهران عن سفيان عن جابر عن عطاء عن ابن الزبير إلا اللمم قال: ما بين الحدين حد الدنيا وعذاب الآخرة.

حدثنا ابن المثنى قال ثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن الحكم عن ابن عباس أنه قال: اللمم ما دون الحدين حد الدنيا والآخرة.

حدثنا ابن المثنى قال ثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن الحكم وقتادة عن ابن عباس بمثله إلا أنه قال: حد الدنيا وحد الآخرة.

حدثني يعقوب قال ثنا ابن علية قال أخبرنا شعبة عن الحكم بن عتيبة قال قال ابن عباس: اللمم ما دون الحدين حد الدنيا وحد الآخرة.

حدثني محمد بن سعد قال ثني أبي قال ثني عمي قال ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ **قال: كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة تكفره الصلوات** وهو اللمم وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة.

حدثنا ابن حميد قال ثنا يحيى قال ثنا الحسين عن يزيد عن عكرمة في قوله إلا اللمم يقول: ما بين الحدين، كل ذنب ليس فيه حد في الدنيا ولا عذاب في الآخرة فهو اللمم.

حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ واللمم ما كان بين الحدين لم يبلغ حد الدنيا ولا حد الآخرة موجبة قد أوجب الله لأهلها النار، أو فاحشة يقام عليه الحد في الدنيا.

وحدثنا ابن حميد قال ثنا مهران عن أبي جعفر عن قتادة قال قال بعضهم: اللمم ما بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة.

حدثنا أبو كريب ويعقوب قالا ثنا إسماعيل بن إبراهيم قال ثنا سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس قال: اللمم ما بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة.

حدثنا ابن حميد قال ثنا مهران عن سفيان قال قال الضحاك: إلا اللمم قال: كل شيء بين حد الدنيا والآخرة فهو اللمم يغفره الله.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال إلا بمعنى الاستثناء المنقطع ووجه معنى الكلام إلى ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ بما دون كبائر الإثم ودون الفواحش الموجبة للحدود في الدنيا والعذاب في الآخرة، فإن ذلك عندي نظير قوله جل ثناؤه ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا**﴾ (النساء: 31)، **فوعد جل ثناؤه باجتناب الكبائر العفو عما دونها من السيئات وهو اللمم** الذي قال النبي ﷺ: العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، **ويصدق ذلك الفرج ويكذبه. وذلك أنه لا حد فيما دون ولوج الفرج في الفرج يجب، وذلك هو العفو من الله في الدنيا عن عقوبة العبد عليه والله جل ثناؤه أكرم** من أن يعود فيما قد

عفا عنه. كما روي عن النبي . واللمم في كلام العرب المقاربة للشيء ذكر الفراء: أنه سمع العرب تقول ضربة ما لمم القتل يريدون ضربًا مقاربًا للقتل، قال: وسمعت من آخر: ألم يفعل في معنى كاد يفعل.

وجاء في تفسير «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري المطبوع على هامش الطبري (ص 48 و 49):

وإضافة الكبائر إلى الإثم إضافة النوع إلى الجنس، لأن الإثم يشمل الكبائر والصغائر واختلف في الكبائر وقد أشبعنا القول فيها في سورة النساء في قوله: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ** والفواحش ما تزايد قبحه من الكبائر كأنها مع كبر مقدار عقابها قبيحة في الصورة كالشرك بالله، والمراد باللمم الصغائر، **والتركيب يدل على القلة** ومنه اللمم المس من الجنون، وألم بالمكان إذا قل لبثه فيه قال: (ألمت فحيث ثم قامت فودعت) وإلا صفة كأنه قيل كبائر الإثم وفواحشه غير اللمم أو استثناء منقطع لأن اللمم ليس من الفواحش ؛ عن أبي سعيد الخدري: اللمم هي النظرة والغمزة والقبلة. وعن السدي: الخطرة من الذنب. وعن الكلبي: كل ذنب لم يذكر الله ــ عز وجل ــ عليه حدًا ولا عذابًا. وعن عكرمة: **هي ما تعتاده النفس حينا بعد حين قال جار الله: معنى قوله: إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** أنه يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ويكفر الكبائر بالتوبة، وأقول فيه إشارة إلى **أن اللمم ما لا يمكن فيه الاجتناب عنه لكل الناس أو لأكثرهم فالعفو عن ذلك يحتاج إلى سعة** وكثرة بل فيه بشارة أنه سبحانه يغفر الذنوب جميعًا ؛ لأن غفران اللم لا يوجب الوصف بسعة المغفرة وإنما يوجب ذلك أن لو غفر معها الكبائر.

وجاء في تفسير الحافظ بن كثير

(الجزء الثامن، الطبعة الأولى، المنار سنة 1347، ص 114 ــ 116)

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**، أي يجازي كلا بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشرًا.

ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال في الآية الأخرى **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا**، وقال ههنا: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ، وهذا استثناء منقطع، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق معمر بن أرطأة عن بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي قال: (**إن**

الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى أخبرنا ابن ثور حدثنا معمر عن الأعمش عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانيًا وإلا فهو اللمم، وكذا قال مسروق والشعبي وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال: سألت أبا هريرة عن قول الله ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ قال: القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة، فإذا مس الختان الختان، فقد وجب الغسل وهو الزنا. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إلا اللمم إلا ما سلف، وكذا قال زيد بن أسلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: الذي يلم بالذنب ثم يدعه قال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبــــد لك ما ألما ؟

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن منصور عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: الرجل يلم بالذنب ثم ينتزع عنه قال: وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون:

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبــــد لك ما ألما ؟

وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعًا قال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار حدثنا أبو عاصم حدثنا زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبــــد لك ما ألما ؟

وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن عثمان أي عثمان البصري عن أبي عاصم النبيل ثم قال: هذا حديث صحيح حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق، وكذا قال البزار: لا نعلمه يروي متصلاً إلا من هذا الوجه، وساقه ابن أبي حاتم والبغوي من حديث أبي عاصم النبيل، وإنما ذكره البغوي في تفسير سورة تنزيل وفي صحته مرفوعًا نظر.

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيع حدثنا يزيد بن زريع حدثنا يونس عن الحسن عن أبي هريرة أراه رفعه في ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ **قال: اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود، قال: فذلك الإلمام**.

وحدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ **قال: اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لا يعود**.

وحدثني يعقوب حدثنا ابن عليــة عن أبي رجاء عن الحسن في قوله: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون هو الرجل يصيب اللمة من الزنا واللمة من شرب **الخمر فيجتنبها ويتوب منها**.

وقال ابن جرير: عن عطاء عن ابن عباس ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ يلم بها في الحين، قلت: الزنا ؟ قال: الزنا ثم يتوب. وقال ابن جرير: ــ أيضًا ــ حدثنا أبو كريب حدثنا ابن عيينة عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس قال: اللمم الذي يلم المرة، وقال السدي: قال أبو صالح: سئلت عن اللمم فقلت: هو **الرجل يصيب الذنب ثم يتوب، وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم**، حكاه البغوي.

وروي ابن جرير من طريق المثنى بن الصباح ــ وهو ضعيف ــ عن عمرو بن شعيب أن عبد الله بن عمرو قال: اللمم ما دون الشرك، وقال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن عطاء عن ابن الزبير ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: ما بين الحدين حد الزنا وعذاب الآخرة، وكذا رواه شعبة عن الحكم عن ابن عباس مثله سواء. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة تكفره الصلوات فهو اللمم، وهو دون كل موجب. فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة، وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ (النجم: 32) أي رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب كقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾.

وجاء في تفسير البغوي

الذي طبع أسفل تاريخ ابن كثير

﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ اختلفوا في معنى الآية فقال قوم: هذا استثناء صحيح، واللمم من الكبائر والفواحش، **ومعنى الآية إلا أن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب ويقع الوقعة ثم ينتهي** وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عطاء عن ابن عباس، قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللمم ما دون الشرك. وقال السدي قال أبو صالح سئلت عن قول الله تعالى ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده فذكرت ذلك لابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم. وروينا عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبـــد لك ما ألما ؟

وأصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين ولا يكون له عادة ولا إقامة عليه، وقال آخرون: هذا استثناء منقطع مجازه لكن اللمم ولم يجعلوا اللمم من الكبائر والفواحش ثم اختلفوا في معناه فقال بعضهم: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم الله به وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين أنهم كانوا بالأمس يعملون معنا فأنزل الله هذه الآية، وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم. وقال بعضهم: هو صغار الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة وما كان دون الزنا. وهذا قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي ورواية طاوس عن ابن عباس.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمود بن غيلان أنا عبد الرزاق أنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قاله أبو هريرة عن النبي ﷺ: ([illegible]) [illegible] عن النبي ﷺ [illegible]: ([illegible]).

[illegible]: [illegible] كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًا في **الدنيـا ولا عذابًا في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلوات ما لم يبلغ الكبـائر والفواحش، والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه، وقال سعيد بن المسيب: هو ما لمّ على القلب أي خطر،** وقال الحسين بن الفضل: اللمم النظرة من غير تعمد فهو مغفور، فإن أعاد النظرة فليس بلمم وهو ذنب «**إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**» قال ابن عباس: لمن فعل ذلك وتاب. تم الكلام ههنا ثم قال: ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ**﴾ أي خلق أباكم آدم من التراب.

وقال القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي):

في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)
طبع دار الكتب المصرية 1367 هـ / 1948م ــالجزء السابع عشر (ص 106 ـ 210)

قوله تعالى: **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**، فيه ثلاث مسائل:

الأولى: **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ**، هذا نعت للمحسنين ؛ أي هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشــرك ؛ لأنه أكبر الآثام. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي (كَـبِـيرَ) على التوحيد، وفســره ابن عباس بالشرك، «وَالْفَوَاحِشَ» الزنى. وقال مقـاتل: كَبَائِرَ الإِثْمِ كل ذنب ختم بالنار وَالْفَوَاحِشَ كل ذنب فيه الحد، وقد مضى في "النساء" (راجع جـ 5، ص 158، فما بعدها، طبعة أولى أو ثانية)، القول في هذا، ثم استثنى استثناء منقطعا وهي:

المسألة الثانية: فقال: **إِلاَّ اللَّمَمَ وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه، وقد اختلف في معناها، فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي: اللَّمَمَ كل ما دون الزنى**، وذكر مقاتل بن سليمان: أن هذه الاية نزلت في رجل كان يسمى نبهان التمار، كان له حانوت يبيع فيه تمرًا، فجاءته امرأة تشتري منه تمرًا فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت فندم نبهان، فأتى رسول الله فقال: يا رسول الله ! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع، فقال: "لعل زوجها غازٍ" فنزلت هذه الآية، وقد مضى في آخر "هود" وكذلك قال ابن مسعود وأبو سعيد الخدري وحذيفة ومسروق: **إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة. وروي مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: زنى العينين النظر، وزنى اليدين البطش، وزنى الرجلين المشي وإنما يصدق ذلك أو يكذبه الفرج، فإن تقدم كان زنى وإن تأخر كان** لممًا. وفي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي قال: (**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهى، والفـرج يصدق ذلك أو يكذبه**)، والمعنى أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحد في الدينا والعقوبة في الآخرة هو في الفرج وغيره له حظ من الإثم ــ والله أعلم ــ وفي رواية أبي صالح عن النبي قال: (**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوي ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه**) (أخرجه مسلم)، وقد ذكر الثعلبي حديث طاوس عن ابن عباس فذكر فيه: الأذن واليد والرجل، وزاد فيه بعد العينين واللسان، وزنى الشـفتين القبلة، فهذا قول. وقال ابن عباس أيضًا: هو الرجل يلم بذنب ثم يتوب، قال: ألم تســمع النبي كان يقول:

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبـــد لك ما ألما ؟

رواه عمرو بن دينار عن عطاء بن عباس (روي هذا الحديث الترمذي بهذا الإسناد وقال: هذا حديث حسن غريب، والبيت لأمية بن الصلت قاله عند احتضاره) قال النحاس: هذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسنادًا. وروي شعبة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس في قول الله عز وجل ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾، قال: هو أن يلم العبد بالذنب ثم لا يعاوده، قال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبـــد لك ما ألما ؟

وكذا قال مجاهد والحسن: هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده، ونحوه عن الزهري، قال: **اللمم أن يزني ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرق أو يشرب ثم يتوب فلا يعود، ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾** (آل عمران: 135)، ثم قال: **﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** (آل عمران: 136)، كما قال عقيب اللمم: **﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾**، فعلى هذا التأويل يكون **﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾** استثناء متصل. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: **اللمم ما دون الشرك. وقيل: اللمم الذنب بين الحدين، وهو ما لم يأت عليه حد في الدنيا، ولا توعد عليه بعذاب في الآخـرة تكفره الصلوات الخمس**، قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة، ورواه العوفي والحكم بن عيينة عن ابن عباس، وقال الكلبي: اللمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًا في الدنيا ولا عذابًا في الآخـرة، فذلك الذي تكفـره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش، والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلم به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه. وعن ابن عباس أيضًا وأبي هريرة وزيد بن ثابت: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت، وقاله زيد بن أسلم و (ابنه) (في الأصل: وأبوه، وما أثبتناه يوافق ما في تفسير أبي حيان والطبري)، وهو كقوله تعالى: **﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾** (النساء: 23)، وقيل: اللمم هو أن يأتي بذنب لم يكن له بعادة، قاله نفطويه، قال: والعـرب تقول: ما يأتينا إلا لمامًا، أي في الحين بعد الحين، قال: ولا يكون أن يلم ولا يفعل ؛ لأن العرب لا تقول ألم بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا هم ولم يفعله، وفي الصحاح: وألم الرجل من اللمم وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعـة، وأنشد غير الجوهري:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل إنْ تملينا فما ملك القلــب

أي أقرب. وقال عطاء بن أبي رباح: اللمم عادة النفس الحين بعد الحين، وقال سعيد بن المسيب: هو ما ألم على القلب، أي خطر، وقال محمد بن الحنفية: كل ما هممت به من خير أو شر فهو لمم، ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: (**إن للشيطان لمة وللملك لمة**) الحديث، وقد مضى في "البقرة" (راجع جـ 3، ص

329، طبعة أولى أو ثانية)، عند قوله تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ**﴾ (البقرة 268)، **وقال أبو إسحق الزجاج: أصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه، ولا يقيم عليه، يقال: ألممت به إذا زرته وانصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لمما وإلمامًا، أي الحين بعد الحين وإنما زيارتك إلمام**، ومنه إلمام الخيال، قال الأعشي:

ألم خيال من قتيـــــلة بعد ما وهي حبلها من حبلنا فتصرما

وقيل: إلا بمعنى الوأد وأنكر هذا الفراء، وقال: المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب. وقيل: اللمم النظرة التي تكون فجأة.

قلت: هذا فيه بعد إذ هو معفو عنه ابتداء غير مؤاخذ به ؛ لأنه يقع من غير قصد واختيار وقد مضى في "النـور" (راجع جـ 12، ص 227، طبعة أولى أو ثانية)، بيانه، واللمم أيضًا طرف من الجنون ورجل ملموم أي به لمم. ويقال أيضًا: أصابت فلاناً لمة من الجن وهي المس والشيء القليل، قال الشاعر:

فإذا وذلك يا كبيشة لم يكن إلا كلمِّـة حالم بخيـــــــال

(ابن مقبل، والواو في ذلك زائدة كقول أبي كبير الهذلي:

فإذا وذلك ليس إلا حينـــه وإذا مضى شيء كأن لم يفعل)

وقال سيد قطب (في ظلال القرآن)

الجزء السابع والعشرون ـ الطبعة الأولى ـ عيسى البابي الحلبي (ص 62ـ63)

﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾.

وكبائر الإثم هي كبار المعاصي، والفواحش كل ما عظم من الذنب وفـَحش، واللمم تختلف الأقوال فيه، فابن كثير يقول: وهذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغار الذنوب ومحقرات الأعمال، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرازق، أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ قال: "**إن الله تعالى إذا كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه**" (أخرجه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق).

وقال ابن جريـر: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن ثـور، حدثنا معمر، عن الأعمش، عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال: **زنا العين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زنا، وإلا فهو اللمم**، وكذا قال مسروق والشعبي.

وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي، قال: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾، قال: القبلة والنظرة والغمزة والمباشرة، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل، وهو الزنا.

فهذه اقوال متقاربة في تعريف ﴿اللَّمَمَ﴾.

وهناك أقوال أخرى:

قال علي بن طلحة عن ابن عباس: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ إلا ما سلف، وكذا قال زيد ابن أسلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثني، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن منصور، عن مجاهد، أنه قال في هذه الآية: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾، قال: الذي يلم بالذنب ثم يدعه.

وقال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا أبو عاصـم، حدثنا زكريا عن ابن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾.. قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب، وقال: قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جمًا　　وأي عبـــد لك ما ألما ؟

وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن عثمان البصري عن أبي عاصم النبيل، ثم قال: هذا حديث صحيح حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق، وكذا قال البزار: لا نعلمه يروي متصلاً إلا من هذا الوجه.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيع، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا يونس، عن الحسن، عن أبي هريرة (أراه رفعه) في ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾، قال: **اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود، قال: فذلك الإلمام**، وروي مثل هذا موقوفا على الحسن.

فهذه طائفة أخرى من الأقوال تحدد معنى اللمم تحديدًا غير الأول.

والذي نراه أن هذا القول الأخير أكثر تناسبًا مع قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾**، فذكر سعة المغفرة يناسب أن يكون اللمم هو الإتيان بتلك الكبائر والفواحش، ثم التوبة، ويكون الاستثناء غير منقطع، ويكون الذين أحسنوا هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، إلا أن يقعوا في شيء منها ثم يعودون سريعًا ولا يلجون ولا يصرون،** كما قال الله: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ (آل عمران: 133ــ136)، وسمى هؤلاء "المتقين" ووعدهم مغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض، فهذا هو الأقرب إلى رحمة الله ومغفرته الواسعة.

* * *

هذا هو ما قاله المفسرون في تفسير اللمم، وهو يجاوز ويفوق ما قلناه، ويثبت أن هؤلاء الأسلاف كانوا أكثر سماحًا وسعة أفق ومعرفة بجوانب الضعف البشري منا.

هل يستطيع الذين أهالوا علينا اللعنات أن ينقلوها إلى هؤلاء المفسرين الأجلاء؟

المدخل الثالث
نظرتنا إلى المرأة
أقرب إلى الجاهلية منها للإسلام

كانت «دونية المرأة» أمرًا مقررًا من أقدم العصور، ونجـد في قـانون حمـورابي، وفي القانون الهندي نصوصًا تلحـق المـرأة بالعبيـد وتجردهـا من الشخصـية المسـتقلة وتخضعها لأبيها أولاً ثم لزوجها ثانيًـا، وجـاءت اليهوديـة فطمسـت شخصـية المـرأة في شخصية الزوج (بلادك بلادي وإلهك إلهي)، وقنن أرسطو هـذه الدونيـة وفلسـفها ورأى فيها أمرًا طبيعيًا، وتحدث عن حق الرجل في عبده، وثـوره، وزوجتـه، وانسـحب تـأثيره الضخم على القانون الروماني، فاعتبر المرأة قاصرًا لا تبلغ أبدًا سن الرشد، ويجب أن يكون عليها وصي قد يكون أباها أو أخاها أو زوجها.

وخضعت المرأة في جزيرة العـرب قبـل الإسـلام لهـذا الـتراث، وأصـبحت كبقيـة نساء العالم ــ وقتئذ ــ رغم أن البيئة الصحراوية وانعـدام النظم الحاكمـة والحضـارات التقليديـة كـانت تسـمح بهـامش من الحريـة للمـرأة، إلا أن الغـارات المتبادلـة مـا بين القبائل، والتي كانت ممارسات معهودة عندما تشح السماء بالماء، كانت تعرض المرأة للسبي ويكون من حق الغالب الاستحواذ عليها واغتصابها، وكانت تلك هى سُبة الـدهر عند العربي الجاهلي، وهي التى جعلتهم يرون أن (القبر) هـو السـتر الحقيقي للمـرأة، كما قال شاعرهم:

إنى وإن سيق إلى المهـــر
ألفُ وعبدان وَذِود[1] عشر
أحب أصهاري إليَّ القبر !

وقال الآخر:

لكل أبي بيت يُرَجَّى بقــاؤها ثلاثة أصهار إذا ذُكَر الصهــر
فبيت يغطيها، وبعل يصونها وقبر يواريها، وخيرهم القبر!

بل كان القبر فعلاً هو الملاذ المفضل للبنت عندما تولد فيمـا عـرف بـالوأد، فكـان أبوها يحفر لها حفرة في الرمال ثم يهيلها عليها، حتى لا تؤده نفقتها، أو تسبى فيلحقـه العار، ويصف القرآن هذا الفعل الشنيع ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَـدُهُمْ بِـالأُنْثَى ظَـلَّ وَجْهُـهُ مُسْـوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِـهِ أَيُمْسِـكُهُ عَلَى هُـونٍ أَمْ يَدُسُّـهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُـونَ﴾ (النحـل: 58،59)، وكـذلك ﴿وَإِذَا الْمَـوْءُودَةُ سُـئِلَتْ * بِـأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير: 8،9).

---

[1] الذود: القطيع من الإبل بين الثلاثـة والعشـرة، وقوله: ذود عشـر يقصـد عشـرة من الذود، أى عشرة قطعان من الإبل.

هـذه هي "حميـة الجاهليـة" الـتي دفعت العـربي لأن يـرى في المـرأة عرضًـا أو شخصًا له دون أن يطرأ له أنها إنسان له إرادة وشخصية، ومن ثم فالقبر أولى بها عند أول بادرة لانتهاك العرض والشرف المزعوم.

ولاحظ ناقد دقيق في كتاب له تتبع ما يقال عن المرأة في الجاهلية ارتبـاط هـذه الأقوال بمباشرتهم الدائمة للإبل والخيل، فيطلقون على "الخلخـال" حجلاً، وهـو القيـد الذي كانوا يقيدون به خيولهم، وأطلق على المـرأة المقيـدة ببيتهـا من ربـات الحجـال، وفي استعراضه لما يطلق على المرأة العربية من أوصاف ـ اتضح أنهـا، أصـلاً ـــ ممـا يطلـق على الإبـل أو الخيـل، وأن الصـفات الـتي كـان يستحسـنها العـربي في ناقتـه أسـقطها على المـرأة، وأن هـذا لا يقتصـر على الصـفات الماديـة، وإنمـا أيضًـا على الصفات المعنوية والنقية لها، وهذا ما ينطبق أيضًا على الخيل التي كـانت مثيلـة للإبـل في حاجة العربي القديم.

ويقـول الكـاتب: "وإذ أن النـاطقين بهـذه اللغـة كـانوا يعاشـرون الناقـة والفـرس ويعايشـونهما معيشـة كاملـة، فـإنهم نظـروا إلى المـرأة من ذات المنظـر الـذي كـانوا يرونهما به، فكلما كانت المـرأة قريبـة الشـبه بالناقـة السـمينة الكنـَاز (الكثـيرة اللحم الصلبة) غدت حبيبة إلى نفوسهم، وإذ أن أصحاب اللسـان العـربي درجـوا على ركـوب البعير والخيل والتعامل معهمـا كمـا يتعامـل الإنسـان المُتـَبدِّى مـع الحيـوان فـإنهم قـد أطلقوا على فعل تماسهم بالمرأة أسماء تنطلق من ذات الأرضية.

في الوقت الذي نرى فيه الشـعوب ذات الحضـارة السـامقة تنـادى المـرأة بـأرق الألفاظ وتصفها بأحلى الأوصاف وتسميها بأعذب الأسماء، إذ بأولاد يعرب بـني يشـجب يطلقون عليها تلك الأسامي الكريهة الممجة المنفرة والتي تشـي بكـُنـْه تقـويمهم لهـا وترفع الحجاب عن مكانتها لديهم وتزيح الستار عن قدرها في نفوسهم، وذلـك جميعـه ضرب لازب ونتيجـة حتميـة للبيئـة الجـرداء المُقـْفِرة الـتي عاشـوا فيهـا والـتي تـركت بصمتها على لغتهم"[1].

وكان من العادات الذميمة أن الزوج إذا مات كان يمكن لابنـه، أو أخيـه أن يطـرح ثوبه على امرأته فيرث نكاحها ويكـون من حقــه أن يَنكحهـا، أو يُنكحهـا من يشـاء، أو يمسكها ضرارًا وعضلاً لتفتدي منه. وعندما توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وتـرك امرأته كبيشـة بنت معن الأنصـارية قـام ابن لـه من غيرهـا فطـرح ثوبـه عليهـا فـورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها يضارها لتفتدي منـه، فـأتت كبيشـة رسـول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا قيس توفى وورث نكاحي ابنـه فلا هو ينفق عليّ ولا يدخل بي ولا يخلي سبيلي، فقال ﷺ: (اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر اللـه)، فـأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُـلُوهُنَّ لِتَـذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِـالْمَعْرُوفِ فَـإِنْ كَرِهْتُمُـوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 19).

---

(1) **كتاب "العرب والمرأة: حفرية في الأسطير المخيم" بقلم خليل عبد الكـريم، دار سينا للنشر.**

وقام الإسلام بما يشبه الثورة، فقرر المساواة في الحقوق والواجبات.. الثواب والعقاب، وحث على حضورهن الصلوات في المسجد والأعياد، وحرم صورًا عديدة من صور ممارسات استغلال المرأة أو الحيف على حقوقها، أو الإضرار بها، في الزواج والطلاق، وحد من تعددية الزوجات، وأوجب أن تستشار الفتاة فيمن يتقدم لها للزواج، وعندما أنزل الله آيات الميراث التي تعطي المرأة نصيبًا كبيرًا، ارتاع العرب وأخذوا يسألون الرسول ﷺ (أهكذا أنزلت) ؟ ولولا نص القرآن ومقام الرسول ﷺ لامتنعوا.

وكان الرسول ﷺ نصيرًا مطبوعًا للمرأة بحكم عوامل نشأته، فقد ولد يتيمًا، فقامت أمه على تربيته، وعهدت به إلى حليمة السعدية لترضعه في البادية الحرة وليلتقط العربية الفصيحة، ولم تكد تعود به إلى أمه طفلا يبدأ الخطو حتى توفيت أمه، فتولته حاضنته الأمينة المخلصة أم أيمن، فعاش طوال طفولته بين أحضان النساء.

ولما شب ﷺ وضع الله تعالى في طريقه السيدة خديجة التي جعلتها فراستها الصادقة تفضله على غيره ممن كان أكثر مالاً وأقرب نسبًا، وفي خديجة وجد الرسول ﷺ الأمن والأمان، فلما جاءه الوحي وعاد إليها ملتاعًا تلقته بين ساعديها وأعادت إليه الثقة وأسلمت معه.

وعندما بدأت الدعوة بادر كثير من النساء بالإيمان بها وتحملن العذاب الأليم، وإذا كانت خديجة هي أول نفس آمنت، فإن سمية هي أول نفس استشهدت.

هذه الصلة الوثيقة للرسول ﷺ بالمرأة أما وحاضنة، ثم زوجة وراعية، ثم مؤمنة مضحية، ولمسه ما فيها من حب وحنان وتضحية وإخلاص تركت في نفسه أثرًا عميقًا، وغرست الفكرة الطيبة الكريمة عن المرأة، وانعكس ذلك على سلوكياته وتصرفاته واتجاهه العام نصيرًا لها وداعيا لحقوقها ومنددًا بكل ظلم أو اضطهاد يلحق بها.

من هنا نفهم كيف يقول هذا الرسول ﷺ الذي بعث لأقوام يفخرون بالرجل ويستَعِّرون من المرأة: (أنا ابن العواتك من سليم) [1]، وكيف يقول: (النساء شقائق الرجال)، وكيف يقول: (ما أكرمهن إلا كريم، وما أبغضهن إلا لئيم)، ويقول: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)، وكيف كان وهو الرسول العظيم في مهنة أهله، وكيف كان يقوم عندما تدخل عليه ابنته فاطمة ويعانقها ويقبل رأسها ويأخذ بيدها ويجلسها، وكيف كان يثني ركبته لتركب صفية ناقتها، وكيف كان يبسط رداءه لمن يأتيه من كرائم النساء وكانت آخر كلماته (استوصوا بالنساء).

ويقارب هذا في الدلالة أن الرسول ﷺ في هذا المجتمع (الذكوري الجاهلي)، لم يتردد في أن يجيب على سؤال عمن يحب، فيقول: عائشة.

---

(1) **جمع عاتكة والعاتكة هي المتضمخة بالطيب، والعواتك ثلاث نسوة كن أمهات النبي، الأولي عمة الثانية، والثانية عمة الثالثة، وبنو سليم تفخر بهذه الولادة ــ (الحديث عن سبابة بن عاصم (ص طب)، انظر جامع الأحاديث للإمام السيوطي رقم 4736 ج2 ص183).**

وأرسى الرسول [illegible] مبدءًا هامًا ذلـك أن لا يكـون الـزواج إلا بعـد اسـتئذان المـرأة، وأن يكون الحبّ، وبالذات حب المرأة ــ عنصرًا رئيسيًا ــ في استمرار الزواج، فـإذا لم يتوفر وجب الطلاق.

في حالات عديدة رفض الرسول [illegible] ([illegible]).

[illegible]:

[illegible] لدي بريرة أن يعود إليها، فسألته: أتأمرني ؟ فقال: لا إنما أنا شافع، فقالت: لا حاجة لي به.

فانظر إلى موقف الرسول العظيم ــ سيد العرب جميعًا ــ وهو يسعى إلى امــرأة كانت جارية لزوجته يشـــفع لأن يعـود إليهـا زوجهـا المحب، ولكنهـا تـرفض، فلا يعقب الرسول [illegible].

[illegible]: هي زوجة ثابت بن قيس وكان كلاهما من خيرة الصحابة، ولكن زوجته صارحت الرسول [illegible] لا تنقـم على زوجها شيئاً في خلق أو دين، ولكنها لا تحبـــه، وقـالت: فـرق بيـني وبينـه فـإني أبغضـه، لقـد رفعت طرف الخباء فوجدتـه يجيء في أقـوام فكـان أقصـرهم قامـة، وأقبحهم وجهًـا، وأشدهم سوادًا، وإني أكره الكفر بعد الإسلام، فأمرها الرسول [illegible]. وقال لثابت: خذ منها ما أعطيتها وخل سبيلها. فكان أول خلع في الإسلام (تفسير الرازي، جـ 6، ص 86).

لم يقل الرسول [illegible].

[illegible] المرأة أن تلوكها الألسن دون دليل، ولما كان إحضار الشهود عسيرًا ومستحيلاً في هـذه اللحظـة، فقـد أنـزل اللـه آيـة الملاعنـة [illegible]وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْـهِ إِنْ كَـانَ مِنْ الْكَـاذِبِينَ * وَيَـدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَـبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنْ الصَّـادِقِينَ * وَلَـوْلا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَـوَّابٌ حَكِيمٌ[illegible] (النور: 6: 10).

ولما نزلت هذه الآية كبر الأمر على العرب، حتى لقد قال سعد بن عبادة: أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ لو أتيت لكاع [كناية عن زوجته] قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، والله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته، فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار، ألا تسمعون إلى ما يقول سيدكم ؟ قالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور ما تزوج فينا قط إلا عذراء، ولا طلق امرأة لـه فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، فقال سعد: يا رسول الله بأبي وأمي، والله إني لأعرف أنها من الله، وأنها حق ولكن عجبت.

ولم يكن سعد بن عبادة ــ وحده ــ هو الذي تعجب من هذه الآية، إن عمر بن الخطاب نفسه لم يأخذ بها عندما دخل عليه رجل وسيفه يقطر دمًا ووراءه ناس يقولون: هذا قتل صاحبنا، فسأله عمر، فقال: ما أدري فقد ضربت بسيفي فخذي امرأتي، لم يقل عمر شـاهداك أو حد في ظهرك، كما قال الرسول ﷺ لهلال بن أمية، ولكنه استحسن فعله وصرف الناس، **ودل ذلك على أن النظرة إلى المرأة تخلفت درجة حتى في هذا العصر، وحتى لو جاء ذلك من عمر، والحقيقة أن آيات الملاعنة التي نزل بها القرآن وطبقها الرسول ظلت في حكم المعطلة، لأن المجتمع العربي بأسره يؤمن بالعرف الجاهلي وأنه**:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الـــــــــدم

ومن هنا نسمع عن جرائم الشرف، ولكننا لا نسمع عن آيــة الملاعنة.

وفي أيامنا الأخيرة، زكـّى الشيخ القرضاوي فعل عمر، وبنى عليه حق الزوج الذي يضبط زوجته في حالة زنى بآخر في أن يقتله[1].

وقدم الرسول ﷺ سابقة يمكن أن تستخدم في حالة تعدد الزوجات عندما رفض أن يتزوج عليٌّ بن أبي طالب على فاطمة زوجة أخرى، وقال: إنه لا يحرم حلالاً ولا يحل حرامًا. فدل بهذا على أن التعدد ليس عامًا كما ذهبوا، وأن الزواج مثنى وثلاث ورباع ليس حقاً مطلقاً كفله الشرع، ويُعد أي تحديد له عدوان عليه.

وقد غرس القرآن الكريم بذرة واحة زاهرة وسط صحراء الأعراب الجاهلية القاحلة في شكل مجتمع مختلط يضم الزوجة والزوج وأب الزوج وأب الزوجة وإخوة الزوجة وأبناء إخوانها وأبناء أخواتها وما ملكت أيمان الزوجة من أرقاء أن يجتمعوا معًا، ويمكن للمرأة أن تلبس ما تشاء، بشرط أن لا يتعدى ما كشفه ما بين السرة والركبة، أي يدخل فيه ما يسمونه "الديكولتيه" الذي يكشف عن الصدر والظهر، ويلبس في

---

(1) انظر مقالنا في جريدة "المصري اليوم" بتاريخ 4/10/2006: " يا فقهاء الإسلام أين أنتم من القرآن" الذي علقنا فيه على هذه الحالة، وقد نشر المقال في الجزء الثامن من "المختار من البحوث والمقالات" لجمال البنا، ص 84، ط. دار الفكر الإسلامي.

مناسبات السهرة، ولكن هذه البذرة لم تنبت، لا في عهد الرسول ﷺ، ولا حتى الآن، وقد يمكن أن تنبت بعد مائة عام عندما يتحرر المجتمع المسلم من آثار ذكوريته[1].

* * *

هناك من الشواهد والدلالات على أن الرسول ﷺ **وحده** هو الذي كان يقدر المرأة حق التقدير أكثر من كل العرب، بل ومن كل صحابته، وأنه أراد بكل الطرق أن يعطيها حقوقها، ولكن ظهر عاملان أهدرا ما عمله الرسول:

الأول: قصر مدة حكم الرسول ﷺ [illegible] ﷺ [illegible]: ([illegible] فإنها منتنة)، وطوال حياته [illegible] التي أوهنت الدولة الأموية، وحكم المسلمين للأندلس. ونهى الرسول ﷺ [illegible]:

[illegible] علني ثم علني ثلاث زجاجات لهن هديـــر

خرجت أجر الذيل حتى كأنني عليك أميرَ المؤمنين أميـــرُ

فلا يردعه، بل يعجب بالصياغة الشعرية.

إن قوى عديدة كانت تزحف على المجتمع الإسلامي وتزحزحه من العهـد النبـوي، وتسير به إلى عهود أخرى تختلف تمامًا عما كان عليه الأمـر وقت الرسـول، وقـد عـبر عن هذا التغيير الذي لمسه في وقت مبكر أنس بن مالك عندما قال: "ما أعرف شـيئاً اليوم مما كنا عليه على عهد رسول الله، قال قلنا: فأين الصـلاة ؟ قـال: أو لم تصـنعوا في الصلاة ما قد علمتم ؟ ـ يعني تأخيرها عن وقتها المختار ـ وهو أيضًا ما لاحظه أبـو الدرداء عندما دخـل على زوجتـه وهـو مغضـب، فقـالت: من أغضـبك ؟ قـال: واللـه لا أعرف فيهم من أمر محمد ﷺ شيئاً، إلا أنهم يصلون جميعًا. وفي رواية: إلا الصلاة[2].

---

(1) انظر أقوال المفسرين في تفسير الآية 31 من سورة النور ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ التي أباحت لهذه الفئات أن ينظروا إلى المرأة باستثناء ما بين السرة والركبة، انظر كتابنا "الحجاب"، ص 96 ـ 100.

(2) "الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني"، للشيخ البنا، جـ 1، ص 185 ـ 200.

وبالطبع، فإن كل ما وضعه الرسول [illegible] من أصول الحكم انتهت تمامًا مع ظهور الملك العضوض وأمراء الإرهاب زياد والحجاج والسفاح وأبو مسلم وعبد الملك بن مروان.. الخ، وطبيعي أن يكون ما حاوله الرسول [illegible] بالنسبة للمرأة هو أول ما ضحى به الملك العضوض خاصة بعد الانتقال من المدينة إلى دمشق ــ وهي بيزنطية الأصل ــ ثم إلى بغداد ـــ وهي فارسية الأصل ـــ وكان البيزنطيون والفرس ممن يؤمنون بدونية المرأة، وانتقلت هذه الفكرة فيما انتقل إلى المجتمع الإسلامي عندما جعل هذين عاصمتيه.

أما العامل الثاني: فهو أن المجتمع الجاهلي لم يكن سعيدًا بتوجيهات الرسول [illegible] معها، فقد أمر الرسول [illegible]: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)، ومع هذا حاول عمر بن الخطاب والزبير بن العوام إثناء زوجيهما عن الصلاة في المسجد، وقال ابن لعبد الله بن عمر عندما ذكر أبوه هذا الحديث له: (بلي.. والله لنمنعهن حتى لا يتخذنه دغلاً)، فإذا كان هذا الرفض يأتي من أحد أبناء عبد الله ابن عمر، فما بالك بالآخرين ؟

وكان الرسول [illegible] بيده أحدًا لا رجلاً ولا امرأة ولا خادمًا، في حين أن أبا بكر ــ وهو أحلم الصحابة ــ صفع عائشة على وجهها لما تحدثت عن الرسول [illegible] رأى أنه يخالف أدب الخطاب، وكان الرسول [illegible] في أمر وحكما أبا بكر، وفرت عائشة من أمامه واحتمت برسول الله [illegible]: ([illegible])[illegible] [illegible].

كان النبي [illegible] قد أمر المسلمين: "لا تضربوا إماء الله"، فجاء عمر إلى النبي وقال: يا رسول الله: قد ذئرت النساء على أزواجهن، فرخص النبي في ضربهن، فضربت ذلك اليوم سبعون امرأة في بيوتهن، فلما كان الغد ازدحمت النساء على باب النبي [illegible] فدعا الناس فخطب: (لقد طاف الليلة بآل محمد سبعون امرأة كل امرأة تشتكي زوجها، فلا تجدون أولئك خياركم) [أبو داود وابن ماجة والدارمي].

[illegible]: ([illegible]).

[illegible] "[illegible]" [illegible] "[illegible]" [illegible].

[illegible]: "[illegible]".

[illegible] 1955: [illegible] !

وتحدثت عن زوجة اضطرت لأن تطلب الطلاق، لأنه كان عليها أن تقبل يــدى أم زوجها وأبيه كل يوم ، ولا تخرج إلا بإذن ذلك الأب ومعها رقيب خاص.

ولمـا كـانت المحاضـرة تلقى على مجموعـة من المفكـرين والعلمـاء وتتعـرض للتعقيب فقد عقب عليها الدكتور على عبد الواحد وافى، وهـو أسـتاذ اجتمـاع تعلم فى فرنسا وألم بالطبع بالجوانب المتعددة والمختلفة لقضية المرأة.. فانتقد عليها.

[illegible]

[illegible] !! [illegible] (1).

[illegible]

[illegible]

[illegible] (71 :[illegible]).

[illegible]:

[illegible]

* * *

إذا أردت أن تعلم هل نظرتك إلى المرأة هي نظرة محمد ﷺ والقرآن أو نظرة أبي جهل والجاهلية فاسأل نفسك:

---

(1) كتاب الأصفياء "ندوة علم وفن وسياسة بالقاهرة للأستاذ محمد على الحوماتى" ص299 إلى 309، (دار مصر للطباعة، 1955).

- هل تقول لزوجتك (أحبك) كما كان الرسول [illegible] يقول لعائشة ؟ وهل تعلنها على رؤوس الأشهاد ؟
- هل تدللها وتلاعبها كما كان الرسول [illegible] يدلل عائشة ويسابقها وتسابقه ؟
- هل تتيح لها حظاً من اللهو، كما كان الرسول يتيح لعائشة أن تتفرج على لعب الحبشة، حتى تمل ؟
- هل إذا دعيت إلى غذاء أو عشاء اشترطت حضور زوجتك معك كما حدث عندما دعا فارسي طيب الطعام الرسول [illegible]
- إذا كنت أحد الفئات الاثنى عشرة التي نصت عليها الآية ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾(النور: 30ـ31)، وتقرأ في التفاسير أن ذلك يبيح النظر دون ما بين السرة إلى الركبة فهل تسيغ هذا لنفسك وتقبله منهن، أو حتى تسمح لهن بأن يلبسن ما يكشف ذلك ؟
- هل تحس أن فيك عرقـًا من حمية الجاهلية التي كانت تدفع العربي لينظر للمرأة كأنها "عِرض" و "شرف" وأي مساس بها أفضل، وأن أي نظرة منها إلى رجل ونظرة من رجل إليها هي انتهاك لعرضك وشرفك دون أن نلحظ أنها إنسان مثلك تنظر وتـُنظر.
- إذا كنت زوجًا وشاهدت ــ لا قدر الله ــ زوجتك في وضع مشين مع رجل، هل تسلك ما سلك الصحابي هلال بن أمية الذي [illegible] أو أنك تلجأ إلى قتل الزوجة حتى يبرأ شرفك وعرضك كما كانت الجاهلية تفعل ؟
- إذا أحبت ابنتك شابًا وأرادت الزواج منه، وكنت رافضًا، هل تستجيب إلى أمر الرسول[illegible]: (ألحقها بهواها) ؟
- هل تقبل أو تسيغ كلام المفسرين في تفسير "اللمم" بأنه القبلة والضمة، والزنية الأولى، والسرقة الأولى، والشربة الأولى للخمر على أن يتوب ولا يعود ؟ وأن هذه إما أن يغفرها الله أو تمحوها الصلوات الخمس أو الإتيان بالحسنات.
- هل تساعد زوجتك في غسل الأطباق وبعض المهام المنزلية، كما كان الرسول في مهنة أهله أو أنك ترى هذا عارًا، أو أنه ليس مما يجب عليك ؟

- هل إذا جاءك شخص رضي الدين والخلق والأمانة إلا أنه فقير وطلب يد ابنتك هل تقبل تنفيذًا لأمر الرسول ﷺ: (إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) ؟
- هل إذا جاءتك ابنتك أو زوجتك هل تقوم لها وتقبلها وتخصها بأفضل مكان كما كان الرسول ﷺ يفعل ؟

إنك ستحكم على نفسك هل نظرتك إلى المرأة أقرب إلى الجاهلية منها إلى الإسلام، أم لا ؟

المدخل الرابع
الدين ــ وحده ــ ليس كل شيء

في يوم 18/10/2006م كتبت في (المصري اليوم) مقالاً بعنوان "لا حياة بدون دين.. ولا حياة بالدين وحده"، قلت فيه:

"إذا قلنا لا حياة بدون الدين"، فذلك لأن الأديان تقدم للمجتمع البشري أفضل ما يمكن أن يقوم عليه هذا المجتمع فهي أولاً: تقدم إليه "الله" تعالى وقد سلخت البشرية ما بين عشرين وثلاثين ألف سنة قبل أن تنتهي إلى التصور السليم لله تعالى كما جاء به القرآن، وخلال هذه الفترة كان الحظ الأعظم فيها هو للخيال والخرافة وما أصيبت به المعتقدات من خلط حتى انتهت أخيراً إلى الإسـلام الذي وضع التصور الأمثـل لله تعالى، وما يعنيه هذا من الأخذ بالعقل، والقصد، وليس الصدفة أو العشوائية، اتباع قيم الخير وليس الانسياق وراء الأهواء والشر.

وكان الإسلام صارمًا وصريحًا، إن كل محاولة للتعرف على طبيعة الله أو ذاته مرفوضة لأن العقل البشري لا يمكن أن يصل إليها، وأي محاولة لذلك ستتم على أساس الخيـال أو ما تهوى الأنفس أو الخرافة، وقد أعطانا القرآن ما يجب أن نعرفه عن الله، فهو خالق هذا الكون العجيب من الناموسة الدقيقة حتى المجرات اللامتناهية، كل هذا نظام دقيق يسير بدقة وسرعة ويجري بأجزاء من الثانية، ولو اختل جزء منه لاختل نظــام العالم، وأن الله تعالى هو مصدر القيم، الخيـر، التقوى، المعرفة والمساواة والعدل، وهو الذي يجعل الفرد يفضل الخير على الشر، والكرم على البخل... الخ.

وقدمت الأديان "فكرة العدالة الإلهية" التي تستدرك نقص العدالة البشرية وتحول النظم في الحياة الدنيا دون أن تصل العــدالة إلى أكابر المجرمين من قادة جيوش وملوك وأباطرة ورؤساء، فأوجبت وجود "حياة أخرى".. تنصب فيها موازين العدالة، لا تفلت مثقال ذرة، وتقدم الجزاء الأمثل.

إن فكرة العدالة هي أساس المجتمع، وعندما أريد من أفلاطون تقديم تعريف للعدل أراد أن يرى الناس العدالة " بحروف كبيرة "فأقام" الجمهورية" التي هي ــ في نظره ــ تطبيق للعدالة.

وأخيراً فإن الأديان قدمت " الرسل والأنبياء " ليكونوا النموذج والمثل فيما يكون عليه القادة، وفيما تكون عليه القيادة، وكيف تجعلهم في حقيقة الحال معلمين، وفلاسفة، ومشرعين، وعند الضرورة قادة يقودون الجيوش لتحقيق العدالة.

وإذا قدرنا أن " القيادة " هي تحريك الجماهير وتسييرها، وما في هذا الحراك والتسيير من أهداف، وما يجب أن يتسم به من حسم وعزم من ناحية وعفة وترفع من ناحية أخرى، وأن القيادة الحكيمة كانت من أكبر أسباب تقدم المجتمع، كما أن القيادة الطائشة والأنانية من أكبر أسباب فشـل وتخلف هذا المجتمع، أدركنا قيمة الرسل كقادة، وإذا عدنا إلى التاريخ لوجدنا صفحاته مسودة بجهالة القادة ومخضبة بدماء جماهيرهم وشعوبهم، ونعتقد أن المجتمع الغربي (أوروبا وأمريكا) رغم تقدمه في كثير من المجالات، فإن عدم تعرفه على القائد كرسول ونبي كان من أكبر عوامل النقص في التاريخ السياسي والاجتماعي لأوروبا، وأنها لم تعرف القيادة إلا في شكل قادة الجيش أو رجال السياسة، وهي قيادات مجردة من القيم الإنسانية".

أظن أننا وضحنا ما أردناه بالقول أن لا حياة إلا بالدين لأن فقد هذه الأسس الثلاثة يفقد الحياة الإنسانية أفضل ما فيها، بل ولا يمكن أن تكون حياة مُثلى، وهذا لا ينفي أن هذه الأسس الثلاثة تعرضت للتحريف والاستغلال، وأن طبقات كثيفة من الخرافة والغشاوات قد حاطتها حتى حجبت حقيقتها، وأن إساءة فهمها جعلتها أدوات تخلف ووســائل استغلال، ولكننا نتحدث عن المبادئ كمبادئ، وليس ما حدث لهذه المبادئ" انتهى.

أردت بنقل هذه الكلمات أن يعلم الجميع أننا أبعد الناس عن أن نتحيف على الدين أو نحرمه حقه، أو نجهل دوره الكبير في الحياة.

ولكن الذين عكفوا على الدراسات الدينية دون غيرها، خاصة إذا كانت دراساتهم على الطريقة الأزهرية التي تدور حول أقوال السلف وتأخذ كلامهم باعتباره الحق الذي لا مراء فيه، ولا يقبل مناقشة وتفهم القرآن عن طريق المفسرين وتسلم بتصنيف الأحاديث كما هي عليه.. أقول: إن هؤلاء الذين يرون أنهم "أهل الذكر" والمختصون وأصحاب الفتوى، والذين لا يعترفون بمن ليس من زمرتهم.. إن هؤلاء يعسر ــ أو حتى يستحيل ــ عليهم أن يتصوروا أمرًا آخر غير الدين، فالدين فيه كل شيء، وهذا وإن كان يتنافى مع طبائع الأشياء فإنه يبدو لهم الحق الذي لا يقبل نقاشًا لأنهم لم يدرسوا أو يعرفوا غيره، وبالتالي فلا يعترفوا فيه "وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا" ؟

ولكن هذا لا ينفي أن الدين ــ على أهميته العظمى ــ لا يعالج إلا بعدًا واحدًا من أبعاد الحقيقة، وهناك أبعاد عديدة للحقيقة بعضها نعرفها، وبعضها نجهلها، لأن الله وحده هو الذي يعرف الحقيقة كلها، وليست القضية الرئيسية، ما هي هذه الأبعاد الأخرى ولكنها ضرورة التسـليم بأن الوجود متعدد الأبعاد، بعضها يعود إلى أبعاد للحقيقة تتجلى في مجالات معينة، وبعضها يعود إلى "خصوصيات" المجتمعات التي تعود إلى تاريخ وجغرافيا مختلفة بحيث يختلف بعضها عن بعض.

يجب أن لا نظلم الحياة، ومن الظلم الشديد لها أن نتصور أن ليس فيها إلا الدين، إن الدين نفسه يرفض هذا، لأن الدين ما هو إلا إرادة الله في هذا المجال والأبعاد الأخرى أيضًا هي إرادة الله فيها، فمصدرها كلها "الله" صاحب الحقيقة الكاملة، وما أبعادها إلا صور لإرادته تعــالى، ولكن عندما يصبح الدين حرفة، وليس إيماناً وكياناً إن لم نقل كنيسة، وليس عقيدة وإيماناً فإن الذين يمثلونه يصبحون سدنة وكهنة، ونوعًا من المحامين المحترفين يعملون لقضية معينة ومحددة دون أي نظر لاعتبار آخر، وهم في الحقيقة يعملون لأنفسهم ويخلطون ما بين الدين وبين أشخاصهم، لأن الدين ليس في حاجة لحمايتهم، إن حمايته هي في سلامته وجدواه، وأن هذه الأبعاد الأخرى لها أن تتفاعل مع الأديان، كما أن الأديان لابد وأن تتفاعل معها، وإلا لا تكون صالحة لكل زمان ومكان، وتكون النتيجة الأخيرة أن السلوك الإنساني هو محصلة تفاعل هذه الأبعاد كلها بعضها ببعض، وأن من الضروري أن نسلم ونتقبــل هذا، لأن هذه التعددية تثرى الحياة، وتستكمل نواقص فيها وأن تميزها واختلافها لا يعني بالضرورة تناقضها، على أن هذا التضاد غير مرفوض لأنه لن يكون وحيدًا وطليقاً، بل سيجد الأبعاد الأخرى تؤثر عليه بأكثر مما يؤثر هو عليها وتكون النتيجة حياة خصبة ثرية، متعددة تجد النفس فيها كل متطلعاتها، وكل بعد يسد جانبًا، ويمثل ثغرة على كيان الحقيقة، وبهذا تنتفي الحياة ذات البعد الواحد، ويكون الحكم الأخير نتيجة لتفاعل هذه الأبعاد وليس حكم بُعد واحد، وقد يظن أن هذا الحكم ليس منطبقاً تمامًا مع أحكام الديــن، ولكن هذا هو قول رجال الدين، أما الدين نفسه فإنه يتقبله، لأنه تقبل تعددية أبعاد الحقيقة وتفاعلها وتعايشها، وكما قلنا من قبل: إن توحيد الله يستتبع التعددية فيما عداه.

وموقف المؤسسة الدينية والفقهاء في منتهى الخطورة فنحن محكومون ديناً بما يقوله هؤلاء السادة أو يتصورونه، وما أكثر ما يقول لي أحد "فيه حديث"، ولا يعلم هذا الساذج أن الأحاديث غابة قد يكون فيها كل شيء إلا الدين، أو أن يكون الدين هو الأقل فيها، ولهذا تفصيل يمكن التوصل إليه لمن يريد إذا قرأ ثلاثيتنا "نحو فقه جديد".

* * *

إذا انتهينا إذن إلى تعددية أبعاد الحقيقة فما هي هذه الأبعاد الأخرى (بعد الدين) ؟

هناك مثلاً العلوم البحتة، إن (1 + 1 = 2) ستظل دائمًا موجودة قبل الدين، وبعد الدين، ولا يؤثر عليها الدين في شيء وينبني عليها الجمع والطرح والقسمة ثم نجد الجبر والهندسة ثم ننتقل إلى القوى المحركة من بترول ومن كهرباء ومن ذرة، وهناك عالم الأحياء والكائنات من الميكروبات حتى الديناصورات.. الخ.

إن بُعد "العلوم" من أهم الأبعاد باعتراف الإسلام نفسه الذي جعل ميزة الإنسان التي فضلته على الملائكة أن الله تعالى علمه "الأسماء كلها" أي مفاتيح المعرفة، وجعل معجزته كتابًا نزل أول حرف فيه "اقرأ"، ولكن أمتنا لا تقرأ، والذي يقرأ هم الأوربيون الذين صالوا وجالوا وكشفوا عوالم العلم وتوصلوا إلى القوة التي تحرك

الآلات والتي تصنع "ناقلات الطائرات" وهي جزر عائمة متحركة كالتي أشار إليها القرآن ﴿وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ (الرحمن: 24)، وعن طريق هذه الجزر الصناعية استغنت الدول عن إقامة "قواعد" عسكرية واستطاعت بفضلها أن تصل إلى أقصى الأرض.

بصرف النظر عن أن العلم قد كشف عن "القوة" التي مكنت أمريكا أن تسود العالم وأن تحكمه رغم أنفه، فإن عالم العلم ساحر لا يقل سحره عن الدين قديمًا عندما جعل المعجزات آية الأنبياء، وعندما خص سليمان بالطير، كما خص وزيره الذي كما يقول الرواة كان يعرف اسم الله الأعظم بالقدرة على نقل عرش بلقيس من اليمن إلى لبنان قبل أن يعود إليه طرفه، إن العلم حقق هذا وشركة "بوينج" تملك من الطائرات أضعاف أضعاف ما كان يملكه سليمان وبحق قال شوقي:

لسـليمان بساط واحـــــد ولكم ألف بساط في الهواء

وقد أصبح من الممكن نقل الأصوات والكتابات قبل أن يرتد الطرف فحَول هذا البُعد ــ بُعد العلم ــ المعجزة إلى العلم.

لقد أصبحت البحوث العلمية هي طريق التقـدم الصناعي والإنتاجي، وأصبحت الدول تخصص نسبة كبيرة من ميزانيتها لها لأن هذا في الحقيقة أفضل استثمار، فهو سيدر أضعاف أضعاف ما أنفق عليه، كما حرصت الدول على أن تستقطب العقول ونسبة كبيرة من هذه العقول من الدول المتخلفة، وحرم هذا بلدهم من الاستفادة منهم، بل وخسرت ما دفعته في تعليمهم لا على المراحل، واستفاد بهذا كله الدول المتقدمة، وإنما حدثت هذه المأساة لجهل النظم الحاكمة بقيمة هؤلاء العلماء أو للبيروقراطية التي تشل وتجمد كل عمل مبدع، إن مصر مستعدة لتنفق على المنتجعات السياحية أكثر مما تنفق على جامعة أحمد زويل.

* * *

هناك بُعد ثان هو الفنون والآداب بدءًا من الأدب نثرًا وشعرًا ورواية وقصة وتمثيلية ومسرحية.. ثم التمثيل والسينما، ثم الموسيقى والغناء، وما تصطحب به من غناء أو رقص، هذا العالم الذي يشبع حاسة هامة في النفس الإنسانية، والذي لا يعتمد على الضمير كالدين أو العقل كالعلم، ولكن على القلب، وما يفيض به من مشاعر.. أي جمال تضفيه الفنون على الحياة وعلى المجتمع.. أي قوى تثيرها في النفس، إن الموسيقى تدفع الحيوان لأن يقوم بجهد يصل إلى الموت تأثرًا بالموسيقى، كما هو الحال في "الحَدّاء" الذي جعل البعير يشتد ويجري كلما يتعالى الحداء حتى سقط ميتاً، وكما يقولون في الميثولوجيا عن الزامر الذي سارت وراءه الفئران تتبع أنغامه حتى دخل البحر.. ودخلت وراءه وغرقت، إن الموسيقى تتعامل مع أعمق المشاعر الإنسانية وهي وإن كانت تسمو بالنفس كما في بعض سيمفونيات بيتهوفن فإنها تشعل في النفس مشاعر معينة، ولاحظ تولستوي في رواية "أنشودة كروتزر" تأثير هذه القطعة الموسيقية على مشاعر بطلة الرواية، كما أن من المسلم به أن للغناء

أثره الذي يريح ويسعد الإنسان خاصة إذا كان الصوت أنثويًا جميلاً واللحن رقيقًا موافقاً للصوت.. إن الإنسان المكدود المحزون يفقد هذه المشاعر السيئة وتحل محلها حالة من الرضا والسرور.

ولست في حاجة لأن أشير إلى أثر قراءة الآداب العالمية شعرًا ونثرًا أو الروايات الفنية التي وضعها كبار الكتاب إنها كنز أغنى من كنز علي بابا بذهبه وماسه وياقوته، يعرض صورًا حية للمجتمعات في سرائها وبأسائها، وسراتها وفقرائها، وما تملأ به حياتها من اهتمامات وقد تجد مثلها الأعلى في القرآن بنثره الفني ونظمه الموسيقي ومعالجته لأوتار النفس الإنسانية، وهذه كلها من صميم عالم الفنون وبُعده، وإليهما يعود جزء كبير من هيمنته على النفوس.

وأوجد التمثيل طريقة في المعالجة الاجتماعية الأدبية لظواهر المجتمع والقوى المؤثرة فيه، وما يتضمنه من قصوره بطريقة بعيدة عن طريق النصحية المباشرة، والوعظ والإرشاد، إن التمثيل هو أحد طرق الإصلاح الذي يمكن أن يمارس حتى على مستوى المدارس والنقابات وهو يتضمن إبداعًا وإصلاحًا، إبداعًا ممن يقومون به وإصلاحًا لمن يشاهدونه، ويمكن أن يؤدي بطرق "يدوية" لا يتطلب صناعة ولا آلات كالسينما، وإنما المطلوب هو النص الجيد والممثلون الذين يستغرقون في أدواره، أما منصة المسرح فيمكن أن تكون أي مساحة خالية عالية يقف عليها الممثلون.

ولا يجوز أن نحكم على المسرح بحالة الإسفاف التي انحط إليها في السنوات الأخيرة، فالتمثيل في هذا يعكس إسفاف المجتمع نتيجة للظروف القاسية التي تعرض لها الشعب والسياسات الحكومية الخاطئة والمتحيزة لأصحاب الأعمال التي جعلت الحياة جحيمًا عجز الشعب عن مقاومته، فلجأ المسرح في محاولته مقابلة الهموم الجاثمة على الصدور إلى صورة يغلب عليها الهزل والإضحاك والنزول إلى مستوى الشارع، ولو كانت حالة المجتمع المصري "سوية" لقام المسرح بتمثيل روائع شوقي "مجنون ليلى" و "مصرع كليوباترا" وغيرها من المسرحيات العالمية المشهورة.

وعندما ظهرت السينما أوجدت عالمًا جديدًا، ومكنت الملايين من البشر أن يطلعوا على أحدث الروايات المصورة بالألوان الطبيعية، وقدمت السينما تاريخًا وثقافة وفناً، وقدمت للجماهير العريضة من الروايات والمسرحيات ما لم يكن يظفر به إلا الأرستقراطيات التي تدخل وحدها "الأوبرا" وجعلت الجماهير العريضة تشاهد أجمل الجميلات وتسمع أعذب الأصوات وترى الروايات العالمية ممثلة ومصورة.

إن الفكرة الشائعة التي تجمع ما بين السينما وصور من الخلاعة والعري والإثارة لا تعود إلى سبب أصولي في السينما، فهناك أفلام جادة ليس فيها أي نوع من الخلاعة أو العري وتستأثر بالاهتمام، وهناك أفلام ومسرحيات قد لا توجد فيها نساء البتة، وأذكر أني شاهدت في الأربعينات فيلمًا بعنوان "قارب النجاة" عن قارب في عرض المحيط لا يضم سوى بضعة رجال يكافحون الموج، ومع هذا استحوذ علينا فلم نشعر بملل، وكل المسرحيات القديمة لا علاقة لها بعري أو إثارة جنسية لأنها تعالج

موضوعات جادة تدور حول العدل والظلم والمساواة ودفع الأذى أو القدر والمصير أو بعض أحداث التاريخ.

إن وجود نوعية من أفلام الإثارة التي أريد بها إشباع الشهوات يعود إلى أن المجتمع تكوين ضخم، فهو لا يقتصر على عشرات أو مئات ولكن يضم الملايين، ولابد أن من بين هؤلاء الملايين من تعقدت نفوسهم عن طريقة تربية خاطئة في طفولتهم، وصدمات عاطفية أو خلل عضوي، ولما كان للسينما جانبها التجاري الذي يقوم على العرض والطلب، فإن وجود هؤلاء يمثل طلبًا لابد وأن يقابله عرض، فلكل ساقطة لاقطة، ولا يؤثر هذا على الخط الرئيسي للسينما والمسرح، فكم تصديا لمعالجة المشكلات معالجة روائية وفنية، يتضمن نقدًا وقد تشمل إصلاحًا، ومن ثم فإنها تقوم بدور اجتماعي وبتأثير فردي ينحو نحو العلاج والإصلاح.

في النهاية نجد أن كل الفنون سواء سمت أو آسَّفَّت تعبير عما يخالج النفس البشرية من مشاعر، واستكشاف لأعماقها، ودراسة لظروف المجتمع وآثارها على الناس، فإذا ما قدرنا ما أشرنا إليه من أن المجتمع يضم الملايين، وأن مســـتويات هذه الملايين لابد وأن تختلف، وأن التمثيل ــ باعتباره تمثيلاً ــ لابد أن يبرز المشاعر الحقيقية الخفية لدي هذه المستويات، فإنه يكون في هذا مرآة للمجتمع، ولانعدم أبدًا أن يجد كبار المصلحين لهم مكانـًا فيه لا يضيق بهم ويمكنهم من تمثيل أروع المسرحيات من تأليف كبار المؤلفين في العالم أجمع، فكيف يتصور أن يحرم العالم المسلم من هذه الثمار ونبي الإسلام هو الذي قال: "الحكمة ضالة المؤمن أنـّى وجدها فهو أحق بها".

وكيف نحرم الشعب من الاستمتاع ومن الانتفاع بهذه الوسائل ؟ إن بعضها ــ كالسينما ــ يتطلب تقنيات فنية عالية المستوى، ولكن البعض الآخر كالتمثيل يمكن أن يؤدى في المدارس وفي النقابات، وفي كل أماكن التجمعات.

* * *

و "الفلسفة" تكشف لنا عن بُعد من أبعاد الحقيقة، إن الفلسفة هي إعمال الفكر في أسرار الوجود، والعوامل التي تؤثر عليه، والمواقف الذي يجد الإنسان نفسه أمام قضاياه الكبرى، كما أنها تعالج قضية القيم وما تثيره من إشكالات، إن الفلسفة تتفق مع الدين في أنها منهج لفهم الوجود، ولكنها تختلف عنه في أن الدين يعتمد على القلب بالدرجة الأولى، وعلى العقل بالدرجة الثانية، وأن الدين يبدأ حيث تنتهي الفلسفة وهو وحده الذي يستطيع أن يطرق باب النهاية وعالم ما بعد الموت، وقد حلت الفلسفة في أوروبا محل الدين، وحل الفلاسفة محل الأنبياء، ومع أن الفلاسفة حاولوا تفهم التعقيد الوجودي وموقف الإنسان منه، إلا أن انقطاع صلتهم بالله جعلتهم لا يصلون إلى طائل وأعطت قدراتهم صفة ذاتية ؛ لأن الله تعالى هو أصل الموضوعية.

على أن الفلسفة قدمت خدمة للأديان، ذلك أنها ميزت ما بين الخرافة والحقيقة، وهذه الحقيقة هي التي تجمع ما بين "الشريعة والحكمة" التي اهتدى إليها ابن رشـــد، فالأديان والفلسفة وهما يسعيان للتعرف على الله، يبعدان الخرافة فإذا كانت الفلسفة قد عجزت عن التوصل إلى كنـه الله، فإنها خدمت الأديـان باستبعاد الخــرافة من طريقها.

* * *

وهناك ما يكشف عن بعد جديد للحقيقة يتعلق بالجسد الإنساني ولا شك أنه بُعد سليم تمثله "الرياضة" بكافة صنوفها في التدريبات الرياضية التي كانوا يعلمونها لنا في المدارس لتمارس كل صباح وكل مساء إلى "الألعاب" مثل التنس، والسباحة لمساحات طويلة، ومثل كرة القدم، ومثل القفز، هذا البعد الذي يعني بالصحة البدنية يتصل بالعقل والنفس لأن كان العقل السليم في الجسد السليم، وبالتالي فلا جدال في أهميتها، وقد قال الإنجليز: إنهم كسبوا معركة واترلو على ملاعب (إيتون)، وإيتون هي (أكاديمية) تقدم الدراسات لأبناء الأرستقراطية البريطانية الذين يراد لهم أن يكونوا من "بناة الإمبراطورية"، ولهذا يستبعد من الدراسة أي مادة نفعية، وهي تعني بما يدعم الخُلق والإرادة، وقد رأت أن لعبة كرة القدم تمثل أداة قتالية لبذل أقصى جهد لتحقيق المطلب دون إخلال بأصول اللعبة، فلاعب الكرة لابد أن يجري ويحاور ويداور ويبذل كل طريقة للانتصار على الخصم، ولا يبالي في هذا السبيل أن يصاب، لأن المهم هو الانتصار بشرط عدم مخالفة أصول اللعبة، ورأت الكلية أن هذا يصب مباشرة في قيَم بناة الإمبراطورية، وبالطبع فإن هذا المقصد البعيد لم يعد هو ما ينتظر من المباريات عندما أخذت شكلاً تجاريًا لأن كل ما يمت إلى التجارة بصلة فإنه يبعد عن فكرة بناء الدولة، ولكنه لا يمس الأصل الأول لها.

وعلى كل حال فسيظل للرياضة أنها تعني بجانب هام من الحياة، وهو صحة الجسم والحض على لياقته، وأن يكون بصورة يكتسب فيها نوعًا من مقاومة الأمراض حتى لا يصاب بها، ويكون لديه القوة للشفاء منها، وبالإضافة إلى الحفاظ على الصحة، فإن الممارسة نفسها نوع من المتعة، ومران على التعامل مع الآخر دون غش أو خداع والالتزام بأصول اللعبة.

* * *

من هذا العرض نرى أن التعرف على الحقيقة يتطلب التعرف على أبعاد عديدة وليس على بُعد واحد، وأن هذه الأبعاد في مجموعها تمثل الحياة البشرية التي أرادها الله لبقاء الإنسان، وما غرسه فيه من إرادة، وطـُـلعة نحو المعرفة، وميل غريزي للاستمتاع الذي يعوض كد الحياة وثقلها، وأن الحياة الحقة هي التي تسمح لهذه الأبعاد كلها بالتجلي والظهور وتتقبلهما معًا دون أن يغلب أحدها الآخر أو أن يتدخل بما يفسد عمل الآخر.

وتدلنا خبرة التاريخ وطبائع الأشياء أن البُعد الديني هو الذي يحاول أن يفرض نفسه على كل هذه الأبعاد أو على بعضها، وقد يكون هذا الاتجاه مغروسًا فيه باعتبار أن الدين يأتي من الله تعالى خالق الأكوان كلها، ومن ثم فإن هيمنة هذا البعد على بقية الأبعاد أمر يبدو سائغـًا ومبررًا، ولكن الحقيقة ــ هي كما ذكرنا ــ أن الله تعالى وضع سنناً للمجتمع، كما خلق الإنسان بهيئة تجمع ما بين الإرادة والشهوة، الفجور والتقوى، ومن ثم فلا يجوز الافتيات على إرادته تعالى، وإنما يفعل ذلك أصحاب المؤسسة الدينية مدًا لنفوذهم وتعميقـًا لسيطرتهم، مستخدمين في هذا اسم الله والرسول، والله والرسول منهم براء.

والمفروض أن يترك كل بُعد ليعرض جانبه بوسائله وأهدافه الخاصة، وأن يترك الإنسان أيضًا حرًا ليمارس إرادته، فإذا أصاب فبها وإذا أخطأ فسيتعلم من خطئه، وإذا لم يتعلم من خطئه فلن يصلح شيء آخر في أن يعلمه، ومن الواضح أن استخدام القوة في هذا المجال هو ما لا يمكن تطبيقه، فهل من الممكن أن نجعل لكل واحد جندي بوليس يلازمه ليل نهار لكي يحول بينه وبين ارتكاب الآثام أو الوقوع في الذنوب ؟! إن الإسلام نفسه يعلم هذا ولا يسمح به، ويرى أن كل محاولة قسرية لإصلاح الإنسان بالقوة أو بقانون العقوبات إنما تعطل ما أراده الله من أن تكون الحياة مبارزة ما بين الخير والشر، وأن يوجد نوع من الابتلاء يميز ما بين المؤمن وغير المؤمن، القوي الذي يردعه ضميره والضعيف الذي يستسلم لكل شهوة وكل نزوة، بل إن الإسلام جعل لمثل هذا سبيلاً في صورة الاستغفار والتوبة، والإتيان بالحسنات التي تكفر عن سـوءاته، وما من ذنب أو إثم يمكن أن يكون أعظم من رحمة الله ومغفرته.

ولابد أن نعترف أن الذين احتكروا الدين وقصروا الحديث عنه على أنفسهم يفرضون وصاية ثقيلة على الفنون والآداب، مع أن أسلافهم كانوا أوسع أفقاً، وأكثر رحمة، وأقرب إلى السماحة عندما فسروا الآيات القرآنية العديدة التي تعرض للضعف البشري وتسامح عليه.

وسأضرب مثالاً يمثل الطبيعة النفسية لرجل الشارع نحو الدين ومدى هيمنة الدين عليه، بما جاء على "النت" حول استفسار عن حل أو حرمة الغناء، أو ما جاء بالنص عن "معزوفات سامي يوسف أهي حلال أم حرام ؟ فجاء الرد[1]:

أولاً: وكما هو معلوم فإن الأغاني حرام، وليس في ذلك أدنى شك والدليل هو:

---

[1] تحت يدنا مراجع عديـدة بعضـها يحـرم السـماع والآخـر يحللـه من واقـع تفسـير الآيات والأحاديث، ولكننا هنا نضرب المثـل برجـل الشـارع خاصـة رجـل الشـارع "المفتي" الذي يستقي مادته مما التقـط من شـيخ الجـامع أو من أحـد الـدعاة، فيتيه ويفتي.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (لقمان: 6)

قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ: لهو الحديث الباطل والغناء

وقال مجاهد ــ رحمه الله ــ: اللهو الطبل.

وقال الحسن البصري ــ رحمه الله ــ: نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير.

هذا دليل على تحريم الأغاني، هل يتغير الحكم بتغير مضمون الأغنية وتناولها مواضيع إسلامية ؟؟

لا داعي لخداع أنفسنا فالأغاني تبقى أغاني.

قال رسول الله ﷺ: (ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف).

وفي الحديث دليل على تحريم المعازف ــ الآلات الموسيقية ــ وذلك في قوله ﷺ:

(1) يستحلون: والدلالة من قوله عليه الصلاة والسلام أنها حرام، لكن أولئك القوم جعلوها حلالاً.

(2) أن الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ حرم المعازف والخمر، وهذا دليل على وجوب تحريم المعازف بمعنى الآلات الموسيقية كالخمر تمامًا، وإذا لاحظنا أناشيد سامي يوسف فأكثرها إن لم نقل كلها تتضمن آلات موسيقية من طبول وبيانو.

فتوى لفضيلة الشيخ عبد الرحمن السحيم ــ حفظه الله ــ:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. فضيلة الشيخ عبد الرحمن السحيم ــ حفظه الله ــ ما هو الحكم الشرعي في الأناشيد (الإسلامية) ؟ أرجو التفصيل في المسألة.

الجواب: ما يتعلق بالأناشيد الإسلامية فقد ورد فيها الخلاف بناء على طبيعة الأناشـيد اليوم، والذي يترجح من خلال النظـر في الأدلة أن الأناشيد إذا ضبطت بالضوابط التالية أنه لا حرج فيها، والضوابط هي:

(1)أن لا تشتمل على آلة موسيقية.

(2)أن لا تشتمل على كلمات فحش ودعوة إلى سفاسف الأمور.

(3)أن لا تكون على ألحان الأغاني.

(4)أن لا تلهي عن العلم النافع" انتهى.

فانظر إلى مدى يقينه الذي يعرضه ويحاول إثباته فيقول:

أولاً: "**<u>وكما هو معلوم فإن الأغاني حرام وليس في ذلك أدنى شك</u>**"، فمن أين جاء بهذه الثقة والتأكيد واستبعاد أدنى شك ؟ إن الاستشهاد بكلام الأسلاف لا يقدم إلزامًا، ولا يمثل إسلامًا، وإنما يمثل فهمهم الذي يعود بدوره إلى ثقافاتهم وإلى عصرهم، وإلى عشرات العوامل الخاصة بهم التي تجعل أحكامهم ذاتية أكثر مما هي موضوعية، فضلاً عن مخالفته للاتجاه العام للإسلام نحو الضعف البشري، وأن غاية ما يقال فيه أن الاستغفار والتوبة والعمل الصالح يجبانه، بل يحولان سيئاته حسنات، وهذا هو ما جاء به القرآن، فما أعظم جرأتهم على الله، وعلى رسوله الذي كان أعرف منهم فقال لمن استفتاه ــ وهل من مفت أعظم من الرسول [illegible] ــ (استفت قلبك، وإن أفتوك.. وإن أفتوك).

لقد أعطى "الإنترنت" هؤلاء الشباب مساحة عريضة مكنتهم من أن يصبحوا جماعة إسلامية متحجرة تريد أن تنقل تجمدها إلى الشباب بأحدث ما انتهى إليه العصر الحديث !

إن التشدد مع تصور معرفة الحقيقة، وأن ما عداه باطل، كما جاء على "النت" ينم على أن هناك فكرة مسبقة مسيطرة، ومهيمنة، هي استبعاد كل صور اللهو، وقد يكون جذر هذه الفكرة هو الاتجاه نحو التشدد واتباع سياسة "سد الذريعة" إلى آخر درجة والميل الشيطاني للتحكم في النفوس والتضييق عليها، وهي كلها أفكار مدمرة بعيدة عن الإسلام، بل وعن كل دين، وجزء لا يتجزأ من أداة الذين احتكروا الدين وأداروه من منطلقهم وهم يدعمون كل ما يشدد قبضتهم على الناس.

لولا هيمنة هذه الفكرة لكان من السهل القول أنه رغم الاتجاه العام في كل الأديان للعزوف عن اللهو والاستمتاع، فإن في الإسلام ــ وفي عهد الرسول [illegible] ــ حالات عديدة تتقبل اللهو كجزء لازم للنفس البشرية، وقد كان الرسول [illegible]

[illegible]

[illegible]:

[illegible] ؟

فتبسم رسول الله [illegible]: (لا حرج) (ابن عبد ربه في العقد الفريد).

وقد كتب عشرون إمامًا في إباحة السماع والغناء بدءًا من ابن قتيبة في كتاب "الرخصة في السماع" حتى الحافظ الشوكاني في رسالته "بطلان الإجماع على تحريم السماع"، وجاء فيها بإسنادها أن جماعة من الصحابة كانوا يسمعونه، منهم عمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة الجراح وأبو مسعود الأنصاري وبلال وعبد الله بن الأرقم وأسامة بن زيد وابن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو والمغيرة بن شعبة وغيرهم.

وكان يمكن أن يُستأنس لمن يرى أنها ذنوب أنها من "اللمم" وصغار الذنوب، وأن الاستماع إلى الموسيقى أو الغناء لا يمكن أن تكون عقوبته أن "يصب في آذانه الإنك" أي الرصاص المصهور، كما روي أحد الأحاديث الموضوعة التي أريد بها إرهاب الناس.

المدخل الخامس
العصر الحديث: الحاضر الغائب

ثمة عامل هام له أثره وانعكاساته على كل شيء في حياتنا، بما في ذلك القبلات، ومع أنه موجود، وحاضر وواقع وقوع البداثة، فقلما يفترض الفقيه المسلم أن يكون له أثره على أحكام الشريعة، لأن الإيمان المتحكم في عقولهم هو أن الإسلام كامل وكل شيء فيه صائب لا يتطلب تصويبًا أو تبديلاً، وهم يتجاهلون الحقيقة الواقعة، إن الزمن يغير كل شيء بلا استثناء، أفليس حقاً أننا نعيش في القرن الخامس عشر من الهجرة والواحد والعشرين من ميلاد المسيح ؟ فهل يتصور أحد أن أحكامًا تتعلق بشئون الدنيا صدرت منذ أكثر من ألف عام تظل هي هي وتعد صالحة الآن، كما كانت صالحة في ذلك الوقت السحيق ؟

إن العصر ليس مسألة أعداد حسابية دون مضمون، والزمن ليس مجرد ساعات يدقها التاريخ كما تدق الساعة دقاتها، إن الزمن يوقع بامضائه على حياة المجتمع، يؤثر فيها، وهو يعني للمجتمع تطورًا من حال إلى حال آخر مختلف، كما أنه بالنسبة للفرد يمثل "نموًا" منذ أن كان جنيناً في بطن أمه لمدة تسعة أشهر، يخرج بعدها للحياة عبر مخاض أليم قطعة لحم لا ترى ولا تسمع ولا تعرف إلا حضن أمها، ولا يتكلم إلا بعد مدة طويلة نتيجة لمناغاة أمه وانطباع كلماتها عليه، وبعد أن كان يزحف على أربع فإنه يسير على قدمين حتى يشب ويصبح فتى عفيًا أو صبية جميلة، ويأخذ سبيله في النمو حتى يصل إلى تمام القوة ليبدأ في الانحدار شيئاً فشيئاً في شيخوخة تشبه الطفولة الأولى، لينتهي بالموت، وتتم إحدى دورات الحياة لتبدأ مرة أخرى مع ابن هذا الرجل، وبعدها مع حفيده وهلم جرا.

وفي كل مستوى من مستويات نمو الكائن الإنساني يكون مستوى فهمه وإدراكه متفقاً مع مستوى نموه، فمن خيالات الطفولة إلى مثاليات الشباب إلى حقائق الرجولة، وكل مرحلة تفوق سابقتها في التصور والفهم والإدراك، ولا يتصور أحد إمكان الثبات والوقوف عند مرحلة معينة لا يتعداها، فلابد للطفل أن يشب، ولابد للشاب أن يهرَم، ولابد لكل واحد أن يمضي حياته حتى يأتيه الموت الذي ـــ وحده ـــ هو الذي ينهيها، ولا أحد يستنكر هذا، فلماذا يستنكرونه على المجتمع، وليس هو إلا مجموعة أفراد ؟ ولماذا لا يستنكر اختلاف جيل في المجتمع مع سابقه، علمًا بأن كل جيل يبدأ حيث انتهى الجيل السابق ؟ فالتغير واقع لا محالة واسمه بالنسبة للمجتمع "التطور"، كما أن اسمه بالنسبة للفرد "النمو".

هناك ظاهرة واحدة فرضت نفسها على التاريخ الإسلامي، كـانت لهـا آثـار مدويـة في تعويق سيره، تلك هي أن الفترة المبهـرة لحكم الرسـول ﷺ لمجتمـع المدينـة، ومـا تلاها من حكم أبي بكر وعمر بن الخطاب قد تملكت خيـال الأجيـال، فـأرادت أن تعـود إليها، وحاولت في حاضرها أن تتمثل أوضـاعًا وأحكامًـا كـانت سـائدة في تلـك الفـترة، وكان هذا خطأ مروعًا ؛ لأن التاريخ لا يعـود إلى الخلـف أبـدًا ؛ ولأن تلـك الفـترة كـانت فترة استثنائية لا يمكن القياس عليها، أو النسج على منوالهـا، وآيـة ذلـك أن كـان على رأسها نبي يوحى إليه، فمرحلة النبوة لا تتكرر بعد أن انتهى عهد الأنبياء.

مع أن هذه حقائق كان يجب أن تفهم وتساغ وتؤخذ بها، فإنها كانت عســيرة على أفهام الفقهاء، وأرادوا أن يحكموا المستقبل بضوابط الماضي.

ومن ناحية ثانية فهذه المرحلة على روعتهـا كـانت سـاذجة ؛ لأن مجتمـع المدينـة كان ساذجًا، وأين هذا المجتمـع ممـا انتهى إليـه المجتمـع الحـديث، المعقـد، المـركب، الحافـل بعشـرات الآلاف من الاحتياجـات والاسـتعمالات لم تكن موجـودة ؟ ومن هنـا فالهيام بها هو أبرز صورة "الطفولية" التي تستحوذ على الكبار، كما لابـد أن نـُسلم أن مجتمع المدينة لم يكن مجتمع ملائكـة، ولكنـه مجتمـع بشـر لابـد أن يخضـعوا للضـعف البشري، فكان فيه من يرتكب الآثام، وفي أكثر من كلمة عبر الرسول ﷺ [illegible]
[illegible].

[illegible]
[illegible] وأن نعيش عصرنا ونفيد من كل ما يقدمه، مما لم يكن أسلافنا يحلمون به.

هذه حقائق تكاد تكون بديهية، ومع هذا فإنها صـعبة، عسـيرة على أفهـام الفقهـاء بدءًا من الشـافعي في مصر حتى آل الشيخ في السعودية، فقـال الشـافعي منـذ أكـثر من ألف عام: "كل فعل لابن آدم فيه حكم، يتعين معرفته والوصول إليـه، وهـذا الحكم قد يبينه الله تبارك وتعالى في قرآنه، وقد يبينه رسول الله في سُــنته، وقـد يسـتنبطه العلماء المجتهـدون من القـرآن والسُــنة، وهـو إمـا أن يكـون الوجـوب أو الحرمـة، أو الندب، أو الكراهية، أو الإباحة".

وفي الأيام الحديثة نقرأ، يقول الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ــ مفـتي الـديار السعودية في زمانه ـــ: " وحكم اللـه ورسـوله ﷺ لا يختلـف في ذاتـه بـاختلاف الأزمـان وتطور الأحوال وتجدد الحوادث، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتـاب الله تعالى وسُـنة رسوله ﷺ نصًـا، أو ظـاهرًا، أو اسـتنباطًا، أو غـير ذلـك، علم ذلـك من علمه، وجهله من جهله " (الفتاوى).

إذا صرفنا النظـر عن الصـحة الموضـوعية لكـل من هـاتين الكلمـتين فيجب أن لا ننسى أن كلمة الشافعي ألقيت عندما لم يكن قـد مضـى على هجـرة الرسـول □ 150 □□□□□ □□ □□□□ كانت تحتمل التطبيق، أما كلمة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ فإنها قيلت بعد 1400 عامًا، أي أن العهد قد طال، علمًـا بأنهـا أضـيق عطنـاً وأقـل بيانـاً من كلمة الشافعي، وهو ما يوضح أن العقل المسلم قد تجمد طوال ألف عام على الأقل.

والكلمتان تخالفان نصًا نبويًا صريحًا: "الحلال ما أحله الله في كتابـه، والحـرام مـا حرمه الله في كتابه، وبينهما عفو، فاقبلوا من اللـه عافيتـه، فـإن ربـك لم يكن نسـيًا"، لأن كلمتي الشافعي وآل الشيخ لا تقفان التحريم والتحليل على ما في القـرآن، وإنمـا تشرك الفقهاء في هذين، وأهم من هذا أنهما قضيا على "العفو" كبـيرًا أو صـغيرًا وهـو رمز الحرية والمرونة، ورفضا هذا العفو لأنهما لا يريدان للنـاس حريـة، وإنمـا يريـدا أن ترسم لهم كل حركة وسكنة ويبقى أن تعد عليهم أنفاسهم.

وقد تصور بعض الناس أن النص مادام قطعي الثبـوت وقطعي الدلالـة، فـإن هـذا يغلق الباب أمام الاجتهاد ويظل النص باقيًا في حمايـة قطعيـة الثبـوت والدلالـة، ولكن فاتهم أن النص كائناً ما كان ليس له حياة ولا يمتلك أيـد يبطش بمن يسـيء الفهم، ولا لسان يرد على من يخالفـه، إنـه لا يتكلم، إنـه ـــ كمـا قـال علي بن أبي طـالب ـــ عن القرآن: "مداد على قرطاس" لا يملك شيئاً لإيضـاح فحـواه، **وهذه الحقيقـة تنقـل الأهمية من النص إلى فهم النص**، هـذا الفهــم الـذي يختلـف بـاختلاف ظـروف الناس واختـلاف الأوضاع.. الخ، بحيث لا يكون فهم جيل متقدم لنص مـا هـو فهم جيـل سابق لهذا النص نفسه.

وليس في "قطعية الدلالة" ما يوجد استثناء، لأن العصر يغير من "مضـمون" هـذا النص القطعي الدلالة، فعندما يقول القـرآن مثلاً: "كُلُوا وَاشْـرَبُوا" فهـذا نص صـريح يأمر بالأكل وهو قطعي الدلالة، عندما نزل هذا النص على العرب من 1440 عامًا ماذا كان "مضمون" الأكل كان المضمون قصعة يتـداعى عليهـا الأكلـة كـل يأكـل بيـده وهم جلوس على الأرض، فإذا كان في القصعة دسم من لحم مسـحوا أصـابعهم في بطـون أقدامهم لينظفها، ويلين في الوقت نفسـه من تصـلب الأقـدام للسـير حفـاة مسـافات طويلة، وفي رواية أخرى: يمسحون أصابعهم في لحاهم.

وعندما يقرأ الفرد في العصر الحديث هذا الأمر بالأكل فـإن مضـمون ذلـك يصـبح مائدة مرتفعة، وأطباق مرصوصة، وكـل طبـق بجانبـه شـوكة وسـكينة وملعقـة وفـوط وكؤوس للمياه، وتتم عملية الأكل كلها بالشوكة والسـكين والملعقـة بحيث لا تسـتخدم الأيدي ولا يكونوا في حاجة لتنظيف أصابعهم بالطريقة السابقة أو غيرها.

وعندما نزل الأمر الإلهي "سِيرُوا فِي الأَرْضِ"، فإن مضمون السير كان السير حافيًا أو في خف، وإذا كان ركوب فالإبل والخيل والبغال والحمير، ولكن إنسان العصر الحديث عندما يؤمر بالسير في الأرض فإنه يسير على طرق مرصوفة، مذللة، وإذا كان ركوب فقد يركب سيارة، وقد يركب قطارًا وقد يركب طائرة.

فمع أن النص قطعي الدلالة إلا أن مضمون الدلالة مختلف تمامًا، وقد يتصور أحد أن اختلاف المضمون لا يؤدي بالضرورة لاختلاف المفهوم، لأن هذا خطأ، فمع اختلاف المضمون تحدث تداعيات معينة تؤثر على فهم المضمون، وإن لم تكن بصورة مباشرة أو تلقائية، وقد يرى أن لا أهمية لذلك كله، فهو في النهاية أكل أو سير، **ولكن الحقيقة أن اختلاف المضمون يستتبع اختلاف المفهوم وما يؤدي إليه من اختلاف التصرفات أو السلوكيات**.

وقد يقول قائل: ليس المهم الأكل والشرب والسير، ولكن المهم الذي جاءت به الأديان هو "الإيمان" وهو عالم القيم من إيثار وإنفاق وكرم وشجاعة وصدق وإخلاص ووفاء بالعهد.. الخ، إن الأديان يمكن أن تخلق الإنسان خلقاً جديدًا.

نقول: نعم، هذا صحيح ولكن هذا يحدث مع بداية الدين، وعندما يتولاه الأنبياء بأنفسهم، ولكن ما أن يأوي الأنبياء إلى باريهم حتى يبدأ الخلل وقد يبدأ الخلل قبل أن يودعوا قبورهم، وقد حاول الإسلام بكل قوة أن "يلحلح" من صلابة الجذور الجاهلية التي كانت تدور حول العصبية القبلية ويجعل الولاء لله، وأن يقلل من الفروق التي كانت تستبعد المساواة ما بين الرجل والمراة والغني والفقير والحاكم والمحكوم، وبدا أنه نجح، ولكن هذه الجذور عادت مرة أخرى بعد وفاة الرسول ﷺ وقد ارتدت العرب جميعًا، ولم يبق إسلام إلا في مكة والمدينة، صحيح أن عبقرية أبي بكر وصلابته ــ وهو الحييِّ الوديع ــ أعادت العرب إلى الإسلام، ولكن هيهات، وقد كانت أعظم نكسات الإسلام هي ما حدثت في بداياته وأطلق عليها "الفتنة الكبرى" ما بين علي ومعاوية والتي امتدت آثارها بحيث حولت الخلافة إلى ملك عضوض على أيدي معاوية بن أبي سفيان سنة 40 هجرية، وعادت العصبية القبلية فكانت سببًا في حروب المسلمين بعضهم بعضًا، وعادت الفروق ما بين الرجل والمرأة، وأصبح من المستحيل أن تظهر امرأة في المسجد ترد على الحاكم رأيه كما حدث أيام عمر بن الخطاب، لأن المرأة لم تعد تدخل المسجد أصلاً، ولأن صوتها قد أصبح عورة، أو أن يقول أحد الناس للخليفة ما قاله عربي لعمر بن الخطاب "لنقومك بسيوفنا.. "، لأن عبد الملك بن مروان قال: "من قال لي اتق الله، قطعت عنقه".

هل نتجاهل آثار هذه الأحداث الخطيرة التي غيرت من مسيرة الإسلام وأعطته شيئاً من أسوأ خصائصها؟، أو لم تكن هذه الأحداث نتيجة لاختلاف الأزمنة والأمكنة وآثار العصور المتوالية ؟

كان عمر بن الخطاب يقول: "كل الناس أفقه من عمر"، ونحن الآن نقول: "وأين نحن من عمر؟ ؟، فما أبعد الشُـقة، أن لا يتصور أحد أن يبلغ مبلغ عمـر، ولا رُبعـه، ولا عُـشره.

إن الظل الأسود لتحويل الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض قد سود كـل التـاريخ الإسلامي من معاوية بن أبي سفيان حتى نهاية الخلافة المزعومـة في عهـد مصـطفى كمال في تركيا، وكيف يقـال إنهـا حكم إسـلامي وقـد تنبـأ الرسـول "لتنقضـن عـرى الإسلام عروة عروة، فأولها الحكم وآخرها الصلاة"، وتنبأ أنها ثلاثين سنة، وخلال الحياة الطويلة لهذه الخلافة المزعومة لم تكن أكثر من حكم سلطوي اسـتبدادي وراثي كـان هو أكبر أسباب تخلف المسلمين، وبدلاً من أن يجعل التطـور يسـير إلى أحسـن، فإنـه جعله يسير إلى أسوأ نتيجة لتراكم الأخطاء وتصاعد الفسـاد، في هـذه المـدة الطويلـة كان الإسلام هو إسلام السلطان، وليس إسلام القرآن، ولا إسـلام الإنسـان، وكـان هـو الذي قضى على العالم الإسلامي بـأن يغـط في سـبات عميـق، لا يتيقـظ منـه إلا على مدافع نابليون التي كانت إيذاناً بزحف العصر الحديث على العالم الإسلامي.

والعصر الحديث يتبلور في الحضارة الأوروبية.

تلك قضية يكون علينـا ـــ أحببنـا أو كرهنـا ـــ الاعـتراف بهـا وقـد بـدأت الحضـارة الأوروبية أول خطوة لها سنة 1492 عندما أبحر كولومبس ببواخره ليبحث عن "الهند" ولكنه وجد قارة كاملة، أو قل قارتين.. أمريكا الشـمالية وأمريكـا الجنوبيـة، وفي هـذه السنة نفسها كان الملك التعيس أبو عبـد اللـه بن الأحمـر يسـلم مفـاتيح غرناطـة إلى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، وبهذا فقد المسلمون آخـر موقـع لهم في "الأنـدلس"، وما أن تم هذا حتى محيت آثار ثمانمائة سنة كأن لم تغن بالأمس.

بدأت أوروبا تنهض، وأخذ الشرق ينكفئ على نفسه ويتقوقع.

وتحت لواء "التقدم" بدأت أوروبا مسيرة لم تنته حـتى الآن، وكـان أبـرز مواقعهـا القضاء على الكنيسـة الكاثوليكيـة الـتي كـانت قـد فرضـت وصـاية ثقيلـة على العقـل والفكر، وقاومت العلماء واضـطهدت المفكـرين واسـتعبدت الجمـاهير وضـللتها، فجـاء الإصـلاح الـديني أولاً على يـدي مـارتن لـوثر في القـرن السـادس عشـر فقضـي على الكنيسة الكاثوليكية أو غيرهـا وجعلهـا تنـأى عن كـل النشـاط العـام، وتقنـع بـأن تعمّـد المولودين وتكلل المتزوجين وتدفن الميتين، وبـذلك تحـرر الإنسـان، ثم بـدأت مراحـل التنوير الفكـري ببعث الحضـارة اليونانيـة / الرومانيـة وبـدء مسـيرة العلم والاكتشـاف والاختراع، وحـدثت أول ثـورة صـناعية في العـالم باكتشـاف طاقـة جديـدة هي البخـار والمصانع الحديدية، ثم ظهر القطار الحديدي الذي ربط أوروبا بعضها ببعض.

وواكب العلم الاكتشـاف والاخـتراع التقـدم في كافـة مجـالات الحيـاة وظهـرت الديمقراطية، وتعلمت الجمـاهير الأميـة الجاهلـة، واشـتركت في الحيـاة العامـة وحكم البلاد، وانتشرت الآليات التي تحمي العدالة من نفوذ الاستغلال الرأسمالي أو الاستبداد

الحكومي كالأحزاب والنقابات والجمعيات على أنواعها، وكانت أوروبا تعمل كما لو كانت بلدًا واحدًا، فالاكتشاف قد يبدأ في إنجلترا ولكنه يتقدم في ألمانيا، وقد تأتي قطعة جديدة من المعرفة حتى من روسيا البعيدة المتخلفة وهي نصف أوروبية ونصف آسيوية، وبفضل التوصل إلى الصناعة الآلية أمكن استخدام السكك الحديدية، وأمكن صنع المدافع الثقيلة، واستطاعت الأساطيل الأوروبية أن تصل إلى شواطئ الشرق وأن تدمر موانيه المتهالكة وأن يدخل جنودها ويحتلون أرضها، فاستعمرت الهند ومصر وأندونيسيا والفلبين والشمال الأفريقي، وتحللت الإمبراطورية العثمانية وأصبحت "رجل أوروبا المريض" الذي ورثت أوروبا أملاكه وهو على قيد الحياة، وتوصلت أوروبا إلى مختلف مصادر الطاقة مثل النفط والكهرباء التي جعلت ليل أوروبا كنهارها يضيء من الغروب حتى الشروق، وامتدت يد المعرفة والعلوم إلى الفنون والآداب فظهرت السينما ونهض المسرح وتوصل إلى التليغراف والتليفون، وكانت المطابع تعمل ليل نهار وتخرج في اليوم الواحد عشرات الألوف من الكتب ثم ظهرت الإذاعة ثم التليفزيون.

وهذه كلها من أمجاد الحضارة الأوروبية، ومن الحق أن العالم كله أسهم في هذه الحضارة، فقد نقلت أثينا كل حضارة المصريين القدماء، كما أثبت ذلك كتاب برنال "أثينا السوداء"، ثم تعرفت أوروبا على علماء العرب في الطبيعة والفلك والرياضة والمنهج التجريبي الذي يجمع ما بين الفكر والعمل، وكان العمل قبلاً مستبعدًا من مجال الفكر بتأثير الفكرة اليونانية القديمة التي كانت تكل إلى العبيد وحدهم كل ما يتعلق بالعمل، بينما يقتصر الفلاسفة والعلماء على النظر الفكري والعقلي.

كما أن الاختراعات ما كانت تقوم في أوروبا لولا أن قدم العلماء المسلمين أمثال الخوارزمي الذي وضع الجبر، وابن الهيثم والبيروني، وجابر بن حيان.. الخ، وقدم هؤلاء العلماء الطريقة التجريبية وتطبيق العلم على العمل، الذي قاد علماء أوروبا إلى الأمام.

لقد حلقت الحضارة الأوروبية بجناحين هما الحرية والقوة، وهما مثالا أوروبا الأعظمين، فقد ازدهرت العلوم التي أثمرت الاكتشافات والاختراعات فتوفر لها القوة، وبفضل الحرية أمكن لأوروبا أن تكتشف عيوبها ونواحي القصور فيها فتصلحها أولاً بأول.

ولم يحدث أبدًا أن وصلت حضارة إلى قمم النجاح والازدهار، ولا إلى سعة الانتشار كما حدث للحضارة الأوروبية، وقد خضع لها واستلهم طرائقها الهند والصين واليابان، وانتشرت طرزها في العمارة وسلسلة فنادقها في العالم بأسره، بينما تنقل ألوف الطائرات الملايين من الناس يوميًا تذهب بهم إلى أقصى العالم، وعندما وصل الإنسان إلى القمر، وتحرر من أسر الجاذبية الأرضية أمكن أن توجد محطات فضائية

ينقـل عبرهـا الـبرامج التليفزيونيـة بحيث يعلم أقصـى الأرض بمـا حـدث في أوروبـا أو أمريكا ساعة حدوثه.

حقاً إن هذه الحضارة اتسـمت بالقسـوة الـتي تصـل إلى حـد الوحشـية في بعض حالاتها، وقد نهبت كل ثروات شعوب العالم، وحققت تراكمها الرأسـمالي بفضـل ذلـك واستأصـلت السـكان الأصـليين لأمريكـا الشـمالية والجنوبيـة، كمـا اسـترقت الشـباب الإفريقـيين في زراعـة القطن والـدخان وقصـب السـكر، فضـلاً عن جـرائم ومنكـرات الاستعمار طوال القرن التاسع عشر وهذا صحيح، وما يحسب عليهـا، ولكن لا ينفى أن الحضارة الغربية أثرت على العالم كما لم تؤثر عليه حضارة أخرى، فكل العالم تقريبًـا يأكـل، ويلبس، ويعمـل بالطريقـة الـتي تأكـل وتلبس وتعمـل بهـا أوروبـا، وقـد تنـازل الصينيون واليابانيون عن أزيائهم القومية ولبسوا البدلة والبنطلون وربطة العنق، وحتى إيران فإنها لبست كما يلبسـون باسـتثناء الكـارافت الـذي رفضـته، ولم يحتفـظ بـالزي القومي إلا فئات قليلة من العالم، وهـذه الفئـات مـا أن تغـادر بلادهـا حـتى تخلـع زيهـا وتضـع الـزي الأوروبي، والمسـألة أعظم من الـزي أو الأكـل أو الشـرب، إنـه الفهم والسلوك والموقف من القيم، فهـذا هـو الـذي كـان يمكن أن يستعصـى عليهـا ولكنهـا أذابته في معظم الحالات، ولم يستعص عليها سوى الإسلام ــ وليس المسلمين ـــ لأن وسيلة الحضارة الأوروبية بإشاعة ثقافتهم ومفاهيمهـا كـان التليفزيـون الـذي لم تصـل إليـه أي حضـارة سـابقة، فهـذه الأداة حققت المعجـزات، فقبلا كـان من يريـد أن يستكشـف العـالم أن يصـبح نوعًـا من "ابن بطوطـة" أو "مـاركو بولـو"، وأن يتعـرض للمخاطر ويمضي السنوات في اختراق المدن والقرى ويتسلق الجبال، ويعـبر الأنهـار.. الخ، إن معجـزة العصـر ـــ التليفزيـون ـــ نقـل العـالم كلـه إلى بيت كـل واحـد بحيث يستطيع وهو في مُتكئه أن يعرف أخبار أقصى العالم وقت حدوثها، وإذا كان من هـواة الرياضة فيمكنه أن يشهد مباريات أوروبيـة وأمريكية وقت أدائهـا في أوروبـا وأمريكـا، أما إذا كان هاويًا للأفلام الجنسية المحرمة التي عندما ظهرت في أوروبا ــ أول مرة ــ كانت تعرض في دور معينة يمكن الدخول إليها خلسة، فـإن التليفزيـون أصـبح يعـرض أبشع وأفظع صورها لكل واحد بفضل "الدش" ولقاء رسـم زهيـد، وربمـا بدونـه، فهـل هناك شيء مثل هذا حدث من قبل في العالم ؟ عنـدما قمت بـأداء فريضـة الحج عـام 1961 كان هناك أحاديث تتردد في جدة حول إقامة سينما، وكان هناك اتجـاه لتحقيـق ذلك، ولكن ظهور التليفزيون والاحتمالات التي كان يوحي بها جعل مثل هـذا المشـروع غير ضروري، لأن التليفزيون أصبح سينما خاصة في كل منزل ويعرض كـل مـا تعرضـه دور السينما الأخرى بمجرد أن يدير صاحبه الريموت كونترول، وهو مستلق في سريره .

لا جـدال أن التليفـزيون الـذي يسـتخدم قنـوات فضائيـة ويمكن نقـل أخبـار وصـور المباريـات الرياضية والأحـداث السـياسية والأفـلام السينمائية كان من أكـبر

أسلحة "العولمة" في التأثير على المشاعر، وفي إذابة أفكار وتقاليد قديمة شيئاً فشيئاً حتى تزول.

وبالنسبة لقضية القبلات ــ التي كانت سببًا في ظهور هذا الكتاب ــ أذكر أنني منذ خمس أو ست سنوات زرت بلدًا أوربيًا لإلقاء مجموعة من المحاضرات على الأقليات الإسلامية فيه، وبعد أن انتهيت دعاني زعماء المراكز الإسلامية فيها لزيارتهم في بيوتهم لتحقيق نوع من التعارف الشخصي، وفوجئت بأن كل زوجات وأخوات الداعية يستقبلونني بتقبيلي على الطريقة الأوروبية بمشهد من أزواجهن، ولم يثر ذلك أقل دهشة ؛ لأن هذه القبلة ليست إلا رمزًا للتحية بين الأصدقاء وهي لا تخلف أثرًا من أي نوع لأنها لمسة سريعة لشفتين على الخد، وقد يكون للمصافحة أثر أكثر منها، وقد رأيت في هذا مثالاً واضحًا للتأثير الكاسح للحضارة الأوروبية على كثير من المعتقدات والتقاليد والأفكار، وما حدث للأقليات الإسلامية في الدول الأوروبية يمكن أن يحدث للأغلبيات الإسلامية في الدول الإسلامية بعد ثلاثين أو أربعين سنة من دوام تأثير قوى "العولمة" ونجاحها في إذابة الترسبات المتجذرة في النفوس والمشاعر، ولن يقتصر الأمر على القبلات، ولكن أن تكون النظرة إلى الأشياء أكثر سعة وموضوعية وعقلانية.

* * *

هل هذه دعوة انهزامية أمام العولمة، نتقبلها ونسلم بها ؟ الأمر ليس كذلك، ففكرة العولمة ليست بعيدة عن فكرة "العالمية" الإسلامية، فالأفكار لا تعرف الحدود الجغرافية المادية، وليس كل ما في الحضارة الغربية سيء ، فالحق أنها في بعض جوانبها أقرب إلى الإسلام، فاستخدام العقل لتسخير قوى الطبيعة لخدمة الإنسان أمر أراده القرآن الذي جعل الإنسان خليفة على الأرض وسخر له كل ما فيها، ونحن أحوج ما نكون لأن نتخلق بخلائق الانكباب على العمل والإخلاص فيه وعدم السماح بأي تقصير، وعدم إهدار الوقت الثمين، أو المعدات التالية، وعدم الاستهانة.

وإذا كانت الحضارة الغربية تتقبل المسيحية، فإنها لا تفهم من المسيحية إلا أنها دين المحبة، أما ما تقدمه من لاهوت، وأما ما تقيمه من بناء كنسي من قسس، وكهنة، ومطارنة.. الخ، فهذا ما لا تعطيه أي أهمية.

وباستثناء تلك الفترة الذهبية اللامعة في التاريخ الإسلامي فترة إدارة الرسول لمجتمع المدينة، ثم حكم أبي بكر وحكم عمر بن الخطاب ــ وهي ربع قرن ـــ والتي تعد أسمى وأعظم ما وصلت إليه البشرية من إقامة مجتمع يقوم على المساواة ويكون كل فرد آمنا في سربه معافي في بدنه ملحوظاً بعناية الدولة والتي لا يمكن أن تسابقها لا الديمقراطية الأثينية، ولا الحضارة الغربية، نقول: إنه باستثناء ذلك الربع قرن التاريخي، فإن أوروبا قامت بما عجزت عن الوصول إليه كل حضارات العالم، وليس لدي الإسلام حساسية من وجود الغير والاعتراف له بما وصل إليه، لأنه يؤمن

بالتعددية، ولأنه يؤمن بالأديان جميعًا، وبالبشرية كاملة، ولا يعترف بما تقيمه الحكومات من حدود لتفصل ما بين الناس، أو شعارات تعلى بعضهم على بعض، ولا يؤمن بحساسيات القومية والوطنية، ولا يحول شنآن العداوة أن يعدل المسلم ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: 8)، وقد جعل الإسلام الحكمة أصلاً وقرنها بالكتاب، وقال الرسول "الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها"، ولم يجعل الله تعالى الأرض وقفًا على المسلمين ولكن على "الصالحين" أي الذين يثبتون صلاحيتهم.

فليس هناك حرج أو حساسية في الاقتباس من العولمة كل ما يفيدنا، كل ما يزيدنا قوة وعزة وثراء، وهذا يعني أن موقفنا لن يكون موقف استخذاء، ولكن أكفاء، كما لا يعني أن نأخذ كل شيء منها، فلا جدال في أنها لا تعرف الرحمة أو العدل، وأن عرق الاستغلال الرأسمالي المكين يتحكم فيها، وهو سر عربدتها واستعلائها وتعاملها من موقع القوة واستخدامها معايير متعددة طبقاً لمصلحتها الخاصة، فهذا هو ما نرفضه، وما نرى أنه سيكون السبب في تهاوي هذه الحضارة بعد صراع مرير مع قوى التطوير.

إن أفضل ما جاءت به الحضارة الأوروبية هو حكم العقل، وعن طريق هذا العقل سيمكننا أن نحدد الأوضاع المثلى لنا في حياة العصر، إن الرأسمالية والديمقراطية بالصورة التي عليهما في أمريكا مثلاً قد لا يكونا أفضل الصور لنظام اقتصادي وسياسي يصلح للشرق، ونجاحهما في أوروبا وأمريكا لا يعني نجاحهما في غيرهما ؛ لأن عناصر عديدة كفلت هذا النجاح كانت متاحة لأوروبا مثل التراكم الرأسمالي بفعل النهب والسلب والحكم الاستعماري.. الخ، ومثل التقدم التكنولوجي منذ أن بدأت الثورة الصناعية الأولى في منتصف القرن الثامن عشر في بريطانيا حتى ثورة الكمبيوتر والقنوات الفضائية، وليست الاستحالة هي بلوغ درجة التقدم التكنولوجي الذي وصلته أوروبا، فهذا وإن كان صعبًا جدًا، إلا أنه ليس مستحيلاً وقد بلغته دول أخرى، ومن الممكن القفز على المراحل، والبدء من آخر نقطة وصل إليها التقدم الأوروبي/الأمريكي بفضل دفع الأبحاث العلمية، وهذا ما لا يعجز عنه آلاف المليارات العربية لو أرادت، ولكن القضية هي أن هذا غير مطلوب، لأن فلسفتنا ليست فلسفة التكاثر والاستهلاك التي دفعت بأوروبا وأمريكا إلى المدى الذي وصلاه وحققا لها التكاثر الذي تفخر به والذي أحدث لها الكثير من المشكلات وكدر صفوها، وجعلها تدفع ثمنًا باهظاً، إن فلسفة مجتمعنا التي تعود إلى المثل الإسلامي "القصد" وليس السرف أو الشطط الذي هو المثل الأعلى الأوروبي، والمثل الإسلامي هو حياة معتدلة، متزنة، بعيدة عن السرف، ومن هنا فإن السياسة العليا لا تقتضي منا أن نحقق المستوى المعيشي الذي حققته.

ويجب أن نطرح كل الإغراءات والدعاوى الرأسمالية ؛ لأنها في الوقت الذي لا تتفق تمامًا مع المثل الإسلامية، فإنها لن تكفل لنا إلا وضع التبيع الذي لا يملك حرية القرار، وقد أرادت كل سياسات العولمة الرأسمالية أن تهدم كل الحواجز أمام رأس

المال، وأن تخضع سيادة الدولة له، فلا تملك الدولة أن تحمي صناعاتها وزراعتها واقتصادها من غزو الرأسمالية المتوحشة ومن تدمير كل هياكل الصناعة والزراعة المستقلة فيها بحيث تصبح تحت رحمة الشركات المسيطرة على العالم، إن هذه القطعة من الاقتصاد المتسترة بدعوى حرية التجارة لا تعني للشعوب النامية إلا الخراب والدمار والتبعية المهنية، ولابد أن ترفضها بكل قوة، ولن تستطيع كل القوى الخارجية أن تفعل للدول النامية شيئاً إذا كان حكمها وطنيًا رشيدًا وشعبها متماسكًا، خاصة وأن هذه الدول يمكن أن تتجمع في تكتلات لا تستطيع الدول ولا الشركات أن تدخل في حرب معها.

وبالنسبة للغزو الفكري فإننا لا نستطيع أن نغلق السماوات المفتوحة، ولكن يمكن أن لا ننظر إليها، وبقدر ما يقوى الضمير، وملكة الحياء، وكراهية التبذل والدعارة، والعزوف عن الشطط والسرف بقدر ما تقيم سدًا مختارًا بيننا وبينها.

إن إرادة الشعوب القائمة على الإيمان المستنير بالدين، كما يقدمه القرآن والرسول هو أعظم حماية للأمن الداخلي والسلام، وأعظم حصانة من التأثير، دع عنك، التغلغل لقيم حضارية بعيدة، أو قل مناقضة لقيمنا.

إن الإسلام هو خط الدفاع الأخير للأمم العربية في مواجهة العولمة المتوحشة وإذابتها كل المقومات، وهو وحده الذي يستطيع أن يحقق درجة من التماسك ويكفل قدرًا من الوحدة والحفاظ على المقومات ويجول دون الإذابة المدمرة.

إن هذا القرن لن يكون القرن الأمريكي، لأن أمريكا لها شركاء سيتنهضون بقدر ما تتعثر ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: 140).

المدخل السادس
الحب والجمال
عالمان مغيبان عن المجتمع الإسلامي

الحب والجمال عالمان مغيبان عن المجتمع الإسلامي، لا نجد لهما ذكرًا فيما بين أيدينا من كتب التراث الإسلامي القديم، بل نحن نلمس شيئاً من العزوف، مع أنهما من باب "القيم" النبيلة التي جاء الإسلام بها ولها، فأي شيء أدعى للقبول من "الحب" ؟ وأي فضيلة يمكن أن تعدله ؟ إن الأسرة التي يربطها الحب، والمجتمع الذي يتماسك بالحب هو المجتمع القريب إلى الله، فالقرآن الكريم نسب إلى الله تعالى "يحب"، فجعل الحب معيارًا، مما يستبعد أي شائبة سوء به، فالحب كالخير قيمة، والفرق بينهما أن الحب يتلبس بالعاطفة، والجمال قيمة لها تميزها، وهو في مجال الشكل كالعدل في مجال الموضوع، فكما أن العدل هو إعطاء كل ذي حق حقه، فإن الجمال هو قسمة كل جانب من جوانب الجسم دون زيادة أو نقص بحيث "لا يشتكي قصر منها ولا طول"، وهو في كنهه الاتساق والتوازن والاعتدال، وهي كلها مقومات الصلاحية، والجمال كالحب يرتبط بالعاطفة، والعاطفة تعود إلى القلب، والقلب هو حصن الإيمان وجذره الأصيل، فالحب، والخير، والعدل، والجمال كلها شُعَبْ من شعب الإيمان الذي ينبثق عن القلب، وكان يفترض أن يكون من قيم الإسلام ومن مقوماته، ولكن يبدو أن المجتمع الإسلامي تأثر في فترة متقدمة جدًا من تاريخه بعقدة "الفتنة" التي كان لها في مجال العاطفة وفي مجال السياسة أثر بعيد، وقضت الرغبة القوية، المبنية على سد الذريعة باستبعاد كل ما يوحي بحب أو جمال خشية الفتنة وتحوله من مجال العاطفة النبيلة إلى مجال الشهوة الرذيلة، كما حكمت في مجال السياسة بقبول حكم المغتصب ؛ لأن الثورة عليه تؤدي إلى "الفتنة"، وكانت الفتنة السياسية قد أصبحت "تابو" و"عقدة" من أيام الفتنة ما بين عليٍّ ومعاوية وما اصطحبت به من مشاهد دراماتيكية مروعة، وهكذا وضعت مئات الأحاديث التي تحذر من فتنة الحب والجمال لأنهما يرتبطان في المجال الاجتماعي بالمرأة، ويرتبطان في المجال السياسي بالثورة، ووضعت عشرات الأحكام التي تحرمهما، تحرم كل ما يقود إليهما "سدًا للذريعة".

ولما كانت دعوة الإحياء الإسلامي إنما قامت لترفع الغشاوات التي تراكمت عبر القرون على الإسلام حتى حجبت جوهره، فقد آن الأوان لأن ننظر نظرة جديدة إلى الحب وإلى الجمال.

إن الحب.. ولنقل حب الدنيا حتى يكـون شـاملاً، وحـتى يجابـه الفكـرة الإسـلامية الشائعة التي تضـع حب الـدنيا في مواجهـة حب الحيـاة الأخـرى، وحب الوجـود، الـذي يبقي الإنسان على سطح الأرض وليس في بطنها.

فلا جدال أن حب الحياة ــ رغم مواقف الأديان والفلسـفات ـــ كـان ولا يـزال من أقوى ــ إن لم يكن أقـوى ـــ مـا يتملـك الإنسـان من مشـاعر لأن حب الـدنيا هـو حب الوجود، هو حب البقاء، هو حب نفسه وبقاء نفسه، فأول ما يحـرص عليـه هـو الطعـام والسكن والكساء ليضمن البقاء، وأن لا يموت جوعا أو عطشًا أو ضحية لتقلبـات الجـو ثم ينتقل هذا الاهتمام إلى الاهتمام بتأمين حياته من عـدوان الوحـوش حـتى لا تلتهمـه فيما تلتهم، وهذا كله يدفعه للعمل على بناء بيت وغزل ونسج ثوب، واصطياد الأسماك أو الحيوانات واستئناسـها وتـدجينها، ثم تعـرف على الزراعـة واكتشـف النـار كـل هـذا للعمل على بقاء نوعه ــ وليس نفسه فحسـب ـــ وأحس بعاطفـة الحب للأنـثى، بينمـا كانت الغريزة الجنسية تدفعه للالتحام بها، ونتيجة لهذا ظهر الطفل، ومن هـذا الثـالوث ــ الأب والأم والابن ــ تكونت نواة المجتمع وظهرت الأسرة وظهرت ضرورات الحفاظ عليها، وحق لشوقي أن يقول:

انظر الكون وقل في وصفه　　　كل هذا أصله من أبوين
فقدا الجنـــــــــة في إيجادنا　　　ونعمنـا منها في جنتيـــن

ولكن عندما يقال حب الدنيا، فإن هذا يثير معاني أكـثر من هـذه المعـاني الذاتيـة البدائيـة الـتي استشـعرها الإنسـان الأول، إن عـالم الـدنيا الفسـيح الخصـب المليء بـالخيرات الحافـل بالمخـاطر والمجازفـات وقمم الجبـال العاليـة تناديـه فيصـعد إليهـا وأعماق البحار تثيره فيـنزل فيهـا، ويلحـظ إن الريـاح تـذهب يمنـة ويسـرة، فاسـتخدم حركتها لنشر السفن الشراعية، ويثـير حب الحيـاة في نفسـه نشـوة المعرفـة ويدفعـه للكشـف عن المجهـول وتسـخير قـوى الطبيعـة لهـذه الحيـاة. وحب الحيـاة في أصـل الحرية التي تسمح له بهذا كلـه، والـتي تكتسـح كـل السـدود والحـدود، ولعـل الشـاعر العربي التونسـي "أبـو القاسـم الشـابي" كـان أقـدر شـعراء العـرب عن تصـوير "حب الحياة" في قصيدته الرائعة التي حملت عنوان "إرادة الحياة" والتي تستهل:

إذا الشعب يوما أراد الحياة　　　فلابد أن يستجيب القـــــــدر

والتي يقول فيها:

ومن لم يعانقه شـــوق الحيـــاة　　　تبخـــــر في جوها، واندثـــــــر
فويـل لمن لم تشـقه الحيـــــــاة　　　من صفعة العـــــدم المنتصـــر
ومن لا يحب صعـود الجبــــال　　　يعش أبـد الدهــــر بين الحفـــر
هو الكون حي، يحب الحيـــــاة　　　ويحتقـــــر الميت، مهما كبـــر

فلا الأفق يحضن ميت الطيور ولا النحل يلثم ميت الزهر
إليك الفضاء، إليك الضياء إليك الثرى، الحالم، المزدهر!
إليك الجمال الذي لا يبيد ! إليك الوجود، الرحيب النضر!
فميدي كما شئت فوق الحقول بحلو الثمار وغض الزهر
وناجي الحياة وأشواقها وفتنة هذا الوجود الأغر
ورفرف روح غريب الجمال بأجنحة من ضياء القمر
ورن نشيد الحياة المقدس في هيكل حالم قد سحر
وأعلن في الكون أن الطموح لهيب الحياة، وروح الظفر

ويمكن القول أن حب الدنيا كان في أصل ظهور وازدهار الحضارة الأوروبية الحديثة، فقد عبدت هذه الحضارة الحياة، وأذكر أني في جنيف في احتفالات رأس السنة وجدت أطفالاً يكتبون على الحيطان vive la vie "تحيا الحياة".

آمنت أوروبا بالحياة وكفرت بما عداها فركزت كل قواها فيها وبهذا حققت إنجازاتها العظيمة لجعل الحياة مليئة ثرية، حافلة بكل ما يسعد ويريح ويروي الشهوات ويحقق الإرادات، وحققت ما كان يعد مستحيلاً أو ما كان ينفرد به الأنبياء من معجزات تبعث على الإيمان، فأي شيء الآن يساوي بساط سليمان، إن شركة بوينج تملك المئات من طائرات تفضل بساط سليمان الذي كان معجزة عصره.

إن "الحب" معنى ومبنى ليس بعيدًا عن الإسلام، بل لقد نسبه القرآن إلى الله تعالى ـ على طريق المجاز بالطبع ـ فالله يحب التوابين والمتطهرين والمحسنين والصابرين والمتوكلين، وهو تعالى لا يحب الظالمين ومن كان مختالاً فخورًا، ومن كان خوانا أثيما، ولا يحب المسرفين ولا يحب المعتدين، بل إن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: 31)، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: 54)، فالحب هنا متبادل ما بين الله والمؤمنين.

وأراد الرسول أن يعلن وأن يشيع بين الناس فكان إذا سئل عن أحب الناس إليه قال دون تردد: "عائشة"، وقال: "إذا أحب أحدكم أخاه فيقل له إني أحبك"، فلماذا يملك الحياء المزعوم المسلمين عن أن يشبعوا حبهم في مجتمعهم ليتأثر مجتمعهم به.

ومن ناحية أخري فإن الإسلام يعترف بحق الإنسان في الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا، ومن النادر أن نجد دينا يحث أتباعه على الأكل ! فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: 168)، ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة: 88)، ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل:

114). واستنكر أن يحرم أحد زينة الله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: 32).

والإسلام يعترف بالطبيعة البشرية، كما جبلها الله وبما فيها من فجور وتقوى وتحدث عن "حرث الدنيا" فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى: 20)، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: 18ــ20).

إن إلحاح الإسلام وتركيزه على الآخرة، لم يكن في حد ذاته يقف حائلاً ما بين "الدنيوية" والإسلام إذا فهمت "الآخرة" الفهم السليم الذي جاء به القرآن نفسه والرسول، فالقرآن يؤكد أن الله ورسوله لا يدعون المؤمنين إلا لما يحييهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم﴾ (الأنفال: 24)، ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: 97)، ويقول: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: 77)، والرسول يقول: "ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا من ترك الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه"، وذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال ــ رضي الله عنه ــ: "الدنيا الدار دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غني لمن تزود منها" (أدب الدنيا والدين للماوردي، ص111).

أليس حقًا أن الإسلام نفسه فضل العالم على العابد ؟ وعندما قال ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: 28)، فإنه يحيلها إلى ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (الزمر: 21)، فدل على العلماء هنا ليس المقصود بهم الذين يعلمون الفقه والعبادة، ولكنهم الذين يدرسون الجيولوجيا والطبيعة والزراعة، فإذا كان هذا من عمل الدنيا الذي يقدمه الإسلام على العبادة فكان جديرًا أن يكون المسلمون هم أول من يظفر بجائزة نوبل في مجالات الطبيعة والجيولوجيا.. الخ، ولكان هذا من أفضل من أعمال الآخرة التي تقربهم إلى الله ؟

أليس حقًا أن تحقيق العدل هو أعظم ما يأمر به القرآن، وما يدخل في أعمال الآخرة ؟

أليس الإنفاق في سبيل الله وعلى من يحتاجون من أعظم القربات ؟

أليس الصدق خلقًا من خلق القرآن يدخل صاحبه الجنة ؟

أليس الإتقان واجبًا يجب على المسلم أن يقوم عليه عمله ؟

فلما إذن لا يؤدي المسلمون هذا كله أو لا يعتبرونه من أعظم القربات إلى الله ؟

لماذا يكون الظلم فاشيًا، والكذب منتشرًا، والبخل غالبًا، والتلفيق في العمل دأبًا، والانصراف عن البحوث في أعماق الطبيعة مسلكاً ؟

إن هذا كله من صميم ما يدخل في عمل الآخرة، وما يكون علينا أن نستغل حياتنا الدنيا لتحقيقه.

لم تفهم الأمور على هذا النحو، والذي حدث هو أن عددًا من "الوضاع الصالحين" وضع آلاف الأحاديث التي تتوعد كل من يأخذ بحظ من نشاط دنيوي بعذاب عظيم، وتثيب كل من يعكف على العبادات وتلاوة الأدعية وصلاة النوافل والبعد عن كل ما فيه إثارة شبهة بثواب عظيم. كما ظهر آخرون يتحدثون عن عذاب جهنم، وعن حور الجنة، وتحدث رواة ومؤرخون عن عارفين كان الواحد منهم يصلي ثلاثين ألف ركعة في اليوم أو يصلي الصبح بقراءة البقرة وآل عمران.. الخ.

ودخل الحلبة المتصوفون بكراماتهم وخرافاتهم.

اكتسح هذا الطوفان المشاعر، وملأ الأسماع وأصبح هو المسيطر على المجتمع الإسلامي، هذا المجتمع الذي كان يمكن أن تزدهر فيه الفنون والآداب ويكون للمرأة وجود حي وفعال ويلهم الأذكياء والطامحين الاكتشاف والاختراع.

وكلل هذا كله بإغلاق باب الاجتهاد في القرن الرابع الهجري وعلى امتداد ألف عام صدأ العقل المسلم، وتحول الضمير من الحياة الدنيا وما بين الناس بعضهم بعضا إلى العبادات، فإذا صلي المؤمن الصلوات الخمس في ميعادها اطمأن ضميره واستراح وما عليه بعد ذلك إذا تراخي، أو كذب أو نافق.. الخ.

وفي الوقت الذي ظهرت الآثار الوخيمة لهذا الفهم وأدت إلى تخلفه، تملك أوروبا طوال القرون الأخيرة من تاريخها اتجاه كاسح وشعار هيمن على آفاقها هو "التقدم" وتحت هذا الشعار ساروا طوال القرون الأربعة (من القرن السادس حتى القرن العشرين) وحققوا كل إنجازات الحضارة الأوروبية.

ونأتي الآن للجمال.

إننا نعد الجمال دليلاً على وجود الله.

حتى وإن لم نجد إشارة إليه في كل الكتب الإسلامية للبرهنة على وجود الله، وإن هذا هو السر في الجمال الذي يتبدى للعين في الكائنات جميعًا في الزهور وألوانها الساحرة، والفراشات وأجنحتها المزركشة، وفي ندف الثلج التي تأخذ أشكالاً يستلهمها مصممو المنسوجات وصانعو الحلي والمجوهرات.. دع عنك جمال الإنسان.. ذكرًا وأنثى... وخلقه في "أبدع تكوين".

إننا نؤمن أن ما نلحظه من مشاهد الجمال في الطبيعة والحيوان والنبات والإنسان دلالة لا تخطئ على وجود خلاق هو ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (البقرة: 117)،

وهو أصل هذا الجمال ومصدره، قدر ما هو دعوة للاعتبار والعظة والاستلهام، ومنة من الله تعالى على الإنسان للاستمتاع به وتذوقه.

والجمال بهذه الصفة ـ أي باعتباره شعاعًا من الأصل الإلهي الجميـل ـــ لـه صـلة بعالم الحقيقة والقيم، وهو يتجلى في النظريات العلمية،والمنشآت المعمارية وتقتضي أصـول الجمـال إبعـاد كـل مـا يعـد فضـولاً، أو مـا يسـيء إلى التناسـق أو البسـاطة أو الحقيقة.

وليس هناك من مبرر مادي أو نفعي لوجـود الجمـال، فمن الناحيـة النفعيـة يمكن لأداة بشعة المنظر أن تكون أفضل ـ عمليًا ـ من أداة جميلة المنظـر، ومـع هـذا فقـد يفضل الإنسان الأداة الجميلـة لأنهـا تشـبع حاسـة الجمـال وتتجـاوب مـع نزعـة تذوقـه بالمخالفة لمنطق المنفعة، كما لا يمكن أن نفسر وجـود مشـاهد الجمـال بالمصـادفة ؛ لأن مشاهد الجمال تتبدى في كل مظاهر الطبيعة وتصدر عن قوانينها وطريقة عملهـا. فالجمال لا يمكن أن يفسر بالضرورة أو المصادفة لأنـه قيمـة من القيم، ووجـود صـور عديدة مجسمة للجمال لا ينفي أن يكـون لـه في بعض الحـالات جانبـه المبـدئي الـذي يجعله قيمة كالعدل والخير والصدق.. إلخ.

وقـد عجـز "داروين" عن أن يعلـل الجمـال في الصـوت الإنسـاني، ومـا حَبَـا بـه الإنسـان من موهبـة موسـيقية وقـال: ".. وحيث أن الاسـتمتاع بالأنغـام والقـدرة على إطلاقها ليسا من الملكات التي تعـود على الإنسـان بـأدنى منفعـة في عاداتـه اليوميـة الحياتية، فلا بد أن نضيفها في عدد أكثر الملكات التي حُبي بها غموضًا.

قد يقول البعض: إن الجمال يرتبط بالغريزة الجنسية في الإنسان، والحيـوان، بـل والنبات أيضًا، وهو يستثير الحواس لتنشيط أداء هذه الوظيفـة، ولكن هـذا القـول ليس حجة علينا، بل هو حجة لنا، لأن الجمال يضفي هالة من العاطفة على الغريزة ويزجيهـا في غلاف رقيق منمق جميل بحيث تؤدي أداء تسـمو بـه من الميكانيكيـة الغريزيـة إلى العاطفة الإنسانية.

على أننا نجد الجمال في غروب الشـمس، وفي تمـاوج المـوج، وفي الـوردة ذات الأوراق الناعمة الملتفة بألوان ساحرة، وشذى عاطر، وكأنها ترتدي ثوبًا من القطيفة لا يخفى، بل يعلن نضارتها، كما لو أنها درة ثمينة أو جـوهرة مكنونـة، وليسـت وردة على عرض الطريق أو سفوح الجبال مبذولة للجميع، ويوجد منها الملايين.

وهذه كلها بعيدة كل البعد عن معاني الجنس والغريزة، وهي متاحة في كل وقت، وفي كل مكان ما لم تشوهه يد الإنسان.

والحق أن الجمـال من أكـبر نعم اللـه على الإنسـان، وهـو يثبت ـــ بالإضـافة إلى وجود الله تعالى كرمه وقدرته ـ على خلق كل هذه الصور من الجمـال الفـائق الرائـع

في الطبيعـة والنبـات والإنسـان نفسـه، فمن ذا تكـون لـه القـدرة على هـذا الخلـق والإبداع ؟ من ذا يكون له الكرم والاستغناء والتفضل ؟ بحيث يقدم كل هـذه المشـاهد مجانًا ودون مقابل، ودون ثمن تذكرة لمشاهدتها غير الله تعالى، وهو أيضًا ينم على أن الله تعالى أراد للإنسان وجودًا حضاريًا يتحقق لـه فيـه هـذا العنصـر الثمين، وسـخر لـه مشاهده في الكون وفي الأرض، ولولا تلك اللمسة من الجمال التي غرسها الله تعالى في الإنسان ويسرها له في الأرض لعاش الإنسان كالحيوان، ولما كان هناك حاجـة إلى اللبس الأنيق أو السكن الجميل أو عالم الفنون والآداب الفسيح بما فيه من موسـيقى، وشعر ورسم.. إلخ.

إن الاستغراق في تأمل وردة، أو فراشة هو نوع من العبادة لأنها آيات بينـات على قدرة الله لا يجوز أن نمر عليها معرضين لاهين، وهنا يتلاقى الفن والجمال والعبادة.

وإنه لمن الغريب حقًا ألا نجد في كتب العقائد التي تعنى بإثبات وجود الله تعـالى وصفاته هذا الدليل رغم أنه يشـمل معظم مظـاهر الحيـاة بالنسـبة للإنسـان وبالنسـبة للحيوان والنبات أيضًا، وأن القرآن الكريم قد عني به وأبرزه في أكثر من موضـع، وأن بعض الصوفية قد استشفوا شيئًا منـه، ولكن الـذين جعلـوه مـدخلهم للعقيـــدة هم ولا حرج الفنانون الذين التقطت حواسهم المرهفة ومشاعرهم الرقيقـة مشـاهد الجمـال، فآمنوا بالله، وهم في هـذا كالعلمـاء الـذين آمنـوا باللـه باعتبـاره "العقـل الكـوني"، أو علماء الاجتماع والنظم والفلاسفة الـذين رأوا فيـه المثـل الأعلى والأصـل الموضـوعي الأعظم والمطلق للحق، والعدل والحكمة وللسنن التي يسير عليها المجتمع.

والفرق بين خلق الله الذي يتسم بالجمال، وخلق الإنسان كبـير، وأذكـر أني رأيت على شاشة التليفزيون آخر نمط للروبوت صـنعه اليابـانيون بفضـل أحـدث تكنولوجيـا، وكان الروبوت يتقدم ويتأخر، وينحني وهو يقدم وردة لسيدة، وتلا هـذا مباشـرة عـرض لإحدى بطلات "الترابيز"، وهي تنتقل من عقلة إلى عقـلة أخرى، وتنحني وتدور وتلـف، وتتجاوب تلقائيًا، وفي سرعة البرق مـع متطلبـات كـل حركـة، فمـا أعظم الفـرق بين لاعبة الترابيز الرشيقة المتزنة وأعضائها المتناسقة الجميلة، وإشراقة الحيـاة، ونضـارة الصحة، باختصـار جمـال الخلـق الإلهي من لحم ودم وتكـوين عضـوي وحيـاة، لقـد بـدا الروبوت الياباني وكأنه قطعة عتيقة بالية صنعها إنسـان بـدائي ليس فيهـا جمـال، ومـا أبشع حديده وأعضاءه وأبعده عن التكوين العضوي النضر، المتناسق وما أبطـأ حركاتـه وأثقلها إذ قيس بحركاتها الحرة الطليقة.

فإذا كان الإنسان يعجز عن أن يخلق امرأة جميلة نضرة كفتاة الترابيز فإنه يعجــز أيضًا عن أن يخلق نمرًا له فتوة وانطلاقة ومرونـة وسـرعة النمـر في الغابـة، فـالخلق الإلهي يتميز في الكائنات بجمال يعجز الإنسان عن أن يساميه سواء كان هـذا الجمـال في المرونة أو التناسب إلى غير ذلك من عناصر الجمال، وإن ما توصـل إليـه الإنسـان في هذا المجال تقليد فقير بالنسبة لما خلقه الله تعالى.

وقد افتتن اليونانيون القــدامى بجمال الجســم الإنســاني فغلبت "فينـوس"ـ إلهـة الجمال، "هيرا" إلهة الحكمة، كما توله بعض الكتـاب والفنـانين الأوربـيين والأمريكـيين بنساء فائقات الجمال، ولكن فارغات العقول. وقد أخطأوا جميعًا، فإنما الجمال آية من آيات الله، مثله كالشمس والقمر، وبالإضافة فإن جمال الجسم الإنسـاني لا يفـترض – ضرورة – توفر الحكمة، بل قد يكون – بتركيزه على الشكل – مناف لها، بطريقــة مــا، ومن ثم فلا يتصف هذا الجمال بالكمال الذي يجب أن يتـوفر في الإلـه المعبـود، وهـذه الواقعـة هي من أدلـة تفـرد اللـه تعـالى بالكمـال، وأن مـا عـداه إنمـا هي مشـاهد من قدرته، وأدلة على حكمته.

* * *

لقد أوردنا فيما سبق رؤية للحب والجمال، وأنهما من مقومات الحيـاة الإنسـانية، ومن أبرز ظواهر المجتمـع الـذي يمـيز البشـر ويريـد لهم مـا أراده اللـه تعـالى عنـدما خلقهم ؛ لأنه لا يمكن أن يوجد تعارض ما بين وقائع الحياة الدنيا الثابتة التي اصـطحبت بـالحب والجمـال، وبين مـا أراده اللـه تعـالى عنـدما أوجـدها وجعـل لهـا هـذا الظهـور والحضور، إن هذه الرؤية لابد وأن يكون لها أثر في نظرة المسلم إلى الأشياء، وحكمه على الأوضاع، ولا يثنيه عما تنتهي إليـه من متـاع أن تكـون مخالفـة للأدبيـات التقليديـة الإسـلامية ؛ لأن هــذه الأدبيــات التقليديــة هي في الحقيقــة ليســت إلا ثمــرة لــتراكم الغشــاوات، ولغلبــة المــؤثرات الــتي تعــود إلى العصــر وإلى المصــالحة وإلى النظم الحاكمة، وليست إلى الإسلام، على أن الدين ـــ كمـا قلنـا ـــ ليس وحـده كـل شـيء، وهذه الأبعاد للحقيقة تشارك الإسلام في الوجـود، ولا يعاب على المســـلم إذا وضـعها في اعتباره، وأعطاها حقها، فهذا كله هو ما أراده الله حقاً، ولأننا إذا أخـذنا بهـا، فـذلك لأنها ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (النساء: 78)، وقد عجـز الأسـلاف عن أن يـدركوا ذلـك، وحُـق لهم هذا ؛ لأن عصرهم ما كان يسمح به، أما عصرنا فهو عصر العقل والحرية، وهما ما يقودنا إلى الحياة الدنيا وهما الهاديان لنا إليها، أما الحياة الآخرة فيهـدينا إليهـا القـرآن، ولا تعارض ولكن تكامل.

لقد سيطر على الفكر الإسلامي القديم فكرتان جعلتا المجتمع الإسلامي مجتمعًــا مغلقـًا:

الأولى: سد الذريعة التي حـرمت الحلال حـتى لا يتحـول إلى حـرام وأرادت وضـع المسـلم في "صـوبة" حـتى لا يقـترف إثمًـا فأقـاموا أسـوارًا وشـيدوا سجونـًا للأفكـار وللأوضاع الحرة، وحبسوا المرأة في البيوت لأنها عورة، ومادامت عورة فليسترها بيتها (أو قبرها).

أمـا الفكـرة الثانيـة فهي هـاجس "الفتنـة" الـتي حـولت الإحسـاس بالجمـال إلى الإستسلام للشهوة، أصبح كل ما يؤدي بالمرأة إلى الجمال محرمًا، كما أن النظر إليهـا

لا معنى له إلا الشهوة، ولم تعد أي نظرة من رجل إلى امـرأة أو من امـرأة إلى رجـل إلا سهمًا من سهام إبليس ومزلقـًا للممارسة الجنسية والرذيلة وإشباع الشهوة.

كـانت الفتنــة من أسـوأ الهـواجس الـتي هيمنت على الفقهـاء وأدت إلى إعلان الحرب على الجمال وإلى الفصل الحديدي بين الرجـال والنسـاء حـتى لا تـرى المـرأة الرجـل الـذي سـيتزوجها ولا يـرى الرجـل المـرأة الـتي سـيتزوجها حـتى أصـبح الكبت والحرمان هو طابعه والنفاق لغته ونبذت الفنون والثقافة وحرمت الأغنية والموسـيقى، وساد القبح والدمامة والفجاجة، وكأن هذا المجتمع عملة ضربت في دار الإفتاء.

لابد للمجتمـع المسـلم أن يتحـرر من تراثـه التعس.. المعقـد.. المجـرد من الحب والحياة، ولابد أن يفهم الفقهـاء أن هنـاك فرقـًا شاسـعًا بين الحب وبين الشـهوة.. بين الجمال وبين الجنس، إن الحب والجمال يقضي على الشهوة البهيمية لأنهـا لا تقـوم إلا على الكبت ولا تعيش إلا في مناخه، إن الكبت يحول العاطفة إلى شــهوة في حين أن الحرية تجعل الشهوة عاطفة، وهذا شيء يعسر على الفقهاء أن يستسيغوه.

إن وجود مداخل ستة ترتفق على موضوع (القبلات) يكون على كل واحد أن يلم بها ويتعرف على انعكاساتها على الموضوع قبل أن يتبـرع بالـرأي أو يذكر الحل، يصور لنا مدى التعقيد الاجتماعي، وأن هذه القضية (قضية القبلات) لها أبعاد عديدة: البعد الديني هو أحدها وقد لا يكون أهمها، وحتى لو كان أهمها فإنه لا يستطيع أن يدفع بقية المداخل، فإصدار حكم ليس أمرًا سهلاً وهينـًا، وأن علينا أن نتسلح بالثقافة والمعرفة واستكشاف كافة الأبعاد في هذه القضية قبل أن نصدر حكمًا عليها.

غبار المعركة

ظهر أن قضية "القبلات" لها حساسية عميقة وخاصة في المجتمع المصري بحيث أن من يشير إليها ولو عن بُعد، يتعرض ليس فحسب للمعارضة، ولكن للاتهام بأقذع الاتهامات، وكان عَليَّ أن أتذكر قاسم أمين عندما أصدر كتابه "تحرير المرأة"، فقد قاطعته كل الدوائر، وأغلقت السراي الملكية أبوابها في وجهه، وندد به مصطفى كامل وطلعت حرب، ولم يقف بجانبه سوى الشيخ محمد عبده مع أنه لم يطلب إلا التعليم للمرأة والعمل، ولم يشترط السفور.

غاب هذا عن ذهني لإيماني العام بحقوق المرأة، فتحدثت في برنامج تليفزيوني عن انفلات الشباب في الجامعة بعد أن استحال عليهم الزواج لصعوبة اشتراطات الأم والأب (شقة ـ وأثاث ـ ومهر.. الخ)، مع أن الرسول قال: (إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير).

وقلت: لابد إذن أن تحدث فتنة ـ كما قال الرسول ـ وأن يتصرف الشباب تصرفات مخالفة وأن يتبادلوا القبلات.. الخ.

[illegible] ([illegible]) [illegible]
[illegible]: «[illegible] !!» [illegible]:

[illegible] ! [illegible] «[illegible] .. [illegible] .. [illegible] .. [illegible] .. [illegible] ».

[illegible]: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ ([illegible]: 32) [illegible]

[illegible] ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ([illegible]: 151) [illegible] «[illegible]» [illegible].

[illegible] «[illegible]» [illegible] «[illegible]

ورددت عليه بمقـال بعنـوان «الله أرحم بالبشر من البشر بأنفسـهم» قلت فيه:

:2/3/2008

[illegible] (100 :[illegible]) [illegible] :« [illegible] ».

[illegible] « [illegible] » [illegible].

وعندما قال أحد المسلمين قبيل الصلاة: «يا رسول الله أصبت حدًا فأقمه عليَّ» سكت حتى أتم الصلاة، وأعاد الرجل مقولته، فقال له الرسول ﷺ: «ألم تصل معنا آنفاً ؟»، قال: نعم، قال ﷺ: «إن الحسنات يذهبن السيئات»، وفي مناسبة أخرى قال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن أمر فانتهوا»، وقال ﷺ: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم».

إن انتزاع آية وتفسيرها يمكن أن يعطي معنى لا يريده القرآن، لأنه يفترض أن يقرأ ما قبلها وما بعدها، بل يجب أن يكون لديه علم بما في القرآن من آيات أخرى عن موضوع الآية التي يفسرها ؛ لأنه يمكن أن ترتفق عليها أو يؤخذ بها دون الأخرى، ولا يعد هذا خروجًا لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضًا، وإنما يكمل بعضه بعضًا.

والكلام «العلمي» الذي جاء به عن استثارة القبلة، يمكن أن يعد نوعًا من التعويض عن الزنا أو بديلاً، ويصبح كما لو حقنا إنساناً بميكروب مخفف من مرض ما ليكون له حصانة في المرض نفسه، ولا يكون زنا إلا إذا وقع الزنا فعلاً.

إننا فيما ذهبنا إليه عن القبلات إنما كنا نستلهم نصًا قرآنيًا ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ (النجم: 32)، وقد قال المفسرون إن اللمم هو ما دون المحرم بالفعل، وأدخلوا فيها السرقة الأولى والزانية الأولى، جاء ذلك في الطبري والقرطبي وابن كثير، وأنا أورد هذا لا لأني أعتمد عليها ــ فرأيي في المفسرين معروف ــ ولكن لأن الناس عامة يؤمنون بما يضعه هؤلاء الأئمة الأعلام ويجلونهم إلى درجة التوثين، أما رأيي فهو ما أوضحته الآية أن اللمم هو ما دون كبائر الإثم والفواحش، وأن الله تعالى يتجاوزه ولا يعتبره من كبائر الإثم والفواحش وتقبله إما على أساس ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ (الأحقاف: 16)، وإما في إطار معالجة الإسلام للضعف البشـري الذي أشـرنا إليه آنفاً والذي نطلق عليـه المقاصة، ويقوم على المبدأ القرآني ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: 114)، وهذا المبدأ يخالف مبدأ سد الذريعة الذي ابتدعه الفقهاء وحاولوا به أن يضعوا المسلم داخل صوبة حتى لا يتسرب إليه الخطأ والذنب،

وكان هذا المبدأ وراء عدد كبير من التحريمات تحوطاً، ولأنها تؤدي إلى الذنب وهو المنطق الذي أخذ به الدكتور عبد الهادي مصباح.

نحن لا نخادع ولا نتجاهل ولا نفترض أن يكون المسلم ملاكاً، إنه يخطئ ويصيب ويعالج خطأه بما رسمه القرآن له.

عبر الدكتور عبد الهادي مصباح عن إنه «في غاية الاندهاش والتعجب مما قاله المفكر الإسلامي الكبير، فهل معنى تأخر سن الزواج وارتفاع تكاليفه، وانتشار البطالة أن يؤدي ذلك إلى تحليل الحرام وتبرير فعله» ؟ وأنا أقول له: إن الإسلام لا يحرم أمرًا إلا بعد أن يوجد الأوضاع التي تسمح بالتحريم، فإذا خولفت، فمن الطبيعي أن لا يمكن تطبيق التحريم، وقد قال الرسول: «إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة وفساد عريض»، وهذا أمر مهمل، ضُرب به عرض الحائط، فما من أب أو أم ترضى أن تزوج ابنتها ممن ليس لديه شقة أو من لا يدفع مهرًا، أو لا يقدم أثاثًا.. الخ، فماذا ينتظر الدكتور عبد الهادي إلا « الفتنة.. والفساد العريض » إن ميزان التشريع يختل إذا أريد تطبيقه مع عدم تحقيق ما فرضه من أوضاع.

* * *

ودخلت الميدان صحفية مغمورة في جريدة الأهرام ركبت الموجة ونهجت نهج الصحفيين الذين يعمدون إلى السخرية، فكتبت في جريدة الأهرام (9/3/2008):

بعد إرضاع الكبير.. (القبلة) حلال لغير المتزوجين

بعد أن هدأت عاصفة فتوى إرضاع الكبير، خرج علينا "المفكر الإسلامي" جمال البنا ليضيف عربة جديدة إلى قطار الفتاوى المندفع بلا هوادة، ليبيح للشباب والفتيات "القبلة" بشرط ألا يكونوا متزوجين !

مبررات البنا الضعف البشري وتزايد المؤثرات الخارجية وتأخر سن الزواج وارتفاع تكاليفه والبطالة، المهم أن الرجل الذي ترك كل هموم الأمة ولهث وراء إشباع شهوات الشباب اعتبر القبلات مجرد ذنوب صغيرة تمحوها الحسنات.

وفي الحقيقة غاب عن فتوى البنا، تحديد الحسنات التي يمكنها محو هذه الذنوب، وعدد القبلات المباحة، وهل تقدر بالألوف ؟ وأين تتم هذه الشعائر "الروحية" ؟

رحم الله الفنان بيرم التونسي، فلو كان بيننا لقال: يا أهل (الفتوى) دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله !!

ولم أرى أن كلمتها تستحق الرد، ولكنها عادت فكتبت في جريدة الأهرام يوم السبت (15/3/2008):

مفتي القبلات الحلال.. يبيح الرذيلة الأولى

بعد إباحته "القبلة" بين غير المتزوجين تمادى "المفكر الإسلامي" جمال البنا في فتاواه المثيرة مطمئناً من أن تنزلق قدماه إثر هذه القبلات ويقع في الزنا إلى أن هذه

الجريمة مغفورة بإذن الله مادامت أول مرة !.. إن "المسألة" هتعدي وربنا هيمشيها بنظام المقاصة !! وقال: إن الحسنات الكثيرة تذهب هذه السيئات مثل نظام البنوك ! وأضاف أن السرقة أول مرة أيضًا هتعدي !!.. ويبدو أن الذاكرة خانت البنا، فنسى المرأة التي زنت واعترفت للرسول، وأقام عليها الحد.. عمومًا.. ننتظر توضيحًا من البنا عن جريمة الزنا (المغفورة) وهل الأمر يخص غير المتزوجين كالقبلات أم متاح للجميع ؟

وعندئذ وجدت أن من الضروري أن أوقفها عند حدها وأن أوجهها فيما ليس لها علم به، فأرسلت الرد الآتي:

أقول لكاتبة «مفتي القبلات الحلال... يبيح الرذيلة الأولى»: «اقرئي ما كتبه الطبري وابن كثير والقرطبي وكل المفسرين في تفسير الآية ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (النجم: 32)، ففيها أكثر مما ذكرت. وهل تسخرين من قوله تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ؟ أو من الرسول ﷺ الذي جاءه رجل فقال له: (أصبت حدًا)، فصمت الرسول حتى قامت الصلاة، وبعدها أعاد الرجل كلمته، فقال له الرسول ﷺ: « ألم تصل معنا ؟ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ».

وأنصحك بأن تحسني القياس ولا تخلطي الجد بالهزل.. وأيضًا أن تعرفي أقدار الرجال وتحترمي القلم.. والأهرام.. والقراء».

والغريب أن الأهرام العريق الذي يفترض أن يكون عارفـًا بالأعراف الصحفية لم يقم بنشر الرد، أو يعتذر عن صحفيته المغمورة التي أساءت إليه ونزوله من مستواه العريق إلى مستوى صحف النميمة، وإن كان يبدو أنه استشعر الحرج الذي وضعته فيه، فلم نقرأ لها شيئاً بعد ذلك.

اشتعلت المعركة، وكان مجالها الرئيسي المدونات التي كشفت عن جهالة فاحشة وجرأة واستهتار وإسفاف، وعني أكثر من واحد بالتعرف على جمال البنا، وما إذا كان يسمح له بأن يقبل ابنته ! (بالمناسبة ليس لي أبناء).

إن في الابتذال مجالاً واسعًا للعامة والسوقة والجهلة لكي يقولوا ما يشاءون.. مما لا يكون مكانه إلا "سلة المهملات".

والغريب أنه لم يتصد أحد لمعالجة متأنية للمشكلة باستثناء مقال الدكتور عبد الهادي مصباح مع أن لها جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والحضارية، وليس الدين إلا أحد جوانبها.

هذا كله، مع أننا قلنا وأكدنا، إنه لو طبقنا حديث الرسول "إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" لانحسمت المشكلة.

وعندما عرضت تفسيرات المفسرين ــ الطبري وابن كثير والقرطبي حتى سيد قطب ــ وكيف أدخلت في اللمم القبلة والضمة وكل ما هو دون الزنا، وأن هذه الصور من الممارسات مما كتب على ابن آدم مدرك ذلك لا محالة، بل إن التفسيرات التي عرفت اللمم اعتبرت أن من اللمم الزنية الأولى والسرقة الأولى والشربة الأولى على أن يتوب ولا يعود، لم يعقب أحد على تفسيرات المفسرين، وهل يأخذون بها أو ينقدون مفسرين مثل الطبري وابن كثير.. الخ، حتى سيد قطب ؟

وبين المئات من رسالات السب واللعن، وقفت أمام رسالة جاءتني بالبريد الإليكتروني وسأثبتها هنا كما كتبتها وإن كنت سأحذف اسم مرسلتها حتى وإن كانت قد كتبت أمام Subject لعنة الله عليك، وقد بدأت بالسب وختمت بلعنة الله عليك، ولكن من الواضح أنها صادقة في انفعالاتها:

IceWarn Web Mail (Gamal albanna) – لعنة الله عليك – inbox   Page 1 of 1

From: nohaeltayeb@hotmail.com [+] Date: Tue, 1 Apr 2008 10:17:48=0000

To: <gamal_albanna@infinity.com.eg> [+]

Subject: لعنة الله عليك

قرأت فتواك التى لا ترى فيها مانعا من تقبيل النساء والرجال أو الفتيات والفتيان وتقول لا ما مانع وقد دخلت في علم غيب الله الذي لا يعلم الغيب سواه وقلت ان هذا من اللمم أي الذنوب الصغيرة !!!!!!!!

قمت بتطبيق فتواك قبل ان احكم عليك لانني كنت للاسف من معجبين كتاباتك قبل ان تشوه ديننا دين الحياء الذي ضربت به عرض الحائط

هل تعلم ماذا فعلت قمت بتقبيل احد الزملاء الذى لا يمانع ومن الفرحين بفتواك وتحديته ان هذا زنى باقته يوما وفى نيتى التقبيل لا الاحضان هل تعلم ماذا حدث كادت ان تحدث طامة ولك وزرها ووزر اللمم الذي حصل قبلنا بعضنا في خدودنا ولمس خده خدى الناعم وطبعا اكيييييييييييييد شم رائحتى الغير نفازة وماذا حدث عندما يشم احدهم رائحة المراة او الفتاة ؟ هل عندك فكرة عن الهرمون الذى يزيد عند المرأة والرجل تصديقا لحديث للرسول الكريم عليه افضل صلوات الله وسلامه شعرت بالرغبة في عيونه ولا اخفيك عن رغبتي ايضا فكان ان قال لي لعن الله جمال البنا فما فعله اكبر من ما فعله الدنماركيون بالاسلام كدت ان اقع في المحظور رغم اننا من بعيد لبعيد ونحن اصلا لا نحب بعضننا فما بالك بمن هم كذلك ؟؟؟؟؟؟؟؟؟

اضحكت فينا غير المسلمين لان حجتنا هى ان ديننا هو دين الحياء اصلا بالله عليك اين الحياء في فتواك واذا كان هناك لغط فى حرمة المصافحة فتقول التقبيل ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

حتى لو راجعت نفسك في فتواك الغريبة فقد سننت سنة ولك وزر من عمل بها مثلها مثل فتوى الرضاع ؟

أنصح غير المتزوجين بالباءة والصوم والصلاة والاستمتاع بتقوى الله في هذا الجهاد ولا تنصحهم بالتقبيل (ام هل تفتى بالتقبيل مع اغلاق الاعين) حث الشباب على غض النظر وان لا يغلو في المهور وان يرضوا بمن يرضون دينه الا تكون فتنة في الارض وفساد كبير ؟

اتق الله ماذا فعلت
ماذا فعلت بنا
بالاسلام
لعنة الله عليك

لم أكن أعلم أن الفتاة المصرية بهذه الهشاشة، ولعل الكبت، وحظر الاختلاط، والتزمت الديني، وما غرسوه في ذهنها من أفكار أدت إلى هذه النتيجة.

على أني قلت: إن مثل هذه القبلات لا تـُـتبادل في خلوة، أو بين جدران مغلقة، ولكن في نادٍ، أو خلال حفلة، أو نزهة في مكان عام، وبالطبع فهناك اختلاف كبير في طبيعة القبلة التي يمارسها الزوج مع زوجته في غرفة النوم تمهيدًا للمخالطة الجنسية، وبين القبلة الحرة الطبيعية التلقائية التي يدفع إليها الحب العذري والتي تكون تعبيرًا عن الحب وليس تنفيسًا لشهوة.

وفي نظري أن حالة صاحبة الرسالة إذا كانت تشف عن شيء فهو ضعف الشخصية، وتهاوي الإرادة نتيجة للتربية المنزلية وللتربية في المدرسة، والنفاق في المجتمع، فكلها لا تنمي الشخصية، ولا تهيئ أبناءها ذكورًا وإناثـًا لتحمل المسئولية، مما تجعله ينهار أمام أول امتحان، ليس في الناحية الجنسية فحسب، ولكن أمام كل تحديات الحياة والمجتمع، وعلى نقيض ما تصورت مرسلة الرسالة، فالحل ليس هو الحياء، ولكن المجابهة الحرة القوية للتحديات سواء كان برفض التقبيل أو بالحيلولة دون أن يزلزل نفسيتها، إن الحياء جزء من تكوين المرأة المسلمة، وهو الذي يحول دون ارتكابها الزنا، ولكنه لا يستطيع أن يقف أمام اللمم، الذي قال عنه الرسول: (إن الإنسان مدرك ذلك لا محالة)، ولأنه رد فعل (وليس فعلاً) لفعل سيء هو تعنت الأمهات والآباء، ولابد لكل فعل من رد فعل يحدث ذلك لا محالة، ويكون التصرف إزاءه هو ما عرضناه عند معالجة القضية.

* * *

القسم الثاني

من هو جمال البنا ؟

وما هي دعوة الإحياءالإسلامي ؟

أضواء على فكر جمال البنا

ألف الناس أن يكون من يتصدى للحديث عن الإسلام شيخًا وقورًا يضع على رأسه (عمامة) إذا كان مصريًا أو (غطرة) إذا كان سعوديًا، ويتشح بجبة أو عباءة، ويحمل جبينه (زبيبة الصلاة)، ويمسك في يده سبحة، ويبدأ حديثه بالبسملة والصلاة على الرسول ﷺ وجمل أخرى طويلة، لهذا كان ظهور جمال البنا في هذا المجال صدمة للبعض، وأمرًا غير مفهوم للآخرين، فهو حليق، عاري الرأس، لا يحمل جبينه زبيبة الصلاة، ولا يمسك في يده سبحة، ولا يبدأ حديثه بتلك الجمل الطويلة الممطوطة المألوفة، وهو لا يلبس جبة كالشيوخ، ولا بدلة كسائر الناس، ولكنه يلبس زيًا موحدًا فريدًا، ولم تطأ قدمه الأزهر.

لم يُعن جمال البنا بالشهرة، وكان يعمل وحيدًا بعيدًا عن الأضواء، كما أنه لم يشغل منصبًا هامًا ووظيفة بارزة، ولم يذكر اسمه بالصحف أو الإذاعة.. الخ، وبدا لهم كما لو أنه سقط عليهم من السماء أو انشقت عنه الأرض، فلم يكن غريبًا أن ينعكس ذلك على شعور الناس نحوه، وتجلى هذا في التخبطات التي أحاطت به رجمًا بالغيب ما بين أنه شاب غرير، وشيخ مخرف، وأنه علماني، وأنه هاو شهرة، ويثير بلبلة.. الخ، وكتب إليه أحدهم في البريد الإليكتروني، قبل أن تتحدث في الدين: (ربي ذقنك).

لقد قرر جمال البنا عندما لمس هذه الآثار السيئة على الدعوة التي ينادي بها أن يُعرف الجمهور عليه، وإن كان قد آثر أن يتحدث بضمير الغائب لا بضمير المتكلم لأنه كما قال: (إن طبعي ينفر من الحديث عن نفسي، بل إنه يستعصى عليَّ، ولأن القضية أصلاً قضية موضوعية والحديث عن النفس لابد وأن يلقي ظلالاً ذاتية عليه، ولأن الكتابة بضمير الغائب تطلق المجال لدي القارئ في حين أن الحديث بضمير المتكلم يغلق الباب).

* * *

[1]
جذر إسلامي متميز

ولد جمال البنا في أسرة مسلمة، كان الإسلام هو القضية المحورية في الفردين النابغين فيها ألا وهما رأس هذه الأسرة الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا وابنه البكر الإمام الشهيد حسن البنا.

وهذا العمل الإسلامي كان له طابع خاص اكتسبه من طبيعة وشخصية هذين اللذين توافر لهما عاملان استثنائيان، الأول: علو الهمـة، والثاني: قوة الإرادة، فعندما بدأ الشيخ أحمد عبد الرحمن مشروعه الفكري العظيم عن تصنيف وشرح مسند الإمام أحمد بن حنبل ما كان أحد من الأئمة الأعلام قد فكر في ذلك منذ أن وضع الإمام أحمد ابن حنبل مسنده حتى ألف عام، أي من القرن الثالث الهجري حتى القرن الثالث عشر الذي بدأ فيه الشيخ البنا مشروعه، ولكي نفهم ما هو هذا العمل نقول إن الإمام أحمد بن حنبل هو إمام الأئمة في الحديث النبوي، وقد ضم في مسنده قرابة ثلاثين ألف حديث مما لم يكن واردًا وقتئذ في أي مرجع آخر، ولكن هذه الأحاديث لم تكن مرتبة على أساس الموضوعات الفقهية ولكن على أساس المسانيد، فكل الأحاديث التي روتها السيدة عائشة مثلاً في باب، وكل الأحاديث التي رواها عبد الله بن عمر بن الخطاب في باب آخر وهلم جرا،ولا يلحظ موضوع الحديث فيذكر حديثـًا عن الصلاة يتلوه حديث عن غزوة بدر ثم حديث عن مناسك الحج.. الخ، وعطلت هذه الواقعة الاستفادة من المسند كمرجع فقهي، ولم يفكر أحد خلال الألف عام القيام بذلك، وحاول ابن كثير وقال "مازلت أنظر فيه والسراج ينونص حتى كـُـف بصري"، وليس لدينا شيء عما عمله ابن كثير، وقد قام الشيخ أحمد البنا بذلك فصنفه أبدع تصنيف على أساس كتب ثم أبواب ثم فصول تبعًا لأبواب الفقه، ثم لم يقنع بهذا، بل وضع شرحًا له يعادل المتن بأسلوب سائغ تناول فيه السند وغريب الألفـاظ، والتخريج، وهو أهم شيء في الحديث لأنه يعني درجة الحديث، وهل هو صحيح ؟ فيعـد مرجعًا يؤخذ منه الحكم، أو ضعيف ويذكر أحكام الباب في المذاهب الأربعة وغيرها.. الخ، واستغرق هذا منه خمسة وثلاثين عامًا هي سحابة النصف الأول من القرن العشرين.

يماثل هذا العمل العظيم الفريد العمل الذي قام به الابن البكر الإمام حسن البنا، إن تكوين الإخوان المسلمين في عشرين عامًا كان معجزة، وكان دليل عبقرية منشئها لأن هذه الهيئة صمدت أمام عداوة حكام مصر من الملك فاروق حتى جمال عبد الناصر حتى السادات حتى مبارك، وبقيت وذهب هؤلاء.

وهذا هو ما نعنيه بعلو الهمة فلم يتصديا لأمر صغير، ولا لقضية سبقت معالجتها، ولا لأمر يحقق كسبًا شخصيًا، سواء كان مالاً أو منصبًا أو شهرة، كان العمل عظيمًا وجديدًا أصيلاً، وكان له دوره الضخم ولم يقترن هذا بأي كسب مادي.

أما عن قوة الإرادة، فذلك لأن كل واحد منهما كان يبدو آخر من يمكن أن يقوم بذلك، فلم يكن لدي أي منهما عندما بدأ عمله الشهرة أو المكانة أو الجاه أو المال، ولم يطأ أحد منهما الأزهر، فضلاً عن أن يتخرج منه ويرزق معونته، إن الأزهر يخرج سنويًا عشرات الألوف من العلماء دون أن يفكر واحد منهم في مثل ما قام به الشيخ البنا، بل إن الأزهر نفسه بقضه وقضيضه كان يعجز عن هذا الإنجاز العظيم، وبالمثل فما أكثر معلمي اللغة العربية في المدارس الابتدائية، فهل كان يتصور أن أحد هؤلاء المعلمين ــ وفي غير القاهرة ــ يمكن أن يؤسس الإخوان المسلمين.

كان الشيخ البنا عندما بدأ مشروعه ريفيًا ترك القرية بعد أن حفظ القرآن في الكُـتَّاب ثم ذهب إلى الإسكندرية ليشترك في دراسات إسلامية حرة كانت تلقى في جامع القائد إبراهيم حتى ألم بمفاتيح المعرفة الإسلامية، ولم يتمكن أو يتعمق أو يواصل الدراسة، وكان يمكن أن يستصغر ما حصل عليه أمام ما أراد الوصول إليه، وبعد هذا كله، فإنه لكي يضمن عيشه احترف إصلاح الساعات التي كان يمارسها كنوع من الترويح بعد مواصلة القراءة والكتابة.

وتصوروا معي الموقف عندما عقد العزم على هذا العمل العظيم، فقد كان واضحًا أنه سيأخذ عشرين أو ثلاثين سنة (وعمليًا شغله 35 سنة)، فكيف يبدأ مشروعًا يرتهن ثلاثين عامًا من عمره ؟ ثم لو فرضنا أنه أتمه، فماذا يفعل به وهو رجل مجهول يعيش في أحد أزقة القاهرة، ولا علاقة له بالأزهر ولم يدخله يومًا، ولم يعن بأن تكون له صداقات أو علاقات بهذه المؤسسة التي تمثل الإسلام أو غيرها، هذا أمر لم يكن متصورًا، ولكن الشيخ البنا فعله، بل قام بطبعه أيضًا فطبع 22 جزءًا، وهو الرجل الفقير الذي يعول أسرة كبيرة، ولا علاقة له بعالم الطبع والنشر، هنا تظهر قوة الإرادة، وقهر كل عقبة، لقد اشترى عددًا من الحروف يكفي ملزمة أو اثنتين وشغَّــل عاملاً ماهرًا في جمع الملزمة ثم يرسلها إلى مطبعة قريبة فتطبعها، ويستمر هذا حتى يتم الجزء الأول ويبدأ في الجزء الثاني حتى وصل إلى منتصف الجزء الثاني والعشرين، ولأنه لا يعرف الناشرين ويرى أنهم "لصوص" فإنه كان يحتفظ بما يطبع في مخزن مكتبه، وكان دورًا أرضيًا فسيحًا في بيت قديم في حارة الرسام التي تتفرع من شارع المعـز لدين الله وعلى رأسها جامـع الفكهاني، ولا يبيع إلا من يأتي لطلبه

بعد أن تعرف عليه البعض، وعندما توفي فإنه ترك لورثته مخزنـًا مملوءًا بـ "الفتح الرباني" من الجزء الأول حتى الجزء الثاني والعشرين.

عمل مستحيل بكل المعايير، لا يمكن أن ينهض به فرد مهما كانت إمكاناته، ولكن الشيخ البنا أتمه بالفعل، وهذا هو ما نسميه "علو الهمة وقوة الإرادة"، فما كان له أن يسمو إلى مثل هذا العمل، ولا أن يتغلب على عقبات إظهاره إلا إذا كان الله تعالى قد أنعم عليه بنصيب وافر من هذين "علو الهمة وقوة الإرادة".

ونتيجة لهذا اتسم عمله بطابع من الأصالة والإبداع والعصامية والتميز.

وهذه الصفات أيضًا هي ما اتسم به عمل حسن البنا، فقبل حسن البنا كانت الدعوة الإسلامية تأخذ شكل جمعيات خيرية محلية تقوم على الوعظ والإرشاد، كل واحدة في حالها، منقطعة عن الأخريات حتى ظهر حسن البنا، كانت "الإخوان المسلمين" التي أسسها حسن البنا سنة 1928 في الإسماعيلية من ستة من عمال القناة اختارهم من المقهى وليس من المسجد، ولكن الغريب والذي ما كان متصورًا أن هذه النبتة الوهنانة ظهرت في القاهرة بعد عشرين عامًا كهيئة دولية لها في مصر 500 شعبة، ولها فروع في العالم الإسلامي وينتمي لها خمسمائة ألف، وضم التجديد الذي جاء به حسن البنا أمرين:

الأول: تنظيمي وهو نقلها من المحلية إلى العالمية، وتكوين الهيئة "القياسية" للدعوة الإسلامية، وكان عمله هذا يشبه عمل روكفلر في أمريكا عندما كون شركة "استاندرد أويل"، أي الشركة القياسية التي صارت موازينها وتكريرها.. الخ، هي السائدة في صناعة الزيت، أو لينين الذي وضع أساس الحزب البلشفي الذي يكون "طليعـة" للطبقة العاملة وأصبح هو الأساس الذي تحتـذيه بقية الأحزاب، إن هيئة الإخوان المسلمين التي كونها حسن البنا سنة 1928 والتي بلغت أوجها ما بين 1946 ــ 1948، كانت هي الهيئة القياسية التي نسجت على منوالها كل هيئات الدعوة في العالم الإسلامي، وترك حسن البنا بصمته على الدعوة الإسلامية في العصر الحديث.

والثاني: الذي يماثل الإعجاز التنظيمي هو فكرة "**الإسلام كمنهج حياة**"، فالإسلام في مصر الليبرالية كان منزويًا في ركن قصي من أركانها، وكانت المادة التي تنص على أن الإسلام دين الدولة والعربية لغتها هي إحدى المواد الأخيرة في الدستور، ولم يكن يُعنى بالشأن الديني إلا أئمة المساجد ووعاظ وزارة الأوقاف، وقد عاش جمال البنا في طفولته الفترة التي كان إمام المسجد يصعد وفي يده سيف من خشب ويتلو خطبته من إحدى الأوراق الصفراء، كما عاش ورأى الخمور تباع عند البقالين، ودعارة منظمة تشرف عليها الدولة، واقتصاد يحكمه الأجانب.

جاء حسن البنا فغرس الإسلام في صدارة المجتمع وأوجد من شباب الجامعة من يخطب ارتجالاً فلا يتلعثم ولا يخطئ في شعر أو آية، بل ينطلق.

هؤلاء هم أبناء حسن البنا صنعهم على يديه، وزودهم بعلمه وإيمانه وإخلاصه، وصلى بهم صلوات طويلة مغرب الخميس وعشاءه وفجر الجمعة في الخلاء، يتلو فيها القرآن مسترسلاً، حيًا، كأنما أنزل لتوه.

كان الإسلام لدي الشيخ أحمد البنا ولدي الأستاذ حسن البنا شيئاً غير الإسلام الشائع، والمنتشر، والذي يدعو له الأزهـر، ألا وهو إسلام المذاهب، وكانت الخلافات المذهبية تفرق وحـدة المسلمين في البلد الواحد والمسجد الواحد، فكانت تقام أكثر من صلاة جمعة تبعًا للمذاهب المختلفة، ولم يكن للإسلام دور في الحياة العامة، وفي عالم الدنيا وما يموج به من أحداث سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، فأضفى كل منهما من فهمه للإسلام صفة الموضوعية، والأصالة، وإغفال الاختلافات المذهبية الصغيرة، وإعمال العقل والفكر، وكان عمل الشيخ أحمد وعمل الأستاذ حسن واحدًا على الأقل من ناحية إغفال المذهبيات والأخذ بالسُـنة، وكان فقه السُـنة الذي دفع الشيخ حسن البنا الشيخ سيد سابق بتأليفه هو ملخص لعمل الشيخ الوالد "الفتح الرباني" كانا معًا يريدان للأمة أن تسير مع الرسول ﷺ، وليس مع الفقهاء.

* * *

[2]
العلاقة الحميمة بين جمال البنا ووالده وشقيقه

قد يقول قائل: ما العلاقة ما بين عمل الشيخ أحمد البنا والإمام الشهيد من ناحية، وجمال البنا من ناحية أخرى ؟

ما يجهله الكثيرون أن العلاقة ما بين جمال البنا ووالده وشقيقه الأكبر كانت وثيقة، حميمة، وكانت أكبر من علاقة بقية الإخوة بهما، وهذا يعود إلى أنه ــ لأسباب سنذكرها فيما بعد ــ كان قد رفض الحياة "البورجوازية" المألوفة التي كانت تبدأ بدخول الجامعة، فالانخراط في وظيفة يتلوها الزواج وتكوين أسرة مستقلة، وهذا هو ما فعله أشقاء جمال البنا وحال دون اتصالهم بالأب والشقيق، أما جمال البنا فقد كان متفرغًا، وكان لديه وقت طويل يقضيه معهما، وكانا هما في حاجة إليه لإنهاء بعض أعمالهما، ولعلهما آنسا في طبعه الهادئ والمتمرد معًا شيئـًا يقربه إليهما، ومن ثم نشأت العلاقة المتميزة الطويلة، وكانت نقطة إعجاب جمال البنا بوالده وشقيقه هي "رسالية" هذين الرجلين، وإخضاعهما كل ما في حياتهما لها، وكان هو نفسه لديه هذه الطبيعة المضمرة رغم الاختلاف الذي كان يعود إلى وجود مؤثرات عديدة عليه لم يتعرضا لها وغلب عليهم جميعًا العامل المشترك ــ الرسالية ــ على الاختلاف في مادة ومضمون هذه الرسالية، ومن ثم كان البعد والقرب، الائتلاف والاختلاف حتى نهاية حياتهما.

حفظ جمال البنا عهد والده وشقيقه وعمل لتخليد ذكراهما عندما أصدر كتابه "خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه"، فقد رأي قرابة عشرة خطابات أرسلها حسن البنا إلى والده يبدأ أولاها سنة 1926 ـ أي قبل التخرج ـ وآخرها سنة 1945، وهي خطابات شخصية جدًا تضم فيما تضمه زيارات لأقارب كلفه بها الوالد، أو تقاضي إيجار الدكان والبيت.. الخ، ولكن جمال البنا وجد فيها شيئـًا يستحق أن ينشر ويعلن، وقدم لهذه الحكايات بمقدمة طويلة، وببعض ملاحظات على كل منها، خاصة وقد كان فيها إشارات إليه، على أن الخطابات والتعليقات عليها ليست إلا النصف الثاني من الكتاب، أما النصف الأول فخصصه لترجمة حياة والده وقصة إصداره المسند، وما تعرض له خلالها من معوقات وصعوبات، وهذا القسم هو الوحيد الذي كتب عن الشيخ، كما أن القسم الخاص بخطابات حسن البنا هو الوحيد من نوعه.

وأصدر جمال البنا كتابًا بعنوان "ما بعد الإخوان المسلمين" عرض فيه لعمل حسن البنا، ودوره التاريخي ومواقفه وسياساته التي لا يمكن أن تفهم على حقيقتها إلا في ضوء ما بينه من ملابسات، ودافع عنه وبرأه مما يرميه به البعض ممن لا يلم بما ألم به جمال البنا.

علاقة جمال بوالده:

كان جمال البنا آخر العنقود من الذكور، ولم يولد من أشقائه بعده إلا فوزية، وفي هذا الوقت كانت الأسرة قد انتقلت من المحمودية الجميلة، المريحة، الواسعة، ذات النجيل الممتد والنهر الفسيح كالبحر (لأنه بمقربة من المصب) والشمس الساطعة والسماء الصافية إلى أزقة القاهرة التي لا تدخل بيوتها الشمس او النور، وإنما الرطوبة والبرد، وكان جمال هو نهاية مسيرة الأم في الولادة المجهدة، ورعاية أسرة كبيرة ترك لها ربها كل شيء وتفرغ للكتابة، وعندما ولد كان ضعيفـًا ضاويًا نحيفـًا يسير بخطى متثاقلة، ولم يكن يستطيع أن يلعب ويرتع، فلا المكان/الحارة تسمح، ولا الصحة تمكنه، وكان في الزقاق أطفال أقوى بنيه وأشد باسًا، فانطوى على نفسه، وحتى الآن فإنه لا يستطيع أن يركب عجلة، وكان المتنفس الوحيد له هو القراءة، فلم يكد "يفك" الخط حتى بدأ يقرأ وكان والده يأخذه معه وهو طفل صغير إلى مكتبه، ويعكف هو على كتاباته ويدع ابنه الطفل في الصالة الخلفية للمكتب، وكانت حافلة بالمجلات والصحف فكان يقلب فيها ويقرأها، وكانت هناك "اللطائف المصورة" الجريدة الأولى التي طبعت بالروتغرافور، وكانت وفدية ومصورة، وقرأ بها قصصًا طويلة عن "زغاليل مصر"، وعن "الشبح الأسود"، كما كان هناك أعداد من مجلة "الأمل" التي أصدرتها منيرة ثابت وهي شابة ناهضة كانت أول من دعا إلى منح المرأة حق الترشيح لمجلس النواب، ولازال حتى الآن يذكر البيتين اللتين كتبا تحت اسمها العريض "الأمل" وهما:

أمل ألقيه في الوادي الخصيب   وبـــذور في ثـــراه لا تخيب

وقرأ فيها رواية عن "قمر بني إسرائيل" تصور مصر في عهــد ظهور موسى، وهناك كتابات سياسية "حنانيك يا نشأت"، ولعلها المرة الأولى التي استخدم فيها هذا التعبير.

وكانت جريدة الأهرام تطبع في كل عدد في آخر إحدى صفحاتها رواية مسلسلة مترجمة من كتاب أو مؤلفين لعل اسم أحدهم شارلس جارفس أو شيء كهذا، وكان الشيخ الوالد يقص مكان الرواية المنشورة من الصحف ثم يرتبها ويجلدها.

وللسائل أن يسأل ما هي علاقة الشيخ البنا ذلك الريفي القادم من القرية، والذي نصب نفسه وحياته لتصنيف مسند أحمد بن حنبل وهذه الصحف ؟ وكيف يحتفي بهذه الروايات ويجلدها ؟ هذا هو أحد أسرار هذه الشخصية الفريدة، وهي سر تأسيس ثقافي مدني وأسلوب حر سبق مرحلة المسند، وأن هذا التأسيس هو الذي أعطاه السلاسة في شرح الأحكام النبوية والفقهية والبعد عن "شنشنة" الفقهاء، فضلاً عن سعة الأفق وانفتاح الرؤية.

ومن هذه الأيام الأولى، أيام طفولة جمال البنا في مكتبة والده حتى وفاته، وكانت العلاقة متصلة، وكان الشيخ يحب آخر أبنائه من الذكور والإناث جمال وفوزية، وقد أطلق على جمال هذا الاسم تيمنـًا بجمال الأفغاني، بل لقد أوحى إليه أنه هو الأفغاني، وكان جمال الطفل عندما يُسأل عن اسمه يقول: "جمال الأفغاني"، وكان جمال البنا يزور الشيخ ويجلس معا ليؤنس وحدته، وفي الأيام الأخيرة عندما وهنت صحته كان يصاحبه، فقد كان هو دون إخوته متفرغًا لم يرتبط بوظيفة، ولم يكن متزوجًا وله أولاد، وكان يعيش في بيت الأسرة، وهذه كلها ما كانت لتتوافر في بقية إخوته، وعندما مرض مرضه الأخير فإنه انتقل إلى شقة ابنه الأستاذ عبد الرحمن بالحلمية الجديدة ليتمكن الأطباء من زيارته بسهولة، واصطحب معه كتبه وبعض مراجعه، وأدلى إلى جمال البنا بطريقة إتمام المسند ونصحه بالعودة لكتاب "البداية والنهاية" لابن كثير لأن الجزء 22 عن التاريخ، وهذا الكتاب يعرض الوقائع التاريخية مع ذكر سندها.

لما مات الشيخ آلت مفاتيح مكتبته إلى جمال البنا وظل جمال البنا محتفظاً بالمكتب، يدفع إيجاره، وفي الوقت نفسه يبيع الأجزاء المطلوبة ولكن عدم تعهده أدى لأن تزحف الرطوبة على كثير من مقتنياته من الجرائد والمجلات، وكان لدي الشيخ البنا مجموعة من أعداد جريدة "الإخوان المسلمين" اليومية، ذهبت بها الرطوبة، كما ظلت مكتبة الشيخ مصونة كما تركها، ولكن بعض الأيدي عبثت ببعض كتبها، وظل الأمر كذلك حتى صدر قرار بهدم البيت ومن حسن الحظ أن جمال البنا كان قد توصل إلى شقة واسعة، فنقل فيها كل ما أمكن استنقاذه سواء من مكتبة الشيخ أو من أوراقه الخاصة أو من بقايا الجرائد والكتب ولا تزال حتى الآن، واستطاعت الأسرة أن

تواصل الطبع حتى أصبح في أربعة وعشرين جزءًا، وكانت نفقة هذا الطبع تقدم من بيع نسخ الكتاب، وكما قلنا فإن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان يخزنها ولما ضاق مخزنه، وقد كان فسيحًا أقام "صندرة"، وكان الشخص الوحيد المتفرغ من الأسرة للإشراف على الطبع واستكمال الشرح الذي كان الشيخ يقدمه للمطبعة أولاً بأول، هو جمال البنا، ولا تزال تزين مكتبه بمجلداتها الشاهقة، بالإضافة إلى مسودات الفتح الرباني وبقية الكتب التي ألفها وبعض فصول من كتب لم يتمها.

ويمكن إجمال تأثير الشيخ الوالد على ابنه جمال في:

أولاً: قد يظن أن الشيخ البنا كان سلفيًا بالمعنى العام، ولكنه لم يكن كذلك، ولم يؤمن بالتقليد وضرورة اتباع أحد المذاهب الأربعة، كان "سُـنيًا" يعمل فوق مستوى المذهبية ويريد العودة إلى فقه السُـنة، وليس فقه المذاهب، من هنا كان فيما عمله قدر من التجديد.

ثانيًا: كانت عصامية الشيخ مصدر إلهام داخلي تلاقي مع هذا العنصر في حياة جمال البنا وشجعه على اطراح التعليم الجامعي ورفض السير في التيار البورجوازي المقرر، فها هو ذا رجل لم يدخل الأزهر، ومع هذا أدى للإسلام ما عجز عنه الأئمة الأعلام لمدة ألف عام، وكان من أكبر عوامل الاتفاق أن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان "كاتبًا"، أي أن مجال بطولته وكفاحه ورساليته كانت الكلمة المطبوعة، وليس التنظيم ولا التنظير، وكان جمال البنا يتوق إلى أن يكون كاتبًا، وأن يجعل من الكلمة المكتوبة أداة كفاحه ودعوته وشجعته حياة الوالد على انتهاج هذا السبيل، ومن ثم فإن أثره في هذه الناحية يفوق أثر شقيقه الأكبر عليه، ولكن تخصص جمال البنا في الكتابة وتضلعه منها كان على حساب مقدرته كخطيب أو محاور تليفزيوني، لأنه لم يؤت الحفظ، والبداهة، والقبول، والدراية، ولذلك كانت مقابلاته التليفزيونية أدنى بكثير من كتابته ومن يحب أن يرى جمال البنا على أحسنه فإنه يشاهده عبر سطور كتاباته مثل "ظهور وسقوط جمهورية فايمار"، و"روح الإسلام" و"هل يمكن تطبيق الشريعة" و"تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي"، أو "الحركة العمالية الدولية" أو المعارضة العمالية العمالية في عهد لينين"، أو حتى مقالاته في جريدى "المصري اليوم" كل يوم أربعاء.. الخ، ففيها وغيرها تتجلى أصالة وإبداع جمال البنا ومقدرته الخاصة في أناقة الأسلوب وغزارة المادة، ولما كان شعبنا متفرجًا وليس قارئـًا، فلعل جمال البنا خسر في هذه المعادلة، وكان يقول إن أزمته هي أنه كاتب في شعب لا يقرأ ولكن هذا إنما كان في العاجلة، أما الكتاب فإنه يخلد للأجيال ويعنى به قراء بعد أن يموت الذين يعلقون عيونهم بالتليفزيون، فيغلب أنه لم يخسر، وقد تقبل هذه الحقيقة.

ثالثاً: كان من عناصر عصامية الشيخ عدم حرصه على عقد الصلات مع مجتمعه، أو الانخراط في سلك الوظائف، وانصرافه التام عن الدنيا، حتى ما كان يتعلق بالإخوان المسلمين عندما أصبحت أقوى وأكبر الهيئات في المجتمع المصري، وأصبح ابنــه هو المرشد العـام لها، فإنه لم يحفل عمليًا، ولم يدخل مركز الإخوان المسلمين إلا مرات معدودة، كان عمله يقوم على الإيمان بنفسه الذي يغنيه عن التقيد بالمجتمع، وهذا العنصر كان له عرق في نفسية جمال البنا.

رابعًا: أن علو همة الشيخ التي تجلت في توليه طبع 22 جزءًا من المسند (بالإضافة إلى عملين آخرين هما مسند الشافعي ومسند أبي داود الطيالسي) رغم فاقته وأنه كان يعيش من اليد للفم، وكان توفير ورق كل جزء هو الهم المقعد له، وكان يقول إن الله لن يخذله، إنه لم يدع هذه العقبات توقفه، وتغلب عليها، وقد احتذى جمال البنا حذوه في طبع كتبه بنفسه، بل وتكوين شركة توزيع خاصة به حتى يتحرر من التبعية للناشرين.

خامسًا: كان الشيخ يواصل العمل دون تعب أو ملل من الصباح الباكر في مكتبه، وهو الدور الأرضي من منزل قديم ولم يكن يترك المكتب إلا لأداء الصلاة في جامع الفكهاني على رأس الحارة، وكان يرسل إليه غذاءه فيتناوله وقد يستريح قليلاً على كنبة في المكتب ويواصل العمل حتى الساعة الحادية عشر مساء، كل هذه المدة جالسًا على مكتبه، وراءه وأمامه المراجع يستخدم "التزكة" الصغيرة التي كان يصلح عليها الساعات في شبابه مكتبًا، لم تكن الشمس تدخل المكتب إلا لمامًا، ولم يكن لديه أي أداة تسلية، وكنا نقدم إليه الصحف لنجدها بعد أسبوع كما هي، هذا الجلد والدأب يستحق الإعجاب، وما أكثر ما كان جمال البنا يقول لنفسه: كان الوالد أفضل مني فقد كان يعمل حتى الساعة 30ر11 ليلاً في حين أنهي عملي المسائي في العاشرة.

سادسًا: زهــده في الظواهر، وتقشـفه واقتصاره على الضرورات، فلم يكن عنده "ثلاجة" ولا تكييف، وفي الأيام الأخيرة اقتنى مروحة مزعجة، وبالطبع لم يكن له رصيد في البنك، ولعله عندما جاء إلى القاهرة أول مرة زار الأهرام ــ وهو أمر لا يمكن القطع به ــ أما ما يمكن القطع به فهو أنه لم يدخل في حياته سينما، ولم يكن يزور أحد إلا لمامًا، ولكن كان يزار خاصة في الفترة الأخيرة من بعض عارفي فضله وكان يسر بهم لأنهم يغيرون النظام الرتيب الذي لا يرى فيه إلا الصفحات، ولأنهم أيضًا كانوا يشعرونه التقدير الذي حرمه، لأنه هو نفسه لم يسع إليه.

ومما يثير الفكر إنه وقد انتقل إلى القاهرة سنة 1924 لم يفكر في شراء بيت مع أن البيوت الصغيرة كانت متاحة "بتراب الفلوس"، وكان كل ما توصلت إليه الأسرة هو شراء "مقبرة" عندما مات طفل صغير للإمام حسن البنا، وهذه المقبرة ما

بين الإمام الشافعي والبساتين، هي التي فيها دفن الشيخ الوالد والوالدة والإمام حسن البنا.

* * *

[3]
علاقة جمال البنا بشقيقه الأكبر

كانت علاقة جمال البنا بشقيقه الأكبر علاقة متميزة كانت حميمة فيها شجو وشجا و"جدلية" نشأت من اختلاف الطبائع اختلافـًا كان اجتماعه يمثل تكاملاً، كان حسن البنا هو البكر الذي استمتع بحب والدته وصدرها وعنايتها قبل أن يأتي مزاحم آخر، وكان جمال البنا هو الأخير وجاء حمله بعد أن أنجبت والدته خمسة فلم يعد فيها مكان له إلا ما سمحت به الضرورات، وأمضى حسن البنا طفولة سعيدة في المحمودية يجري ويرتع فوق الشجر الأخضر الممتد وتحت سمائها الصافية وشمسها الدافئة وبجوار النيل الممتد واسعًا كالبحر، بينما جاءت طفولة جمال البنا في حواري القاهرة وأزقتها حيث لا هواء ولا شمس ولا فضاء، وكان حسن البنا يتمتع بصحة جيدة نتيجة نشأته وحياته، بينما كان جمال البنا ضاوي الجسم نحيف البنية، وبدأ يضع نظارات عندما كان في المدرسة الابتدائية، بينما لم يضع حسن البنا نظارات رغم أنه كان قارئـًا نهمًا، كانت الصفة البارزة في حسن البنا "التنظيم"، وكانت في جمال البنا "التنظير" من أجل هذا كان حسن البنا منظمًا عبقريًا أقام صرحًا ممردًا هو "الإخوان المسلمين"، بينما كان جمال البنا منظمًا فاشلاً أقام حزبًا صغيرًا من بضعة من العمال والطلبة لم يستمر سوى عامين، كان خط دعوة حسن البنا واضحًا محددًا، ومستقيمًا يسير من ميلاده حتى استشهاده دون أمت أو انحراف، بينما كان طريق جمال البنا طويلاً وشاقـًا، وانطبق عليه المثل "بالسير الطويل عرفنا الطريق القصير"، وبينما كان حسن البنا قد وصل إلى القمة كان جمال البنا يبدأ الخطو.

كان حسن البنا يدرك بحاسته أن في أخيه تميز "الرسالية" الذي توافر فيه كما توافر للوالد، وكان هذا سر تقريبه رغم الاختلاف، أو كأنما كان يقرب جمال البنا مثلما يحب شاب أشقر فتاة سمراء، فالاختلاف أدى إلى الترابط لا إلى التنافر، وكان حسن البنا بفضل ما أشرنا إليه من ملابسات هو صاحب الاتجاه الإيجابي، بينما انحصر دور جمال البنا ما بين الرفض والقبــول، التقارب والتباعــد، وقد لمح حســن البنا لشقيقه الصغير برغبته في أن يعمل جنبه في مناسبتين: كانت الأولى عندما دار حديث عن علاقة السيد رشيد رضا بالشيخ محمد عبده، ثم علاقته بابن عمه الذي كان يحمل اسم "عاصم" ويتولى إدارة أعماله، ولكن جمال البنا صمت، فكان عزيزًا عليه أن يرفض هذه الثقــة، وفي الوقت نفسه فإنه لا يستطيع القبول، وأدرك حسن البنا الموقف بألمعيته وبذكائه فغير الحديث، وفي مناسبة أخرى عندما قبض البوليس على جمال البنا وبعض أعضاء حزب العمل الوطني الاجتماعي عندما قاموا بتوزيع منشور عن

ذكرى ضرب الأسطول البريطاني للإسكندرية بالمدافع تمهيدًا للاحتلال، وأرسل الأستاذ حسن البنا بأحد أعوانه فقابل سليم زكي حكمدار القاهرة الذي أصدر أمره فورًا بالإفراج عنه، ولما عاد قال له: "أنت تكدح في أرض صخرية صلدة، ونحن لدينا حدائق تثمر أشجارها فواكه تتساقط وتحتاج لمن يلتقطها"، ورد جمال البنا بأن فواكه الإخوان ليست هي الثمار التي يريدها، ولم يتأثر حسن البنا بهذا الرد، ولكنه نصح شقيقه بتغيير اسم "حزب" إلى "جماعة" حتى لا يصطدم الحزب الناشئ بالحكومة وهو في نشأته الوهنانة، وهذا ما أخذ به جمال البنا.

ويصور هذا سعة أفق حسن البنا وحُسن إدراكه وفهمه لشقيقه الصغير، وكان جمال البنـا يدلي بتحفظاته على فكر الإخــوان للإمام البنا، وكانت عن المرأة والفنون والسياسة.. الخ، وكان هو يسمع، ويبتسم ولكنه لا يعقب، فما ذكره جمال البنا ليس جديدًا عليه، فقد كان حسن البنا مطلعًا على الكتابات الحديثة، ولكنه كان قائدًا للجماهير، وقائد الجماهير بقدر ما أنه يقودها ويدفعها، فإن الجماهير تمسكه وتقيد خطوه بمستوى فهمها بحيث لا يجاوز هذا الفهم إلا قليلاً، كما أن حسن البنا كان يعمل بسياسة المراحلي ويؤمن بأن الزمن جزء من العلاج، وأن لكل مشكلة وقتها، فقد كان مؤمنـًا بإعطاء المرأة حقـًا أكبر من الحرية، ولكن في وقت معين، ولو ترك لأصلح الكثير مما لم يفسح له المجال لإصلاحه.

وفي بعض الفترات كانت العلاقة ما بين جمال البنا وشقيقه الأكبر يومية، ففي كل يوم من أيام رمضان كان حسن البنا يتلو من حفظه جزءًا من القرآن ما بين العصر والمغرب، بينما يمسك جمال البنا بالمصحف، وكان حسن البنا يوجهه لملاحظة التفرقة الدقيقة ما بين "نزلنا" و"أنزلنا" و"أنجينا" و"نجينا"، وفي إحدى المرات اقترح جمال البنا على شقيقه الأكبر أن يتعلم الإنجليزية، ففكر مليًا ثم قال: "نحفظ سورة أفضل"، وكان هذا يمكن أن يقبل منه لما كان يتمتع به من سعة أفق ومن متابعته لكل المحدثات.

وكان حسن البنا مهمومًا بأمر شقيقه ليس للتميز الخاص في الفكر والمعرفة، ولكن لأن جمال البنا شقيقه الصغير وعليه مسئولية عائلية نحوه، فكان عندما يلمس أن الحياة ضاقت به لبطالته الإرادية يكل إليه أعمالاً يعرف أنه يقبلها مثل إدارة مطبعة الإخوان، وكان جمال البنا يريد أن يكسب خبرة في هذا المجال لأنه كان يتفق مع ما أراده لنفسه من أن يكون كاتبًا، وعندما شغل هذا المنصب لم يلتزم بما كان يلتزم به العاملون في "الدار" من آداب وتعاليم إسلامية سواء كان في أداء الصلاة أو الحرص على قربات.. الخ، فكثيرًا ما كان معاون الدار الشيخ عبد البديع صقر يأتي إليه مؤذناً لصلاة الظهر ليصلي جماعة، وكان جمال البنا يصرفه لانشغاله الشديد بتصحيح بروفة حتى لا تتوقف عجلات ماكينة الطباعة، وعندئذ يهرع إلى الأستاذ البنا ويقول: إن غرفة جمال البنا وكر تاركي الصلاة، فيقول له: "دعه وحاله"، كان جمال البنا قبل هذا تحول إلى نباتي، ورفض أن يمس اللحم، فكان الأستاذ البنا يجنبه ذلك عندما يقوم بتوزيع

الطعام، فهذه التصرفات المخالفة للتقاليد كانت أمرًا يتقبله حسن البنا من أخيه الصغير، وكان آخر منصب عهد به إليه هو سكرتارية تحرير مجلة الشهاب، وهي المجلة التي كانت تمثل قمة الكتابة الإسلامية، وقد أصدرها على غرار "المنار"، وإن أعطاها اسم مجلة بن باديس الجزائري، وكانت تضم الإمام البنا رئيس التحرير والدكتور سعيد رمضان مدير الإدارة وجمال البنا سكرتير التحرير والسيد وهبي الفيشاوي معاونـًا، وكان جمال البنا يراجع الأصول والبروفات ويكتب فيها بابًا عن الأحداث السياسية باسم أحمد جمال الدين أحمد عبد الرحمن.

وكان حسن البنا يتابع تقدم شقيقه، وروى الشيخ عبد العزيز الخياط وزير الأوقاف الأسبق بالأردن أنه عام 1946 كان يطلب العلم في الأزهر، ودخل مع مجموعة من إخوانه على المرشد فوجدوه يقرأ في رسالة "على هامش المفاوضات"، فقال لهم: "تعلموا السياسة من هذا الشاب، لقد أصدر جمال رسالة حسنة عن المفاوضات"، ولم يصده عن ذلك أنها كانت تصدر باسم "حزب العمل الوطني الاجتماعي".

ما استفاده جمال البنا من شقيقه الأكبر:

أعجب جمال البنا بخصائص متميزة في أخيه الأكبر، كانت لها آثار عليه، حتى عندما تأخذ شكلاً مخالفاً:

(1) أعجب جمال البنا برسالية حسن البنا، وأنه كان القائد النموذجي الذي يتحمل أعباءها ومسئولياتها ومقتضاياتها وإخضاعه نفسـه لها، وكانت هذه المسئوليات تفرض عليه العمل بالإخوان طيلة النهار وسحابة الليل، وكان عليه أن يتناول الطعام معهم، وأن يؤمهم لتأدية الصلاة، وأن يقدم دروسًا طويلة.. الخ، وأن يقضي إجازته الصيفية كمدرس ــ وهي شهور الصيف الأربعة ــ في الصعيد، ويذهب إليها في القطارات في الدرجة الثالثة.

(2) كان الإمام البنا كوالده متقشفاً لا يعني بأكل أو شرب أو لبس فكان في هذا كله يتبع ما يتبعه أقل الناس.

(3) كان في الإمام حسن البنا كياسة ولطف وأدب وذوق ونوع من مصانعة الناس ومخاطبتهم على قدر عقولهم وملاحظة الاعتبارات والملابسات، وبهذا ظفر بحب واحترام الأتباع والأعداء واكتسب تأييد جماهير غفيرة، وهي عناصر أعجب بها شقيقه لكنه لم يتبعها، إما لاختلاف المزاج والشخصية، وإما للخط الذي ينتهجه في الدعوة الذي كان يختلف عن منهج الأستاذ البنا.

(4) كان الدرس الذي استفاده جمال البنا في الأيام الأخيرة له في صحبة الإمام البنا أن الداعية إما أن يكون منظمًا، وإما أن يكون منظرًا، وأن الجمع بينهما ينتهي بالفشل، ويغلب أن يكون الاهتمام الأعظم بواحد منهما دون إغفاله الآخر، ولكن دون إعطائه ما يستحقه، وكان الإمام البنا منظمًا موهوبًا فريدًا، بحيث أنه أسس خلال عشرين سنة "الإخوان المسلمين" الهيئة الإسلامية القياسية التي اتبعتها كل الهيئات واتسمت بسعة القاعدة وإحكام العلاقة ما بين القاعدة والقيادة والربط

بينهما بخيوط حريرية من الحب في الله، ولكن هذا الهيكل المنيع لا يتسم بعمق فكري يؤلف "نظرية" محكمة شاملة لها أصالة، وفي الوقت نفسه صلاحية للتطبيق والتعايش مع العصر، هذا ما لم يستطع حسن البنا أن يحققه تمامًا لعدم وجود الوقت، فإن إحكام نظرية ليست سهلة فهي تتطلب تركيزًا تامًا قدر ما تتطلب "عمرًا" تنضج فيه "النظرية"، وكانت الضرورات العملية والميدانية تشغل سحابة وقت حسـن البنا، فكان يأتي "الشهاب" في موهن من الليل، وبعد أن يكون قد خلص من الاجتماعات العامة ليكتب أبوابه في المجلة.

وانعكس هذا النقص على فعالية التنظيم الإخواني باستثناء بعض الجوانب التربوية، مع إن فكرة حسن البنا عن الإسلام كمنهج حياة كان يمكن أن تكون قاعدة لنظرية شاملة تتناول مواقف الإسلام من كل ما يعتور المجتمع أو يؤثر فيه أو عليه.

وكان جمال البنا بطبيعته نقيض الإمام البنا وانتهى إلى ضرورة الاكتفاء بالتنظير، دون أن يعني بالتنظيم رغم كل جاذبية التنظيم، وتعمقت هذه الفكرة في ذهنــه إلى درجة جعلته يرفض تكوين مؤسسة من أي نوع تضم شمل المؤمنين بدعوة الإحياء، إذ رأى أن كل عناية بالتنظيم لابد وأن تكون على حساب التنظير، وأن التنظيم ــ مهما كان محكمًا ــ فإنه يثير إشكالات عديدية إدارية أو مالية، وأن كل تنظيم يأتي بعد داعيته يكون أقل مستوى وإحكامًا مما كان يريد الداعية بحيث يكون الكسب محدودًا ومحكومًا بمستوى فهم الأتباع ولابد أن يتعرض لغمرات الدنيا.. الخ، لهذا كله رأى أن من الخير أن يترك نظريته حرة من كل قيد بحيث تكون رؤية إسلامية كل من يؤمن بها يصبح مالكاً لها، حتى لا ينشأ تنظيم يفرض ضروراته عليها، وأن هذا يمكن مع التطور والزمن أن يجعل فكرته "رأيًا عامًا" أو شيئاً كهذا، خاصة وأن التطور سيكون في صفه.

كما أنه في عرض دعوته وفكرتها كان أبعد ما يكون عن المصانعة والمهادنة أو توقي الحساسيات، ولم يتردد في مجابهة كل المعسكرات التي يرى أنها تخالف دعوته دون أن يخشى عاقبة ذلك وانعكاساتها على دعوته أو عليه، وفضل أن تحدث هذه الخسارة من أن يتخلى قيــد أنملة عما آمن به، وكتابه "كلا ثم كلا" شـاهد على ذلك، فقـد انتقد فقهاء التقليد، كما انتقد أدعياء التنوير، فخسر الفريقين، وكان هذا الموقف سببًا لأن تتجاهله كل المعسكرات سواء في كتاباتها أو في نشاطاتها لأنه سبق وهاجمها، تيار اليسار والأكاديميين، والمؤسسة الدينية، والحكومة والنظام القائم، فلا يشيرون إليه في كتاباتهم، ولا يدعونه في اجتماعاتهم، ولم يأس جمال البنا لهذا التجاهل، بل إنه أراحه من كثير من الالتزامات الاجتماعية، وفي الحقيقة فإنه لم يكن يعمل لهذا الجيل الذي رأى أنه لا يمكن أن يحمل رسالته، وإنما لجيل آخر، وقد لا يحدث هذا قبل خمسين سنة أو أكثر عندما "يستكشف" جمال البنا، ويتهيأ المناخ لتقبل آراءه التي رفضتها الأجيال السابقة، وعزاؤه أنه وفر عليها البحث عن نظرية ما كان يمكن لغيره أن يصل إليها بحكم الصفات الخاصة التي توفرت له، من أجل هذا كان ثمـرة عمل جمال البنــا مؤجلة، أما ثمـرة عمل حسن البنا فكانت ماثلة.

* * *

[4]

توابع العلاقة الإخوانية

انتهت علاقة جمال البنا بشقيقه الأكبر عندما اعتقل يوم 8 ديسمبر سنة 1948، وظل بالمعتقل حتى سنة 1950، فلم يحضر الأيام المأساوية الأخيرة لشقيقه، ولا كيف استشهد، ولا كيف خرجت جنازته لا يسير معها إلا الوالد وسيدات الأسرة، فقد كان بعيدًا جدًا عن القاهرة في الطور، عندما وقعت تلك الأحداث الدراماتيكية، وفيما حدثه أشقائه الذين ظلوا معه ولم يعتقلوا إلا قبل استشهاده بأيام عن العذاب النفسي الذي كان يفترس الرجل ما بين المطالب الملحة لأسر المعتقلين الذين حرموا مورد رزقهم، وكان عليه أن يدبر الإعانات اللازمة، وما بين تلاعب فئة خسيسة من رجال السياسة ورفضهم لأي صورة من صور التسوية عرضها عليهم، بحيث أن الاستشهاد أراحه من هذا العذاب الذي تعرض له وحيدًا وهو الذي كان ملء العين.

أما والده فقد ظلت علاقة جمال به حتى وفاته سنة 1959 وسار وراء جثمانه حتى واراه في التراب جنبًا إلى جنب ابنه.

وآل إلى جمال البنا كل تراث الوالد، والوالدة، والشقيقة فوزية، كما أوصى الأستاذ عبد الرحمن البنا الشقيق الثاني بعد الإمام الشهيد بأوراقه وكتبه لجمال البنا، ووجد جمال البنا ركامًا من المتاع، فقد كانت والدة جمال البنا قد استحضرت معها من المحمودية إلى القاهرة كل المتاع اليدوي مثل "الرحاية" وهي المطحنة اليدوية التي تتكون من اسطوانتين من الحجر تثبت السفلى وتدور فوقها العليا لتطحن الحبوب، ومثل "كيلة" كانت هي معيار في التعامل مع الحبوب، ومثل "طبلية" كبيرة قبل استخدام المائدة، وطشوت نحاسية كبيرة للحمام، وموازين ذات سنجات عندما كانت الأقة والرطل وأعداد كبيرة من البطاطين والمراتب.. الخ، وقد تخلص جمال البنا منها على مدار الأيام، ولكنه احتفظ بطبق صيني كبير أزرق اللون كان يقدم فيه الثريد "الفتة" وكان من الجهاز الذي دخلت به والدة جمال البنا.

توابع العلاقة الإخوانية:

لم تقتصر أثار الجذر الإسلامي على علاقة جمال البنا بوالده وشقيقه، إن وضعه عرفه على الإخوان المسلمين في الأربعينات، وكان قد تعود أن يذهب إلى المركز العام بالحلمية في النهار (كان منزل الأسرة قريبًا جدًا من المركز العام) قبل أن يتخذ له مكتبًا خاصًا، ويجلس في غرفة مركز الاتصال بالعالم الإسلامي، وكانت هذه الغرفة فوق سلاملك مستقل على يمين الداخل، ولم يكن يدخلها أحد بالنهار، فيكتب فيه، وكان ذلك لأن صداقة وثيقة نشأت ما بين جمال البنا ورئيس هذا القسم الأستاذ عبد الحفيظ الصيفي، كما كان جمال البنا على صداقة بالشيخ عشماوي سليمان ــ رئيس إخوان قويسنا ــ الذي دعاه لزيارته هناك، والشيخ سيد سابق الذي قبل أن يعطي دروسًا وتوجيهات إسلامية بصورة منتظمة لمجموعة من الشبان والشابات جمعتهم

السيدة عنايات الحكيم، وهي حرم الأستاذ عبد المغني سعيد ــ مدير المؤسسة الثقافية ــ وكان له اتجاهات إسلامية، وكان عبد المغني سعيد وحرمه على علاقة وثيقة بجمال البنا، ومثل الأستاذ أنس الحجاجي الذي ألف "روح وريحان" عن الإمام حسن البنا، وكان حسيبًا على آل البنا، كما كان أحد كتاب مجلة "النذير".

وقد دعا الإخوان جمال البنا مرة أو مرتين لحضور "الكتيبة" بالذهاب للمركز العام في عصر يوم الخميس للانطلاق إلى ضاحية أو إلى صحراء تقام فيها صلاة المغرب وصلاة العشـاء يؤمهم الشقيق الأكبر، ثم ينامون ليقوموا ليصلوا الفجر وليستمعوا إلى قراءة الأستاذ البنا، وكانت الصلاة في الأماكن الخلوية فترات الغروب الساحرة أو الشروق الأخَّاذة وطريقة تلاوة حسن البنا للقرآن من أكبر العوامل التربوية تأثيرًا في الإخوان.

وكان القائم بأعمال سكرتارية وإدارة دار الإخوان شخص يدعى الشيخ توفيق أحمد، كان أصلاً عضوًا في الجمعية الشرعية، وكان يأتي الدار لابسًا العمامة مرخيًا العذبة على ظهره، كما كانت عادة أعضاء الجمعية الشرعية، ونشأت صداقة وثيقة ما بينه وبين جمال البنا، وعن طريقه تعرف إلى الشيخ خالد محمد خالد الذي كان أيضًا من الجمعية الشرعية، كما تعرف على الأستاذ سيد عويس الباحث الاجتماعي بمكتب أحداث بولاق، وقد تطورت أحوال توفيق أحمد شيئاً فشيئاً، وكانا يذهبان إلى السينما فيما يشبه السرية، فيقوم جمال البنا بقطع التذاكر ثم يندس وسط الداخلين حتى يواريه ظلام قاعة السينما، ويذكر مرة أنهما سألا أحد عمال السينما عما إذا كان هناك "مصلى" فضحك الرجل، وترك الشيخ خالد خدمة الإخوان عندما سنحت له فرصة وظيفة في الجمعية الزراعية الملكية، وتخلص من عمامته وعذبته ولحيته أيضًا، ثم دخل المعهد البريطاني الذي كان يعلم اللغة الإنجليزية بإتقان وكنوع من نشر الثقافة البريطانية، وكان في حقيقته نادي كما هو معهد، وتهذب الشيخ توفيق في هذا المعهد وأخذ بأسباب الحضارة الحديثة، وبالطبع فإنه أصبح يرتدي البدلة والبطلون.

كان الأستاذ توفيق أحمد صديقـًا حميمًا وعائليًا لجمال البنا، وظلت هذه الصداقة حتى توفى في الثمانينات وحضر جمال البنا جنازته وشيعه إلى القبر مع خاصة أسرته.

كما أن العلاقة مع الشيخ خالد محمد خالد، الذي ترك بدوره العمامة والعذبة ولبس البدلة والبنطلون وثيقة، وعندما أراد إصدار كتابه "من هنا نبدأ" كان مفلسًا فطبع دفاتر اشتراكات بعضها بخمسة قروش والبعض الآخر للشخصيات الممتازة بعشرة قروش حتى يتهيأ له مبلغ ضئيل، وقام جمال البنا بدور في توزيع هذه الاشتراكات، ولكن الله رزقه بصاحب مطبعة مثقف ومتعاطف فتحمل مسئولية الطبع، وعندما صدر الكتاب وصادره الأزهر، وكتبت أخبار اليوم بالخط العريض: "هذا كتاب مطلوب إحراقه.. وإحراق مؤلفه"، رزق شهرة مدوية دفعت بالأستاذ خالد إلى صدارة الشهرة، وكانت صداقة جمال البنا بالأستاذ خالد وثيقة وظلت حتى وفاته، وعبر الأستاذ

خالد في كتابه عن "حياتي" عن أن أول ما أثار دهشته عندما دخل الإخوان أن شقيق حسن البنا ليس عضوًا، بل إنه أسس حزبًا مستقلاً.

* * *

في 8 ديسمبر سنة 1948 أصدر النقراشي باشا رئيس الوزارة وقتئذ أمره العسكري بحل الإخوان المسلمين وكل هيئاتها، واعتقل في هذا اليوم أعضاء مكتب الإرشاد وجمال البنا، وكان اعتقاله مع أعضاء المكتب علمًا بأنه ليس عضوًا أصلاً بالإخوان نقطة دلت على أن "البوليس السياسي" كان له رأي فيه، ولم تكن نشاطاته السياسية خافية عليه، المهم أن مكتب الإرشاد وجد في وسطه جمال البنا، وجمال البنا وجد نفسه في مكتب الإرشاد، وكان مما خفف وقع هذه المفارقة وجود شقيقه عبد الرحمن البنا عضو مكتب الإرشاد، ومع تطور الأيام زاد عدد المعتقلين وانتقلوا من هاكستب إلى الطور حيث بلغ العدد بضعة ألوف كانت فرصة ليتعرف جمال البنا على جمهور الإخوان، وأضيف إلى جمال البنا شقيقاه محمد وعبد الباسط في مرحلة سابقة وخصص الإخوان لهم غرفة خاصة في مدخل "الحذاء"، وكانت مخصصة للإدارة فأصبحت غرفة عائلية وأعفيت من الترتيبات التي كانت سارية على القاعات الكبيرة في الحذاء التي تضم كل واحدة عشرين أو ثلاثين مثل المشاركة في صلاة الفجر أو بقية الدروس والمحاضرات أو حتى أعمال الطبخ وإعداد الوجبات، كان هذا نوعًا من الامتياز لإخوة الإمام، وقد تعرف جمال البنا على كثير من الإخوان دون أن يزول الحاجز الفكري، وكان من المعتقلين عبد الملك عودة شقيق الأستاذ عبد القادر عودة المحامي العضو البارز في الإخوان (وفيما بعد وكيل الإخوان وشهيد عبد الناصر)، وكان عبد الملك حديث التخرج من الجامعة الأمريكية وثقافته إنجليزية وكان يقدم بعض خدمات الترجمة للمرشد، وكانا ــ جمال البنا وعبد الملك عودة ــ يخرجان سويًا ساعات الغروب ويجلسان خارج الحذاء، وأبدى عبد الملك عودة فكرة أن يبدءا معًا كتابًا عن الإخوان يحمل اسم "أزمة ديسمبر" ورحب جمال البنا بالفكرة وبدءا الخطوط، ولكنه تراجع بعد أن وجد أن مثل هذا المشروع سيوجد بينه وبين الإخوان أزمة.

وفي المعتقل حصل جمال البنا على نسخة من ديوان المتنبي، وأخذ يقرأها ويعيد قراءتها حتى كاد أن يحفظ الديوان، كما كان هناك أستاذ لغة إنجليزية قرأ معه رواية Tess of the D'urbervilles للكاتب الإنجليزي "هاردي"، وكان قد قرأها مترجمة إلى اللغة العربية، كما حصل على نسخة من كتاب كرافشنكو "آثرت الحرية"، وكرافشنكو مهندس سوفيتي أوفده الاتحاد السوفيتي إلى أمريكا للاشتراك في تحديد المواد المراد تقديمها للاتحاد السوفيتي بمقتضى قانون "الإعارة والتأجير" لسد حاجة الاتحاد من المعدات الحديثة، ولكنه آثر البقاء في أمريكا والاختباء فيها حتى يمكن أن يفضح الفظائع والجرائم الستالينية في كتاب حمل اسم "آثرت الحرية" في أكثر من

سبعمائة صفحة كبيرة، وأمضى جمال البنا في قراءته أيامًا جعلته يعيش في أجواء الاتحاد السوفيتي قبيل ثورة 17 أكتوبر وفي صميم الحقبة الستالينية.

وأراد الإخوان أن يكونوا في المعتقل ما يشبه جامعة ورشح جمال البنا لهم عبد الملك عودة ليكون أحد محاضريها، ولكنهم رفضوا، ولما أخبره بذلك قال:
Excommunication from the kingdom of Allah "حرمان من مملكة الله"، وكان هذا فعلاً نوعًا من الحرمان الذي كانت الكنيسة الكاثوليكية تمارسه ضد معارضيها.

ومع أن معتقل الطور كان يضم بجانب الإخوان الشيوعيين واليهود، فإن جمال البنا لم يقم بإيجاد صلة أو الحديث مع أي منهم، ولكن عندما انتقلوا إلى "عيون موسى" جاءهم هنري كورييل واحتفى به جمال البنا، فقد كان مثله قصيرًا نحيفـًا يرتدي "شورت" ويضع رجليه في "صندل" وتحدث معه مليًا، وإن لم يعد جمال البنا يذكر ما دار سوى لازمة كان يكررها "النظرية تقول".

طوال أيام المعتقل كان جمال البنا يلبس البيجاما أو بدلة خفيفة في حين كان الإخوان جميعًا يلبسون عباءات كيفوها من البطانية كما حافظ على حلاقة ذقنه يوميًا، وكان يبدو غريبًا بين المعتقلين الذين كانوا جميعًا يحتفظون بذقونهم ويضعون عباءات سابغة على أكتافهم بحيث أن أحد الزوار ظنه من رجال إدارة المعتقل، وفكر جمال البنا في كتابة كتاب بعنوان "قادم من الطور" وكتبه بالفعل، ولا تزال مسوداته بين أوراق جمال البنا.

فجمال البنـا وجـد نفسـه في صميم الجماعـة الإسـلامية حتى وإن لم يؤمن بخطها الإســلامي، وقد تقبلته للصفة الخاصة والفريــدة له، كما تقبلها هو أيضًا بحكم الملابسات والظروف، ولم يحدث أن كان جمال البنا عضوًا ملتزمًا بالإخوان، ولكن وشـيجة قويـة ربطت ما بينه وبينها.

* * *

عندما أفرج عن جمال البنا من المعتقل في أوائل 1951 اشترك في تحرير مجلة "الدعوة" التي كان يرأس تحريرها صالح عشماوي بصفة رسمية، أي كمحرر يتقاضى أجرًا شهريًا ثابتـًا، وكان يكتب بها الأستاذ سيد قطب والأستاذ أنس الحجاجي وغيرهم، وكان جمال البنا يحرر صفحتين منها واحدة للعمال وأخرى للأحداث العامة، وكتب فيها أول كلماته عن إصلاح السجون تحت عنوان "من وراء القضبان" بتوقيع "اللجنة الشعبية لإصلاح السجون" التي تمخضت فيما بعد عن "الجماعة المصرية لرعاية المسجونين وأسرهم"، وسلسلة من المقالات عن أثر الفكر الإسلامي في الحركة الدستورية (جمعت وطبعت بعد ذلك في كتاب مستقل).

* * *

في أحد أيام 1951 عقب الإفراج عن جمال البنا زاره الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة التي كانت قد تحولت إلى "الحزب الاشتراكي"، ولم يكن جمال البنا يعرفه، وكانت تلك لفتة كريمة منه، رأى جمال البنا أن من الضروري أن يشكره فزاره وعرض عليه الأستاذ أحمد حسين العمل معه في الحزب، فأوضح له أن مبدأه المقدس هو عدم الانخراط في أحزاب، وأنه يقدر الحزب ويتمنى أن يخدمه دون الانخراط في العضوية، فاقتنص الأستاذ أحمد حسين الفرصة ــ وكان قناصًا للفرص ــ وقبل جمال البنا أن يكوِّن قسمًا بالحزب باسم "خدمة الشباب" وكان يكلف هؤلاء الشباب بمطالعات، وبزيارات ونشاط اجتماعي، وكان من وسائل القسم أن يطلب بعض المسئولين لعرض قضيته ومناقشتها، وعن هذا الطريق جاء الأستاذ إحسان عبد القدوس رئيس تحرير "روز اليوسف" وهيئة تحريرها وتحدث إليهم، كما دعى الدكتور يوسف الذي كان يرأس هيئة السلام، وكتب جمال البنا في "الاشتراكية" نبذات صغيرة تحت عنوان "توجيهات قرآنية"، وكانت "الاشتراكية" وقتئذ أشهر الجرائد الأسبوعية، وكان جمال البنا مع الأستاذ أحمد حسين عندما جاء المصورون بصور متعددة للشحاذين والبؤساء الذين يملأون القاهرة فاختير منها أكثرها دلالات، وطبعت بحيث تملأ صفحتين متقابلتين من الاشتراكية تحت عنوان عريض "رعاياك يا مولاي"، وفي الأيام التي سبقت الحركة الناصرية كان المانشيت العريض للاشتراكية "الثورة.. الثورة.. الثورة".

وكسب جمال البنا من علاقته بالأستاذ أحمد حسين كسبًا غير متوقع، فقد دعوه يومًا ما لزيارة السيدة بهيجة البكري وإلقاء كلمة عن الاشتراكية التي يدعو إليها الحزب، وقيل له إنها رئيسة السيدات الاشتراكيات وأنها جمعت لهذه المناسبة لفيفـًا من الرجال والنساء، وذهب جمال البنا في إحدى ليالي ديسمبر الباردة إلى "الفيلا" الخاصة بها بشارع رمسيس في مصر الجديدة، وكانت السيدة بهيجة هي الأخت الكبرى للسيدة سنية عنان حرم حسين عنان (باشا) وزير الزراعة ومؤسس نادي الصيد، كما كانت من كبيرات سيدات الخدمة الاجتماعية لأنها أسست مبرة فريال في مصر الجديدة، وكانت الفيلا لا تخلو من كبار الزوار والزائرات، وكان للسيدة بهيجة ماضٍ طويل انتهى بأن آوت إلى بيت أختها .

وعندما دق الجرس وفتح الباب تعالى نباح عدد من كلاب "اللولو" البيضاء الصغيرة، وتقدمت السيدة بهيجة وساعدت جمال البنا على خلع معطفه، ووجد أنها جمعت قرابة عشرين سيدًا وسيدة، أحدهم كان عميدًا لكلية الطب، والآخر أستاذاً بكلية الهندسة، وبعضهم من رجال الأعمال إلى جانب سـيداتهم وبعض سيدات الخدمة الاجتماعية، وانتقلوا إلى مائدة الشاي المثقلة بالحلوى، وتحدث إليهم جمال البنا عن الاشتراكية حديثـًا أرضاهم، إذ كان الانطباع عن أحمد حسين أنه ثوري مثل لينين، ولكنهم عرفوا من المحاضرة أنه إصلاحي، ولكن بصورة صارمة، وتنهدت إحدى السيدات وقالت: Borgeois، وفي آثار هذا الاجتماع انعقدت صداقة خاصة ما بين

جمال البنا والسيدة بهيجة البكري التي كانت شديدة التعلق بالتعرف على الشخصيات العامة، وقالت له: إنها كانت تود التعرف إلى حسن البنا، وفي بعض الحالات كانوا يدعون جمال البنا للمشاركة في رؤية فيلم في سينما "كايرو بلاس"، وكان وكيلها العـام يمت إليهم بصلة، فكان يستقبلها مرحبًا ويدخلهم في "اللوج" وكان على جمال البنا أن يدفع ثمن "الشيكولاتة" عندما يمر عليهم بائعها.

وفي إحدى المناسبات عندما كانت المجموعة كلها من السيدات ـ باستثناء جمال البنا ـ اقترحت السيدة بهيجة البكري أن تدعو الضابط الشهير عزيز المصري واتصلت به تليفونيًا، وبعد نصف ساعة كان يدخل الحجرة متئدًا بخطوات بطيئة ثابتة كالأسد الهصور، وقال له جمال البنا ضاحكـًا: "إلحقتي يا باشا"، وفي مرة أخرى وجد الشيخ الباقوري، وكانت تداعبه كأم، وكانت هي التي اختارت له شقته في مصر الجديدة، وكان الشيخ الباقوري وسيمًا طويلاً، وفي مناسبة أخرى فوجئ جمال البنا بدخول الضابطين الطحاوي وأحمد طعيمة كبيرا هيئة التحرير، وكان اللقاء غير منتظر ومحرجًا للجميع، وكان الجميع بصفة عامة يحبون السيدة بهيجة البكري ويقبلون يدها وينادونها "تانت بيللي".

الأهم من هذا، أن جمال البنا عندما بدأ مشروعه في جمعية رعاية المسجونين استخلص خمس سيدات كن من أكبر المساهمات معه في عمل الجمعية، وكانت اثنتان منهن ذواتا جمال رائع، بينما الأخريات من العاملات بكدٍ، وكان وجود السيدة "زينب عزت" أو شقيقتها الصغرى "فاطمة عزت" في عربيتها الكاديلاك مع جمال البنا إيذانـًا بالدخول على مدير عام السجون فورًا، ودون انتظار وقدمن جميعًا مساعدات جمة للجمعية الناشئة.

وكان جمال البنا ابتداء سنة 1978 يذهب إلى جنيف كل شهر يونيو ليشهد انعقاد مؤتمر العمل الدولي، وكان خلال إقامته (أربعين يومًا كل مرة) ضيفاً على زوج الابنة الكبرى للإمام الشهيد السيدة وفاء، الدكتور سعيد رمضان في جنيف، وكان منزل الدكتور سعيد ملاذاً لكل الشخصيات الإسلامية الكبرى التي تمر بجنيف، وقد تعرف جمال البنا عنده في إحدى المرات بالشيخ عمر عبد الرحمن وتحدثا مليًا، ويذكر جمال البنا أنه قال إن تعدد الزوجات كان في نظره (أي الشيخ عمر) هو الأمر المقرر في الإسلام وضرب المثل بأنه لا يعرف صحابيًا كان له زوجة واحدة، ومرة أخرى تعرف فيها على الأستاذ إبراهيم الوزير قائد أحرار اليمن، وابن زعيم ثورة الدستور وشهيدها سنة 1946 الذي كان قد قرأ كتاب "الدعوات الإسلامية المعاصرة ما لها وما عليها" وأبدى دهشته واستنكاره لعدم مساندة الإخوان لجمال البنا، وقد استمرت علاقة جمال البنا القائمة على التقدير المتبادل معه حتى الآن، وفي بعض فترات الحرج كان نعم المعين، كما اشترك في تأسيس دار الفكر الإسلامي بدفع 12 ألف دولار لم يسأل عنها، وقابل جمال البنا شخصيات أخرى عديدة، فضلاً عن أن سعيد رمضان نفسه كان

موسوعة إسلامية وكان يصدر وقتئذ مجلة "المسلمون" التي أصدرها على غرار "الشهاب" التي أصدرها الإمام الشهيد.

* * *

[6]

جمال البنا يحدد مصيره

جاوز الحديث عن الجذر الإسلامي وتوابعه، الترتيب الذاتي لتطور فكر جمال، فكائنـًا ما كانت آثار هذا الجــذر وامتداداته، فإنها لم تجاوز أبـدًا ما أراده جمال البنا لنفسه وما جعله لا يتورط في الانتماء أو الالتزام بأي صورة لأي من الهيئات التي تعرف عليها، ولم يكن هذا ليحدث لولا أن جمال البنا كان قد قرر لنفسه مصيرًا معينـًا، لم يتصور جمال البنا نفسه موظفـًا يخضع لروتين الوظيفة، ولا محاميًا يعمل بالنهار في المحاكم وبالليل في مكتبه، ولا طبيبًا يعمل في المستشفى بالنهار وفي العيادة بالليل، هذه كلها كانت وسائل "لأكل عيش" ولضمان المورد المالي بالدرجة الأولى، وهذا آخر ما كان يفكر فيه جمال البنا الذي كان يحرص على استقلاله من ناحية وعلى استغلال وقته للقراءة والكتابة والتفكير، وعلى حريته الفكرية أن تشلها القيود، وكان الشيء الثمين بالنسبة له هو الوقت الذي يجب أن لا تهدره الوظيفة وغيرها، ولكن أن يظل تحت إرادته هو، كان جمال البنا قد قرأ أن جوركي قال: "كنت أقبل أن اضرب بالسياط وأدخل الجامعة"، ولكنه كان يرى أن جوركي لو دخل الجامعة لما ظفرنا "بالأم" و "ست وعشرون وواحدة" وغيرها من روائع جوركي، وكانت الكتابة هي المهنة التي اختارها جمال البنا لنفسه، وعندما طبق نظام البطاقات الشخصية في الخمسينات كتب في المهنة "كاتب ومؤلف" وظلت تلك يحملها كل جوازات سفره حتى الآن، والعجيب أن هذا القرار يعود إلى سنوات عمره الأولى، أي التي جاوزت الطفولة إلى الصبا، ولم يكن في أسرة جمال من يجبره أو يفرض ــ حتى وإن كان صبيًا ــ عليه شيئاً لا يريده، لأن هذا كان بعيدًا عن روح الأسرة، كما أن قطباها ــ أي والده وشـقيقه الأكبر ــ كانا قد ســبقاه في الاختيار، وكانا بحكم انهماكهما فيما اختـارا لنفسيهما، يعزفان عن حمـله على ما لا يريد، وهكذا فإنه بعد أن أتم الدراسة الابتدائية في مدرسة العقادين الابتدائية، وهي على ناصية حارة الروم عند التقائها بشارع المعز لدين الله وكانت تتوسط المسافة ما بين بيت الأسرة ومكتب الوالد، دخل المدرسة الخديوية الثانوية بالحلمية الجديدة، وهي وقتئذ أعرق مدرسة ثانوية، ولم يكن جمال البنا طالبًا نابهًا متقدمًا في دروسه حائزًا لأولوية في مراتب الناجحين، كما كان بعض أشقائه، ولكنه كان طالبًا وسطـًا فلم يكن من المتقدمين أو المتخلفين، وكان يجد بعض الصعوبة في اللغة الإنجليزية التي كان يتولى تدريسها "مستر إنجليزي الجنسية" كان يدخل الفصل واضعًا على رأسه طربوشًا متهرءًا ويبدو أن جمال البنا أخطأ في شيء ما جعل أستاذه يقول له: You have to say I beg your pardon sir، وفكر جمال البنا في معاني هذه الكلمات فهناك beg التي يشتق منها الــ beggars أي

الشحاذون، وهناك "باردون" وهي تعني المعذرة، وأخيرًا Sir أي سيدي، ومع أن هذه الجملة هي الجملة التقليدية التي تقال عندما يخطئ أحد الناس، ولم يكن فيها ما يمس الكرامة مطلقـًا، ولكن جمال البنا لم يتبين ذلك إما لعدم عمقه في فهم الإنجليزية أو لحساسيته الخاصة فرفض، وكانت النتيجة أن رسب في الإنجليزية كما رسب في الملحق، لأن أستاذه لم يغتفر له ذلك، فاتخذ جمال البنا قراره بعدم مواصلة الدراسة الثانوية، وبالتالي عدم دخول الجامعة واتخاذ قطيعة بينه وبين المجتمع "البورجوازي" الذي تعد الشهادة الجامعية هي جواز المرور إليه والدخول فيه.

هل كان جمال البنا يقدر خطورة هذا القرار ؟ أو أنه كان مسيرًا لمصيره الذي أراده الله له قبل أن يصطنعه هو لنفسه ؟

إنه لا يعلم، ولكنه يعلم أنه لم يتردد أبدًا في اتخاذ هذا القرار، بل ولم يندم عليه وظل حتى اليوم يعتقد أنه اتخذ القرار السليم.

مع أنه رفض طريق البورجوازية (أي الثانوي فالجامعة) فإنه قبل تحت إلحاح الأسرة أن يدخل مدرسة التجارة المتوسطة بالجيزة لمدة ثلاث سنوات، وقبل جمال البنا حتى لا يخيب آمالهم، وكانت وقتئذ في ميدان الجيزة بجوار شركة إيسترن للسجاير، وبجانبها ترعة صغيرة، ولها ملاعبها خاصة بكرة القدم، وكان جمال البنا أصغر طلبتها سنـًا وحجمًا، إذ كان من طلبتها من يحتفظ بشارب أنيق، وكان حارس المرمى في فريق الكرة طالبًا طويلاً عريضـًا معروفـًا لدي الكرويين، أما الأساتذة فمعظمهم أصبح بعد ذلك من الأساتذة النابهين في كلية التجارة وكان ناظرها الدكتور لهيطة رجلاً لطيفـًا نشأت بينه وبين جمال البنا علاقة، وزاره بعد التخرج بسنوات في بيته في مصر الجديدة، وكان في أيامه الأخيرة يريد أن يرصع بعض كتبه بآيات قرآنية، كما كان من الأساتذة الأستاذ عيسى عبده إبراهيم الذي أصبح من أبرز رجال الاقتصاد الإسلامي، وكان قد اتصل وقتئذ بالإخوان، وأخذ يتعرف على طلبة الفصل واحدًا واحدًا، وكان من بينهم شاب وسيم له شارب فأطلق عليه "كلارك جيبيل" وشاء الله أن ينشأ نوع من الصداقة ما بين جمال البنا وبين أستاذه فزاره في بيته، وفي إحدى المناسبات طلب منه أن يختار مساعدًا له فاختار جمال البنا مساعدًا كان ملاكمًا، وبعد أسبوع جاء الرجل صارخـًا أنه لا يطيق متابعة عيسى إبراهيم الذي كان يعمل حتى ما بعد منتصف الليل، ثم يأتي في السادسة صباحًا ليستأنف قبل أن يذهب إلى الكلية (وكان قد أصبح أستاذاً بكلية التجارة)، بل أكثر من ذلك دخل جمال البنا مع أستاذه السابق في مناظرة حول الربا، وكان الدكتور عيسى عبده يحرمه قطعيًا، بينما كان جمال البنا يرى أنه مقصور على "النسيئة" وأنه يمكن أن يقبل في حدود محتملة ومعقولة.

بعد ثلاث سنوات 1934 ــ 1937 تخرج جمال البنا من مدرسة التجارة وأخذ دبلومها وزج به في أحد المكاتب ونساه تمامًا، وتفرغ لمواصلة تأسيسه الثقافي بطريقته المحببة "المطالعة".

التأسيس الثقافي:

أشرنا إلى التأسيس الأولي الذي بدأ من الطفولة عندما كان جمال البنا يتصفح "اللطائف المصرية" و "الأمل" وغيرها في مكتب والده، وقد انتقل من هذه إلى روايات الجيب التي كانت تترجم عيون الأدب الأوروبي في الرواية، فقرأ لـ تولستوي وديستوفسكي وأندريه جيد وغيرهم، وكانت هذه الترجمات ترجمات سليمة إلى حد كبير، وكان العدد يصدر في ثلثمائة صفحة ويباع بقرش واحد (ولأبناء هذا الجيل الذين لم يروا القرش نقول: إنه واحد من مائة كانت تكون الجنيه المصري، وكان الجنية المصري يعادل الجنيه الإسترليني) وبعدها انتقل إلى الأدب الشعبي مثل ألف ليلة وليلة وذات الهمة (في 10 مجلدات)، وسيف بن ذي يزن التي أعجب بها، ورأى أنها صورة من الميثلوجيا العربية/الإسلامية، فهي تحفل بحروب وسحرة وكهان ومعجزات وحكماء ينزلون من السماء وفروسية وحروب، ولا يزال حتى اليوم يرى أنها يمكن أن تأخذ شكل "الميثلوجيا" ويمكن أن تكون أصلاً لقرابة عشرين أو ثلاثين رواية، وبعد هذا النوع من الأدب انتقل إلى الأدب العربي الرفيع، فقرأ العقد الفريد لابن عبد ربه، وقرأ الأغاني للأصفهاني، وكان بمنزل الأسرة نسختان نسخة في مكتبة الشقيق الأكبر ونسخة في مكتبة الشقيق عبد الرحمن، وقرأ تاريخ بغداد لابن الخطيب وغاص في بحاره، وقرأ البيان والتبيين والبخلاء للجاحظ.

بالنسبة للشعر فإنه قرأ المعلقات وقرأ "المنتخب في أدب العرب" في جزئيه وكانت وزارة المعارف تقدمه لطلبة الثانوية، كما كانت تقدم أدب الدنيا والدين للماوردي، ولكنه لم يكن يعدل أحدًا من القدامى بالمتنبي ولا في المحدثين بشوقي، وقد حفظ شعرهما تقريبًا، أي ديوان المتنبي والشوقيات بأجزائه الثلاثة، ومصرع كليوباترا، ومجنون ليلى، وكان يرى في شوقي مثالاً للعبقرية التي تصنعها مصر فيمن دخلها من أجناس، فشوقي يعود بآبائه إلى أصول تركية، وإلى أمهاته بأصول يونانية، وقد صهرت مصر هذا الخليط وجعلته مصريًا.

وقرأ في الأدب العربي لطه حسين والعقاد وهيكل وتوفيق الحكيم ولكنه لم يعجب بأسلوب طه حسين لما فيه من تكرار، ولا بأسلوب العقاد لما فيه من جفاف، وكان في طبع جمال البنا ككاتب عرق فني جمالي، أما هيكل فكان أسلوبه ممتازًا، كما كان توفيق الحكيم موفقـًا في الحوار، وقد أعجب بتوفيق الحكيم لأنه عني بالقضية الدينية وراجع مختصرًا لتفسير القرطبي وكتب عن "التعادلية" وكان فنانـًا بحق، كما كان أمينـًا عندما تحدث عن غيبة الوعي في الحقبة الناصرية، أما الذي حقق لجمال البنا الأسلوب الذي يعجبه فكان أحمد الصاوي محمد وكان يصدر "مجلتي" التي كانت تكتب بالعربية ولكن بروح أوروبية حديثة، وكان الصاوي يوشح عباراته بنوع من "العاطفية" أشبه بـــ "الدانتيلا الخفيفة" وكانت مجلتي لا تقل في أثرها الأدبي لدي النخبة عن الرسالة بالنسبة للعامة، وكان للصاوي ذوق فني في تجميل الطبع، ووضع الكلمات في الصفحات وطبع الصور على ورق "الكوشيه" وتبويب مادة العدد، كان في الصحافة الأدبية مثل التابعي في الصحافة الإخبارية.. الخ، وكانت بتحريرها مقابلاً للرسالة الأكثر شعبية وأكثر تمسكاً بالروح العربية، وكان الأسلوب الذي نهجه الكاتب

العربي القدير مصطفى صادق الرافعي في كتاباته الأخيرة والقصصية في الرسالة مماثلاً لأسلوب الصاوي ولكن في نسق عربي بليغ ــ العربي التقليدي ــ في مقالاته الأخيرة بمجلة الرسالة، بينما كانت كتابات الصاوي موشاة بمسحة أوروبية.

وكانت لجنة النشر للجامعات تصدر عددًا من الكتب المترجمة ترجمة رفيعه بأقلام كتاب مثل محمود محمود وفخري أبو السعود (الذي انتحر عندما غرقت زوجته وابنته في البحر في طريق العودة من إنجلترا إلى مصر) وكان فخري أبو السعود هو الذي ترجم رواية هاردي الطويلة "تس من آل دربرفيلد".

ومن أجمل ما ترجمه محمود محمود كتاب "العالم الطريف" الذي يحمل بالإنجليزية اسم The New Brave World وهي مقطع من شكسبير والكتاب تأليف توماس هكسلي وصدر في الثلاثينات وصور عالم الغد الذي يقوم على أساس طبقي، فتربى كل طبقة على أن تكون راضية بوضعها من أيامها الأولى، ولا توجد في هذا المجتمع ولادة، بل ينظر نساؤه إلى هذه الكلمة كنوع من "الهُجر" ولكن يربون في أنابيب ثم يشبون منها في حضانات تخضع لمؤثرات سيكلوجية، بالإضافة إلى التحكم الكيميائي في الأنابيب بحيث تكون كل طبقــة راضية، إن هذا المجتمع يعيش على الأرض إلا أن صلاته بالكواكب يومية، وعندما تنتاب بعض أفراده كآبة فإنه يتناول بعض أقراص "الكولا" التي تذهب به إلى عالم سحري، أما إله هذا المجتمع فهو فورد (لاحظ أن فورد في الثلاثينات كان أكبر شخصية أثرت في وضع المجتمع عندما توصل إلى السيارة)، كما كان من الكتب التي أعجب بها كتاب أندريه موروا "دزرائيلي" الذي صور تصويرًا روائيًا رائعًا نشأة "ديزي" وآماله وتطلعاته ومحاولاته الأولى في الكتابة، ثم رواياته وعلاقاته بالنساء حتى انتهى بأن يكون رئيس الوزارة ومجدد حزب المحافظين والصديق الأثير للملكة فيكتوريا، ويذكر أنه اشترى عددًا من نسخها كان يعطيها لأصدقائه ليطلعهم على الأسلوب الأخاذ، وكان جمال البنا معنيًا بالرواية أو المسرحية السياسية فقرأ "الأفواه اللامجدبة"، وقرأ "العدول" للبير كامو، وكان قد قرأ له كتابه في الأدب السياسي "المتمرد"، كما كان بالنسبة للأدب الأمريكي الحديث معجبًا بالكاتب إيتون سنكلير ورواياته ضد الرأسمالية "الغابة" و"البترول" و"الصلب الصغير"، فضلاً عن سلسلة رواياته التي أصدرها عن الحرب العالمية الثانية.

وأعجب جمال البنا بالكاتب أرثر كوستلر عندما قرأ روايته "ظلام في الظهيرة" التي صورت الحقبة الستالينية وتوصل إلى سر اعترافات كبار رفاق لينين ومؤسسي ثورة أكتوبر على أنفسهم بالخيانة وغيرها، وتعقبه في روايات عديدة بما في ذلك زيارته لإسرائيل.

كما كان حريصًا على القراءة لستيفان زفايج وهو أيضًا كاتب تراجم وروايات وقد انتحر هو وزوجته لأنهما لم يستطيعا تحمل مأساة الحرب العالمية الثانية وما فيها من مجازر وبوجه خاص ما ترامى عن إبادة اليهود.

وبعد هؤلاء ظهر "أورويل" عندما وضع "مزرعة الحيوان" الذي نفذ فيه التجربة السوفيتية وتحدث عن" قائمة المبادئ التي انتهت من أن الحيوانات متساوون"، فأصبحت الحيوانات متساوون، ولكن بعضهم أكثر مساواة من بعض"، وكان قد تحدث ــ قبلاً ــ عن نشأته في مناجم الفحم، وفي مرحلة لاحقة كتب سنة 1984 وتنبأ بعالم رهيب يحكم فيه "الأخ الكبير" بطرق التجسس المثبتة في كل بيت وكأنها التليفزيون والتي تكون فيها وزارة السلم هي وزارة الحرب، ووزارة الثقافة هي وزارة تزييف المعرفة.. الخ.

واكتشف خلال قراءاته الاقتصادية الكاتب المبدع بيتر دركر Peter Drucker وكتابه "نهاية الرجل الاقتصادي" وكان يروق له أن يقارن بينه وبين كتاب "نهايـة التاريخ" للكاتب الياباني الأمريكي فوكوياما، وتابعه عندما بدأ يكتب عن الإدارة، وكان دركر من رواد نمط جديد فيها، كما استمتع بقراءة كتاب "خواطر عابر سبيل" الذي تحدث فيه عن بعض الأحداث في حياته، والشخصيات التي تعامل معها مثل كيسنجر الذي جاء هاربًا يريد العمل في أي كلية، ولكن بيتر جعله يعمل في هارفارد، وقد فقد جمال البنا كتابه الأخير وطلبه من ناشره الذي أفاد أن النسخ نفدت وأنه بصدد إعادة الطبع.

وكان لابد أن يلم بالأدب والتاريخ الإغريقي، وقد تجاوب مع سقراط وأفلاطون ولكنه شعر بالعزوف عن أرسطو ووجد فيه الفيلسوف الأكبر للعنصرية الأوروبية الذي يرى أن أقصى شرف للشعوب الأخرى هو أن تخدم اليونان، فضلاً عن كراهيته لمنطقه الصوري الذي أساء إلى الفكر الأوروبي والإسلامي، بل والفقه الإسلامي.

وقرأ قرابة عشرة كتب عن الميثلوجيا اليونانية، كما قرأ كتاب "الأبطال" لبلوتارك الذي تأثر به نابليون والعديد من أبطال أوروبا.

أما تاريخ الإمبراطورية الرومانية فكان بالطبع لابد أن يقرأ موسوعة جيبون "ظهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية" على أنه وجد بغيته في كاتب بريطاني غير مشهور هو روبرت جريفز وكان أستاذاً للغة الإنجليزية بالجامعة المصرية حينًا، وكتب ثلاثة كتب كبيرة بشكل روائي عن الفترة الذهبية في تاريخ روما أولها باسم "أنا كلوديوس"، والثاني "كلوديوس الإله" في جزأين، والكتب الثلاثة في قرابة سبعمائة صفحة، وتضمنت كل ما عرض للإمبراطورية من شذوذ وغرائب ومفارقات ما بين المجد والسقوط.

هذه أمثلة عارضة لأبرز ما قرأه وما تزال عالقة بذهنه بعد مصي ستين عامًا، أما الحقيقة فهي أنه في الخمسينات والستينات يقرأ كتابًا عربيًا كل يوم وكتابًا إنجليزيًا كل يومين أو ثلاثة.

وخلال هذا التطواف الثقافي وقف جمال البنا أمام فئتين هما النساء والعمال وكانتا أكبر فئات المستضعفين والمستذلين، فدرس حركة الفيمنزم Feminism في

بريطانيا منذ أن كتبت ماري ولستونكرافت Mary Wollstonecraft كتابها إثبات حق المرأة حتى كتاب جون ستيوارت "إخضاع النساء" The Subjection of Women وبدأ في ترجمته حتى ظهور حركة المصوتات ــ أي اللائي طالبن بأن يكون للمرأة صوت انتخابي suffragette من بداية نشاطاتها وظهور العائلة الثورية "بانكهرست" وابنتيها كريستابل وسيلفيا حتى ألقت الآنسة إميلي دافيسون نفسها تحت أقدام جواد الملك في الدربي وقتلت.

وتتبع جمال البنا قضية المرأة، ورأى أنها كانت طوال العصر الأبوي الذكوري ضحية لاستغلال الرجل، وأن اليهودية حملتها مسئولية الخروج من الجنة، والمسيحية حملتها مسئولية الخطيئة، وأن الإسلام أراد إنصافها ولكنه لم ينجح تمامًا لقصر مدة حكم الرسول للمدينة ولأسباب أخرى عديدة، دع عنك الآثار التي خلفها فيلسوف مثل أرسطو الذي قنن دونية المرأة حتى شوبنهور الذي كان كارهًا للمرأة، وأن المرأة لم تنل كل حقوقها حتى مشارف العصر الحديث، وكتب جمال البنا أربعة كتب عن المرأة، وظفر كتاب "الحجاب" بشهرة وطبع ثلاث أو أربع مرات.

أما العمال فقد جذبت قضيتهم جمال البنا إلى الحركة النقابية التي أعجب بها ــ بل آمن بها ــ ورأى أنها كما قال في أحد كتبه "بعد الأديان مباشرة وقبل الديمقراطية والاشتراكية تأتي الحركة النقابية "ورأى أنها أكثر من أي هيئة أو نظرية أو كفاح، هي التي نهضت بمستوى الشعوب والجماهير، وتوصلت لذلك لأنها أبدعت تكتيكاً ناجحًا ينقذ العمال من جحيم الرأسمالية التي أرادت للعمال وجودًا ــ دون حياة.. ودون موت ــ ولرفع مستوى المعيشة وزيادة الأجور ومساهمة العمـال في وضع شروط العمل، بطريقة فنية، عمالية، بعيدة عن صخب العمل السياسي وتحولاته وانزلاقاته، وكان لدي جمال البنا تعاطف مع العمـال، وفي صباه الأول كان منظر العامل المنبطح أرضًا تحت سيارة يصلحها يبدو له أجمل من راقصة، ولهذا فإنه أقبل على دراسة الحركة النقابية في بريطانيا التي بها ظهرت أول مرة كرد فعل لظهور الثورة الصناعية وتطرق إلى دراسة اقتصاديات بريطانيا وإلى فلسـفة "القانون العام" الذي كانت المحاكم تحكم به وتصدر قوانين تعتبر النقابات تأمرًا يقيد حرية التعامل، فغاص في بحر من المراجع بدءًا من ظهور الثورة الصناعية التي أدت إلى ظهور العمال حتى الفترة الذهبية في تاريخ عمال بريطانيا عندما ظفر حزب العمال بأغلبية أصوات مجلس العموم وكون أول وزارة عمالية سنة 1945، وكيف بدأت هذه الحكومة سياسـة "الرعاية"، وأرادت أن توضع الميزانيات "على أساس إنساني، وليس على أساس اقتصادي"، قرأ جمال البنا مئات الكتب بالإنجليزية قبل أن يضع كتابه عن الحركة العماليـة في بريطانيا، وهو الكتاب الذي لم يظهر، ويبـدو أنه لن يظهر، لأنه مسودات لم توضع في صفتها الأخيـرة، وترجم في الستينات تقارير لجنة الحرية النقابية بمكتب العمل الدولي في جنيف عن الحركة النقابية في بريطانيا، وفي الولايات المتحدة، وفي الاتحاد السوفيتي، وفي بريطانيا، وفي السويد، وفي بورما، وفي الملايو كل تقرير منها في كتاب متوسط الحجم يدرس الحركة النقابية كجزء من

مجتمعها ونشرت هذه الكتب الدار القومية في الفترة التي قيل فيها إنها تصدر كتابًا كل تسع ساعات، وفي قول في ست ساعات.

"ولو جيز الحفاظ بغير عقل" كما قال المتنبي، لكان جمال البنا أبعد الناس عن الحركة النقابية بحكم تكوينه الجسدي والنفسي أيضًا، إذ كان وقتئذ "جلد على عظم" يزن 40 كيلو ويضع نظارة، وكان بالنفسية "أرستقراطيًا، فنيًا، لا يمكن أبدًا أن يعد أحد القطيع، يؤمن بالجمهور ولكنه هو نفسه لا يمكن أن يكون أحد هذا الجمهور، ولكن لله في خلقه شئون فقد وقع جمال البنا في حب العمال وجعله يقوم بمحاولة أن يكون عاملاً بالفعل، فاتصل بأحد الإخوان الذين يملكون مصنعًا للنسيج في بقعة لعلها أكثر بقاع القاهرة شعبية هي "العطوف" واتفق معه أن يعمل بمصنعه كعامل فترة ما، وحدث هذا بالفعل لمدة قرابة شهر ألم فيها بأساسيات إدارة آلات النسيج، وترك المصنع بعد أن أعطاه الرجل شهادة بأنه عامل بمصنعه، وبهذه الشهادة تقدم إلى "النقابة العامة للغزل والنسيج بالقاهرة وضواحيها"، وكان سكرتيرها نقابيًا عريقـًا يمت للإخوان بصلة، فدخل الجمعية العمومية للنقابة كعضو مرشح لمجلس الإدارة وفاز بعضويتها.

كانت فكرة جمال البنا أن من يعمل للحركة النقابية يجب أن يلم إلمامًا عمليًا بعالم العمال، وكان قد قرأ عن تجربة لمدام بياتريس وب عندما كتبت كتابها الذائع عن الحركة النقابية وأنها انخرطت لفترة وسط عاملات الخياطة اللائى كن يخضعن لأسوأ صور الاستغلال، على كل حال، لقد كان أمينـًا في محاولته، ولكنها كانت غير طبيعيـة لأنه لم يكن بالطبيعـة عاملاً، وقد سـمع بإذنـه عاملاً يهمس لآخـر: "الشـاب ده مش عامل.. ده عامل عامل !"، واختير مراجع للحسابات في مجلس الإدارة، وكان رئيس النقابة شخصًا ديماجوجيًا بمعني الكلمة له اتجاه شيوعي/وفدي يدعى محمد علي عامر ويطلقون عليه "شيخ العرب"، وبعد فترة نشأ شقاق ما بينه وبين جمال البنا.

وتحير مجلس الإدارة ثم انتهى باستبعاد الاثنين، وكان الفريق الموالي لجمال البنا قد وضع هذه الخطة ليتم التخلص من محمد عامر ثم يمكن أن يستعيدوا جمال البنا، وقد حدث بالفعل وكتبوا إليه خطابًا رسميًا باستعادة عضويته في مجلس الإدارة، ولكنه كان قد عزف عن العمل النقابي، وتبين أنه ليس مكانه، وأن مكانه هو "ترشيد" الحركة النقابية المصرية التي لم يكن لديها أدنى فكرة عن عمل نقابي رشيد، وهكذا اعتزل العمل الميداني ليرجع إلى ميدانه المحبوب ــ القراءة والكتابة ــ وكان ثمرة ذلك قرابة ثلاثين كتابًا عن الحركة النقابية في مختلف دول العالم أو في جوانبها المختلفة كالحرية النقابية والديمقراطية النقابية والتنظيم والبنيان النقابي.. الخ.

وتأسست في أواخر الخمسينات "المؤسسة الثقافية العمالية" وتزعمها شخصان بارزان من موظفي مصلحة العمل هما عبد المغني سعيد وأمين عز الدين، وكان لجمال البنا معرفة عابرة بهما، وعين عبد المغني مديرًا لها، ورأى جمال البنا فيها لقطة من السماء كما رأت المؤسسة فيه ذلك أيضًا، فلم يكن هناك شخص آخر لديه الإلمام العلمي بالحركة النقابية، فأوكل إليه إلقاء المحاضرات الثقافية في المراكز

النقابية التي أقامتها في القاهرة ولعدة سنوات أخذ جمال البنا يذرع القاهرة من شمالها لجنوبها ومن شرقها لغربها ليقدم محاضرات لعشر مراكز في القاهرة، وكان معظمها مشيًا على قدميه، وإلى هذه الفترة من السير الطويل يعيد جمال البنا احتفاظه بدرجة كبيرة من اللياقة الصحية عندما تقدم به العمر، وفي أكتوبر سنة 1963 تأسس معهد الدراسات النقابية بالدقي، وعهد إلى أمين عز الدين بوضع نظامه وهو أفضل شخص في مصر يقوم بهذه المهمة، وأخذ المعهد فيلا وراء نادي الصيد وكانت الدراسة فيه إقامية إقامة كاملة لمدة شهر، وخصص لكل دارس كتابًا عن موضوع الدراسة، كما وضع نظامًا للتغذية وللحصول على الصحف.. الخ، وفي هذا المعهد درس معظم قادة الاتحادات العمالية العربية فقد كانت تلك هي فترة القومية العربية، بما في ذلك بالطبع كل وزراء العمل المصرية حتى السيدة عائشة عبد الهادي وزيرة العمـل الآن، أما المحاضرون فكانوا من أعلا أساتذة الجامعات المصرية مثل الدكتورة عائشة راتب والدكتور الطماوي والدكتور عز الدين فودة وآخرين، وبعضهم مديري الجامعات، على أنهم رغم أستاذيتهم ما كانوا يحكمون الحركة النقابية، وكان جمال البنا هو الوحيد الذي يمكن أن يكون على مستواهم، وفي مناسبة ما عقد المعهد اجتماعًا للمحاضرين ووجد جمال البنا شخصًا لا يعرفه بجواره عرفه بنفسه أنه مدير معهد تدريب الضباط وأن تلامذته من مقدم فصاعدًا، وهكذا بدأ جمال البنا محاضراته من الدورة الأولى للمعهد 1963 وظل يحاضر بالمعهد ثلاثين سنة متصلة من 1963 حتى 1993 بعد أن توفى عبد المغني سعيد وأمين عـز الدين وجاءت أجيال أخرى من العمـال.

وفي الثمانينات تعرف جمال البنا على الدكتور أحمد عبد العزيز النجار رائد تجربة البنوك الإسلامية، ولا يعرف جمال البنا على وجه التحديد أسباب هذه المعرفة، ولكنه يذكر أن أحد العاملين في الثقافة العمالية ــ وكان وقتئذ أمين مكتبة الاتحاد العالمي للبنوك الإسلامية ــ جاءه يرجوه مقابلة الدكتور النجار، وقال له: إن الدكتور طلب من معاونيه أن يحضروا جمال البنا من تحت الأرض، ولم يكن هناك من يعرفه، ولما علم أمين المكتبة ذهب إليه وقال له: إنه يعرفه، فطلب منه أن يذهب ويأتي بي، وكانت تلك هي طريقة هذا الرجل "عملي" و "حامي" ولا يعرف بيروقراطية، ولما قابلته أهديته نسخة من كتاب "روح الإسلام" وبعد ثلاثة ايام أيقظني رنين جرس التليفون في موهن من الليل ورد عليّ الدكتور النجار، وقال: أنه طلبني لأنه لم يطق الانتظار، لأنه قرأ في "روح الإسلام" كل ما كان يريده وطلب السماح له بطبع الكتاب، وبعد هذا عين جمال البنا مستشارًا من مستشاري الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية الذي كان هو أمينه العام وروحه المحرك بمكافأة مائتي جنيه شهريًا، وكان بين آونة وأخرى يحول عليه ورقة أو مشروعًا لإبداء الرأي، وعندما أراد تكوين معهد للبنوك الإسلامية في قبرص التركية جمع نخبة ممتازة من الفنيين الذين تتوفر فيهم الفنية والإيمان، وكان جمال البنا أحدهم، وعكفوا في جلسات متصلة لمدة أسبوعين، كما ذهبت اللجنة إلى قبرص التركية لمعاينة المكان.

وظلت صداقة جمال البنا بالدكتور النجار متصلة، وكتب هو مقدمة كتابه الهام عن البنوك الإسلامية، ولكن الرجل مات متأثرًا برحلاته المتوالية وما تعرض له في سنواته الأخيرة من معارضة جعلته يرفع قضية على بنك فيصل مع أنه كان هو أكبر مؤسسيه ووعد جمال البنا بأنه إذا كسب القضية فسيتبرع بجزء كبير منها لمشروعاتنا وتوفى قبل إنهاء القضية التي سقطت بوفاته.

* * *

هل لم يكن للإسلام نصيب في هذه الرحلة الثقافية الطويلة من الثلاثينيات حتى السبعينات ؟ بالطبع وجد، فالإسلام كان أحد الجذور التي كونت شخصية ونفسية جمال البنا، وكل الاهتمام به في هذه المرحلة أيضًا ــ بالدرجة الأولى ــ على التاريخ الإسلامي وكان في مكتب والد جمال البنا عدد من النسخ من كتاب "البداية والنهاية" يبدو أن إحدى المكتبات قدمتها للشيخ مقابل بعض نسخ "المسند"، وكتاب "الكامل" لابن الأثير، وتاريخ الطبري، و"الإمامة والسياسة" لابن قتيبة، فقرأه، وكان من الكتب المتوسطة الحجم عن التاريخ الإسلامي كتاب باسم "حماة الإسلام" تأليف الكاتب السوري رفيق العظم كان من الكتب المقررة في دراسات الإخوان، وقرأ جمال البنا كتب الشيخ أبو زهرة كلها، وقبلها كان قرأ أول من كتب من الشيوخ عن التاريخ الإسلامي وهو الشيخ عبد الوهاب النجار الذي أصدر كتابه عن تاريخ الخلفاء الراشدين ولا يمكن حصر الكتب التي قرأها عن التاريخ الإسلامي.

ولكن أهم من هذا أن جمال البنا ظل وثيق الصلة بالقرآن، وكان يقرأه المرة تلو المرة ويحفظ بعض سـوره، ولكنه لم يكن موهوبًا في الحفظ، وكانت تلك هي إحدى نقط الضعف في جمال البنا كمحاضر إسلامي، فما لم يرصع المحاضر كلمته بآيات من القرآن يجيد حفظها وتلاوتها فإن المحاضرة تفقد طابعها الإسلامي.

ويدل كتاب "مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم" الذي صدر سنة 1952 على العلاقة الوثيقة ما بين جمال البنا والقرآن الكريم.

وعُني جمال البنا بدراسة أصول الفقه، ولكنه لم يحاول أن يدرس "الفقه"، أي القضايا الفرعية والجزئية لأنها تمثل أحكام الفقهاء، وكان جمال البنا يرى أن الفقهاء أبناء عصرهم من ناحية، ومقنني الدولة التي كانت قد وصلت إلى مستوى الإمبراطورية، وكان هذا يبعدهم عن عالم القرآن والرسول.

* * *

[7]
روافد أوروبية وعصرية

كان جمال البنا قد تبين أن من الضروري له أن يحكم الإنجليزية حتى يستطيع الإلمام بالمراجع بلغتها، وكان قد قابل الأستاذ محمود حسني العرابي ــ الزعيم العمالي والسكرتير العام لاتحاد النقابات في العشرينات من القرن الماضي الذي اتجه اتجاهًا شيوعيًا وأوفد إلى موسكو ليطلب انضمام الاتحاد المصري للكومنترن ــ الأممية

العمالية التي أسسها لينين لينافس بها بقايا الدولية الثانية التي مزقتها الحرب العالمية الأولى ــ وكان محمود حسني العرابي هو الزعيم العمالي المصري الوحيد الذي قابل لينين، وأصر لينين على تطبيق النقاط الـ 21 التي وضعها لقبول عضوية الكومنترن، وكانت تقضي بأن يقوم التنظيم العمالي باضرابات ومظاهرات مناصرة للاتحاد السوفيتي الوليد، وأوضح حسني العرابي للينين الظرف الخاص، وأن مصر الآن تقوم بثورة شعبية يرأسها حزب الوفد، وإن أي مظاهرة ضده ستقضي على اتحاد العمال، ولكن لينين أصر، وعاد حسني العرابي بأوامر لينين وبدأ في تطبيقها الاتحاد، وكان في هذا نهايته، ليس هذا هو المهم، فالحديث ذو شجون، المهم أن جمال البنا في إحدى منعطفاته العمالية قابل الأستاذ حسني العرابي وكان جمال البنا قد قرأ ترجمته لكتاب ماكدونالد عن الاشتراكية، وسأله كيف أحكم الإنجليزية، فضحك وقال "بالقوة"، ووضح ذلك أنه تعلمها بجهده الخاص وبعد كفاح عدة سنين، ورأى جمال البنا أن عليه أن يسلك الطريق نفسه وكافح عددًا من السنين حتى لانت له اللغة وبدأ يتفهم سطور الكتب، في هذه الفترة كانت المعسكرات البريطانية في الإسماعيلية وفايد وغيرها تستغني عن كتبها التي كانت توفرها لجنودها، وامتلأت أسوار حديقة الأزبكية ــ السوق الشعبي للكتب ــ مئات النسخ من الكتب الإنجليزية التي كان يصدرها نادي الكتاب اليساري Left Book Club، وكانت تصدر بطبعات شعبية بغلاف أحمر مكتوب عليه "لا يباع للجمهور"، وكانت الأربعينات هي إحدى فترات ازدهار الفكر الاشتراكي والعمالي في بريطانيا، وتمكن حزب العمال من نيل الأغلبية في مجلس العموم وتكوين الوزارة سنة 1945، وكانت كلها سياسية اشتراكية الاتجاه، بالإضافة إلى آلاف الطبعات من طبعة "بنجوين" و"بليكان" الشعبية، وكان جمال البنا زبونـًا دائمًا ويوميًا لسور الأزبكية يعرفه كل بائعيها، وكان يشتري كل يوم عددًا منها بما لا يزيد عن خمسة قروش وربما أقل للكتاب، وكانت هذه الكتب هي أساس المكتبة الإنجليزية لجمال البنا التي بلغت ثلاثة آلاف كتاب.

على أن سور الأزبكية كان يعرض أحياناً أعظم المراجع الكلاسيكية أهمية لأنه كان يشتري مكتبات العلماء بعد وفاتهم، وفي إحدى المرات ذكروا لجمال البنا أنهم سيشترون مكتبة الدكتور لهيطة وكان يعرفها عندما زاره بمنزله، وكان الدكتور لهيطة قد نال الدكتوراه من جامعة ليدز في العشرينات عن موضوع عمالي، فأكد عليهم جمال البنا إخطاره بمجرد شرائهم لها، وقد كان فأسرع جمال البنا واشترى مجموعة ثمينة ولا تعوض عن الاقتصاد البريطاني والاشتراكي منها كتاب "رأس المال" لماركس وعددًا أخرى من الكتب اليسارية والعمالية وكثيرًا ما أحس الندم لأنه لم يشتر بعض الكتب للاختلاف في ثمنها ببضعة قروش.

ويذكر جمال البنا أنه قد مر على السور فرأى كتابًا عن الحركة العمالية الأمريكية خلال الفترة من 1940 إلى 1945 وكان كتابًا ضخمًا في 700 صفحة فلما اشتطوا في ثمنه قال لهم إن هذا الكتاب لا يمكن أن يشتريه إلا شخص واحد يدعى أمين عز

الدين إذا وقع بصره عليه وهيهات، ولكن حدث بالفعل أن كان أمين عز الدين يمر على السور ــ وكان هذا من عادته ــ ورأى الكتاب فوقف عنده ولما اشتطوا في الثمن قال لهم إن كتابكم هذا لا يمكن أن يشتريه إلا شخص واحد هو جمال البنا وتركه لأنه رغم أنه كان أكثر المفكرين المعنيين بقضية العمل والنقابات فإن وقته كان مزدحمًا ولم يكن مستعدًا لقراءة 700 صفحة عن الحركة العمالية في أمريكا خلال خمس سنوات، ولكن جمال البنا كان يضع كتابه المشهور عن الحركة العمالية في أمريكا، ولهذا عاد إلى السور ليجد الكتاب وليشتريه في النهاية.

كان إقبال جمال البنا على تعلم الإنجليزية نفعيًا خالصًا، بمعنى أنه لم يتعلمها للاستمتاع بالبلاغة الإنجليزية أي شكسبير وبقية الشعراء والأدباء ولكن ليفك طلاسم اللغة وليتعرف على مراجعه في الاقتصاد والحضارة والتاريخ والحركات الشعبية.. الخ، وظل حتى الآن لا يتذوق الأدب الإنجليزي، بل ولا يتكلم بطلاقة اللغة الإنجليزية، كانت إنجليزيته إنجليزية قارئ لا إنجليزية متحدث.

ولا يمكن حصر الكتب الإنجليزية التي قرأها جمال البنا في الخمسينات والستينات، ويمكن القول أنه في الأربعينات والخمسينات كان يقــرأ كتابًا إنجليزيًا كل يومين أو ثلاثة، ومكتبته الإنجليزية تضم ثلاثة آلاف كتاب، الكثير يحمل توقيعه وتاريخ شـرائه وبعض التأشيرات، إن إصداره لعدد من الكتب عن الحركة النقابية في بريطانيا والحركة النقابية في الولايات المتحدة، وكذلك كتابة عن "ظهور وسقوط جمهورية فايمار" وإحساسه العميق عن ضرورة الإتقان والإحاطةبكل صغيرة وكبيرة، وأنه قد لا يستفيد من كتاب ما إلا من بضعة صفحات أو سطور، وفكرته عن أن الحركة النقابية هي جزء لا يتجزأ من مجتمعها ولا يمكن فهمها إلا بعد فهم هذا المجتمع بسياساته واقتصادياته وخلفياته الحضارية، فهذا كله جعله يغوص في أعماق المراجع والكتب عن بريطانيا وأمريكا وألمانيا والا تحاد السوفيتي بوجه خاص، وكان جمال البنا يفكر في تأليف كتاب عن الاتحاد السوفيتي بعنوان "المخاض الدموي وظهور الاتحاد السوفيتي" يماثل كتاب "فايمار"، وكذلك كتاب عن تركيا بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت هذه الدول روسيا وألمانيا وتركيا هي الدول التي حكمت عليها الحرب العالمية الأولى بالهزيمة، وكان عليها أن تعمل لاستعادة كيانها وجاءت الفكرة بعد هزيمة مصر سنة 1967 لضرب المثل لعدم الاستسلام لليأس بعد الهزيمة، وأخذ جمال البنا يستعيد تاريخ روسيا من القرون الوسطى حتى مشارف العصر، واشترى قرابة ثلثمائة كتاب وضعها في "مكتبة خاصة" وتصفح الكثير منها ووضع الهيكل العام.. الخ، ولكن "جمح الزمان" وظهرت اهتمامات أولى وبهذا استبعد جمال البنا فكرة إصداره ولم يضع ما قرأه هدرًا، فإنه زود جمال البنا بثقافة شاملة عن "روسيا" ثم عن "لينين" بطل ثورة 17 أكتوبر، وكان من أفضل ما استفاده تعرفه على الكاتب إسحق دوتشر وثلاثيته عن تروتسكي وكتاباته عن لينين وثورة أكتوبر، وكان جمال البنا يرى أن من الضروري لكل مثقف في العصر الحديث، بما في ذلك المثقف الإسلامي أن يدرس الحركة الاشتراكية منذ أن فكر فيها روبرت أوين حتى أحكمها ماركس في نظريته، وحتى

حققها لينين بطريقته الخاصة، وبقدر ما أعجب بمرحلتها "العذرية" الإنسانية الأولى بقدر ما ضاق بالطوق الحديدي الذي طوقها به ماركس وبالأسلوب الديكتاتوري الرافض لكل حرية الذي طبعها به لينين، ولكنه مع ذلك يفهم تجاوب كل المفكرين الإنسانيين الأوروبيين معها باعتبارها نظرية للعدالة وللجماهير، لعدم قيام الكنيسة كحامية للعدالة والإنسان، ولأن المجتمع الأوروبي لم يكن لديه فكرة عما جاء به الإسلام، كما استبعد جمال البنا إصدار كتاب تركيا، ولو قدر لهذين الكتابين أن يصدرا، وأن يكونا على غرار "فايمار" لقدما إضافة متميزة في الأدب السياسي.

غرست هذه الروافد بعض المبادئ المحورية والرئيسية في فكر جمال البنا، مثل فكرة الحرية في مجال الفكر والمعارضة السياسية، ومثل العـدل في مجال العلاقات ما بين الحاكم والمحكوم، الرجل والمرأة،، الغني والفقير، ومثل تقدير العمل الشعبي وكل الصور التي تأخذه وأبرزها الحركة النقابية وتحرير المرأة، كما كان يرى في القيم والمعرفة نورًا وقوة، وأعطته آفاقـًا فسيحة وعديدة للعمل السياسي ونهضة الشعوب والجماعات، ولكن أهم هذه الأفكار هو "الإنسان"، إن الإنسان هو الغاية، وكل ما عداه وسائل.

* * *

كانت السينما ــ أعني السينما الأمريكية ــ من الروافد الأوروبية التي أسهمت في تكوين ثقافة جمال البنا، لقد كانت النافذة التي مكنت جمال البنا أن يرى المجتمع الأمريكي مصورًا بعد أن قرأه مكتوبًا، وفي هذه الفترة ــ الأربعينيات ــ كانت هوليود نشطة وكانت تعج بالنجوم والأبطال مثل جوان كروفورد وجريتا جاربو ولانا تيرنر وجين هاريو وكولديت كوليير وكاترين هيبورن (التي كانوا يطلقون عليها أقبح الجميلات)، وكانت ممثلة قديرة وآخرهن ريتا هيوارث، ومن الرجال سبنسر تراسي وكاري جرانت وكلارك جيبل، وكانت معظم الروايات رومانتيكية بعيدة عن العنف ــ باستثناء الروايات التي صورت الحرب اليابانية/الأمريكية وقيادة ماك آرثر ــ ولكن لم تكن أفلام العنف هي السائدة، ومن الأفلام التي استمتع بها جمال البنا فيلم "أعظم استعراض في العالم" الذي أدت دور البطولة فيه بيتي هاتون، و"جسر واترلو" ورواية تولستوى "آنا كارنينا".

ولا ينس جمال البنا أمسية أمضاها في سينما حديقة الأزبكية التي كانت تعرض حفلاتها الصيفية عند الغروب، فما كان أجمل منظر الغروب الساحر، وما كان أرق النسيم، وكان ثمن التذكرة 5ر6 قرش دفعها جمال البنا ليجلس على مائدة مستقلة ويطلب "فواكه بالكريمة" وكان الفيلم هو "نينوتشكا" أحد الأفلام الأخيرة للمبدعة جريتا جاربو، ونينوتشكا رفيقة أوفدها الاتحاد السوفيتي لأمريكا لتبحث عن مجوهرات الأسرة القيصرية التي هُربت إلى هناك بعد مقتل أفرادها، فشاهد الرفيقة وهي تنزل من القطار وتحمل حقيبتها الكبيرة رافضة معونة الحمال وبعض تصرفاتها في الفندق،

وأبرز الفيلم المفارقات ما بين السلوك السوفيتي والسلوك الرأسمالي، وفي الفندق تقع في حب بطل القصة الذي يحبها أيضًا ويتعاون معها حتى يعثر على الجواهر المهربة وعندما يقدم إليها بعضها تقول "لا أنها ملك الشعب".

علمت السينما جمال البنا آداب المجتمع وقد سمع فيها لأول مرة كلمة "ضمير اجتماعي" وطريقة الأكل والشرب واللبس والحديث وقربته إلى الأسلوب الأوروبي في الحياة.. الخ، كما أتاحت له الاستمتاع بجمال البطلات وإحكام الإخراج واستخدام الألوان الطبيعية التي كانت حدثاً جديدًا، باختصار نقلتـه عبر الشاشة إلى لنــدن ونيويورك وباريس وبقية العوالم قبل أن يطأ بقدمه أرضًا أوروبية سنة 1978 بكثير.

وكان جمال البنا يذهب إلى السينما مرتين في الأسبوع، عادة في الحفلة السواريه (9 ــ 12)، وكان يعود بعد منتصف الليل فيفتح باب الشقة بمفتاحه ويجد والدته وقد تركت له عشاءه على المائدة.

أما السينما المصرية فلم يكن لها هذا الإبهار، وأما المسرح فلم يدخله للتعقيدات التي كانت تحوطه ولأنه لم يتقبل ابدًا الحركات المصطنعة والمواقف التي كان يرى فيها إسقاطاً وابتذالاً كأن يؤدي الرجل دور المرأة والعكس أو الحركات السخيفة لهز الوسط والردفين كما تفعل الراقصات، وفي نظره أن ممثلاً مثل الريحاني لم يحسن التمثيل إلا في المرحلة الأخيرة من حياته عندما لم يعد يمثل، ولكن يؤدي الدور كما يؤدي الحياة، فأرقى التمثيل هو ما لا يكون فيه تمثيل، هذا شيء لم يفهمه معظم الممثلين الذين نقلوا هذه الصور المتكلفة من الأداء المسرحي إلى السينما عندما تحولت مسرحيات عديدة إلى روايات سينمائية.

وقد استمر جمال البنا زائرًا للسينما حتى الخمسينات والستينات عندما انتقل بزوجته إلى مسكن مستقل في منطقة الظاهر، وكانت قبلاً حيًا يسكنه اليهــود الذين أقاموا به قرابة خمسة من دور السينما المتجاورة، ولكنه مع تكاثف المشاغل لم يعد يتردد عليها خاصة بعد ظهور التليفزيون الذي نقل السينما إلى البيت ولا يكاد يذكر أنه دخل سينما في العشرين عامًا الأخيرة من عمره، لأن صورة كل شيء تغيرت، صورة جمال البنا وصورة السينما وصورة المجتمع السهل الذي كان يمكن أن تجد السينما قريبة وأن تدفع فيها مبلغاً زهيدًا لا يذكر دون زحام القاهرة وصعوبة المواصلات ــ بما في ذلك التاكسي ــ وبُعد دور السينما ثم إن أجور تذاكرها أصبحت بالجنيهات وكانت قبلاً ذلك بالقروش.

كان تأثير هذا الرافد من روافد الثقافة الأوروبية أنها قربت جمال البنا من المجتمع الأوروبي، فبعد أن أساغه فكريًا وعقليًا نتيجـة للمطالعة، فإنها نقلته نفسيًا وعاطفيًا ليعايشه مع السينما فترة ما.

وهناك إسهام إضافي هو أنها حققت له قدرًا من الإشباع العاطفي وحصنته إلى حد ما من مضايقات فترة المراهفة والشباب وأنقذته من الكبت الحاد الذي كان المجتمع المصري التقليدي يفرضه بحيث لم يحس بوطأته.

* * *

[8]
أول الحصـــاد

في سنة 1945 أصدر جمال البنا أول كتبه "ثلاث عقبات في الطريق إلى المجد" وهو دراسة اجتماعية، وكانت حركة الخدمة الاجتماعية قد ظهرت في مصر وتكونت الجمعية المصرية للخدمة الاجتماعية، وكانت هناك بعض العلاقات لجمال البنا برئيسها "العشماوي باشا" والسيدة إلزا ثابت مديرة مكتب أحداث بولاق الذي عمل به الأستاذ سيد عويس.

ولكن عام 1946 شاهد ما يشبه انفجارًا، فكتب جمال البنا كتيبه عن "نقد الماركسية" وكتيبه الآخر عن "على هامش المفاوضات"، فضلاً عن كتابه الهام "ديمقراطية جديدة" وكان فصل "فهم جديد للدين" يتضمن بذور فكرة دعوة الإحياء ومبدئها الرئيسي وهو الإنسان ووجه فيه جمال البنا نداءه للإخوان المسلمين الذين كانوا قد وصلوا للأوج "لا تؤمنوا بالإيمان.. ولكن آمنوا بالإنسان".

وفي هذه السنة نفسها أسس جمال البنا حزب العمل الوطني الاجتماعي.

تجلت أصالة حزب العمل الوطني الاجتماعي في اسمه أولاً، وفي أهدافه ثانيًا، فلم يكن في مصر حزب يطلق عليه حزب العمل، ثم يضيف إلى ذلك الوطني وأخيرًا الاجتماعي، وهي البديل الذي اختاره جمال البنا بدل "الاشتراكي"، وكان الأصل الإنجليزي للكلمة يشترك في معنى "الاجتماعي" و "الاشتراكي" وأثر جمال البنا الاجتماعي للدلالة على الهوية "الحضارية" للحزب أكثر من الهوية "السياسية" له.

أما في الهدف فقد كان هدفه "انهاء فترة الانتقال الحضاري التي تمر بها مصر منذ أن دخل نابليون بمدافعه منهيًا العهد القـديم ــ عهد الفرسان والمماليك ــ ومؤذنـًا بعصر حديث لم يستطع المجتمع المصري أن يتوصل إلى التلاءوم معه مع المحافظة على مقومات و"هويــة" مصر.

من الواضح من التسمية، ومن الأهداف أنه حزب فريد بين أحزاب مصر وقتئذ التي كانت تحمل أسماء "الوفد" أو "الوطني" أو "الأحرار الدستوريين" أو السعدي"، أما بالنسبة للأهداف فهذا ما كانت تعجز عنه هامة وطاقة هذه الأحزاب.

المفارقة أن "جسم الحزب" كان أبعد ما يكون عن أن يحقق شيئـًا من أهدافه، لأنه كان مجموعة من العمال والطلبة وصغار الموظفين ــ حوالي عشرين أو ثلاثين ــ

وما كانوا يفقهون بالطبع هذه المضامين التي يوحي إليها اسمه وهدفه، ولهذا اقتصر أمره على نوع من النشاط الاجتماعي كإلقاء محاضرات أو تنظيم حفلات شاي، وأذكر أننا دعونا الشاعر ناجي ليحدثنا عن سيكلوجية الفكاهة، كما اقترح أحد الأعضاء ويدعى محمد مرسي وكان موظفـًا صغيرًا بالسكة الحديد أن يدعــو قريبه الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير "آخر ساعة"، وجاء هيكل وحدثنا كيف دُعي للأخوان ؟ وكيف اتصل بالأستاذ التابعي وكان كارهًا ؟ وكيف ذهبا ؟ وكيف قدم لهما قهوة كريهة، وسأله جمال البنا كيف توصل لإجادة الإنجليزية ؟ فقال إنه كان يقابل المراسلين العسكريين للحلفاء في أحد البارات المشهورة ويتبادل معهم الحديث، وفي مناسبة أخرى نظم الحزب حفلة شاي تكريمًا للسباح حسن عبد الرحيم عندما اجتاز "المانش" وكان حسن عبد الرحيم يمت إلى الإخوان بصلة، وفي هذه المناسبة علق الحزب على المدخل الخارجي لبابه يافطـة طويلة كتب عليها كلمة ترحيب "بحسن عبد الرحيم قاهر المانش" ولم تكن هذه اللافتات مألوفة وقتئذ، وإنما ألم بها جمال البنا من مطالعاته ومن مشاهدته للسينما الأمريكية، كما قدم الحزب لحسن عبد الرحيم تحية قصيدة شعرية كتبها الأستاذ عبد الباسط ــ شقيق جمال البنا ــ على ورق فاخر وبخط خطاط شهير، وكانت المائدة بسيطة فنجان شاي وبعض قطع الحلوى، ولكن حسن عبد الرحيم ألقى كلمة حارة أكد فيها أن هذا الحفل آثر فيه أكثر من الحفلات الكبرى التي أقيمت له.

وكان الحزب ينظم حلقات للمطالعة، كما كان يعير كتبًا للأعضاء وللآخرين أيضًا جذبًا لهم.

كان الحــزب تجســيمًا لجمـال البنا: مقـدرة في التنظير وقصـور في التنظيم، وقد تحلل عندما اعتقل جمال البنا، فلاذ كل الأعضـاء بالفرار بينما وضع صاحب البيت يده على متاع الحزب وكان طقم شاي وجهاز راديو وموائد يمكن طيها وعددًا من الكراسي في مقابل الإيجار المتأخر، وعندما عاد جمال البنا من المعتقل كان الحزب قد تلاشى.

مع هذا، فإن جمال البنا أعاد تجربة تنظيم هيئة مرة أخرى في أوائل الخمسينات أي عقب الإفراج عنه من الاعتقال ولكن بشكل مختلف تلك كانت "اللجنة الشعبية لإصلاح السجون"، وكان جمال البنا مهتمًا بقضية السجون خلال مطالعاته، كما قرأ شيئـًا عما بُـذل من جهود لإصلاحها في أوروبا، ولما اعتقل حمله بعض المعتقلين والمسجونين أمانة العمل لإصلاحها، وسنحت له الفرصة، فقدَّم لها بكتابة "عمود" في جريدة "الدعوة" وكانت وقتئذ من المجلات الذائعة الصيت تحت عنوان "من وراء القضبان"، واستطاع أن يجذب عددًا محدودًا من المعنيين بالقضية الاجتماعية بفضل اتصالاته بالسيدة سنية عنان صاحبة "مبرة فريال" وأختها السيدة بهيجة البكري التي سبق الإشارة إليها كان ممن عمل معه فيها خمسة من السيدات، واستغل جمال البنا

صفته الصحفية في زيارات للسجون، وكان من العوامل المهمة أن تلك كانت فترة الربيع القصير ما بين الإخوان وضباط يوليو وكان قد زار هو وبهيجة البكري عبد الحكيم عامر الذي تتبعه مصلحة السجون في مكتبه ورحب بهما، كما أرسل خطابًا يؤيد عمل اللجنة وقد طبعته في بعض كتيباتها وتصور قادة السجون أن هناك علاقة خفية تربط جمال البنا بسلطة الجيش، ولهذا كان يقابل بالترحيب ويسير معه المدير العام في أبهاء "طرة" ويتبعه عدد من الباكباشية يتلوهم عدد من الصاغات وبقية الرتب العسكرية، وكان يريه الخبز والطعام.. الخ.

وكان للجنة نصير في صميم السجون هو الصاغ عبد الباسط شقيق جمال البنا، وكان قد دخل في صراع مع سلطات البوليس بعد اغتيال الإمام حسن البنا، وأوقف عن الخدمة، ولكن الأمور انقلبت بعد حركة الجيش فأعيد واحتفظ له بأقدميته، وانتهى به الحال إلى سجن طرة، وكان عبد الباسط شخصًا جريئـًا مقدامًا لا يلتزم بتقاليد ضباط البوليس فكان يختلط بالمسجونين كما لو كان واحدًا منهم فوثقوا به، وعندما كان يحين موعد زيارة "اللجنة" كان يخطر المسجونين، وفي إحدى المناسبات اجتمعوا في ساحة الليمان وخطب فيهم جمال البنا وحملوه على الأكتاف وكان المشهد أشبه بطلبة وحرم جامعي مما هو بسجن ومسجونين، ومن سوء الحظ أن الفيلم الذي أخذه مصور مجلة "الدعوة" وكان يدعي "بزري" احترق في التحميض ولكن كان هناك صور أخرى لجمال البنا في وسطهم.

نجحت اللجنة الشعبية لإصلاح السجون، ولكن وزارة الشئون الاجتماعية اقترحت تغيير الاسم إلى "الجمعية المصرية لرعاية المسجونين وأسرهم" وجذبت عددًا من الشخصيات البارزة مثل المستشار محمد فتحي، وعقدت اجتماعات ما بين خبراء الجمعية وكبار موظفي السجون للنظر فيما طالبت به الجمعية من إصلاحات مثل عدم احتساب السـابقة الأولى، وتحطيم الأغــلال الحديدية والنوم على "برش".. الخ.

وكان لفيف من ضباط السجون ينقمون على الجمعية نجاحها وتدخلها في عملهم، وجاءت ساعتهم للانتقام سنة 1954 عندما احتدمت العداوة ما بين الإخوان والضباط، وبدأت الاعتقالات، فحبكوا مكيدة للجمعية تمكنوا بها من وضع يدهم عليها، وكان مما أيدهم في هذا سياسة الهيمنة على كل الجمعيات الأهلية التي اتبعتها الحكومة.

كان جمال البنا يستطيع لو استقتل في المعركة أن يستعيد الجمعية ولكنه كان قد زهد فيها، فليس هو "رجل الخدمة الاجتماعية"، ثم إن ظفره بها كان سيكسبه عداوة العهد، فنفض منها اليدين، وبعد أن كان مجلس إدارتها يضم سيدات ومفكرين أصبح يضم ضباط السجون وأشباههم، وتجمد نشاطها، بيد أن عملها الأول لم يذهب هباء، فقد تحقق ـ مع الزمن ـ الكثير مما طالبت به.

* * *

[9]
نقطة الالتقاء: الإنسان

عندما قام جمال عبد الناصر بانقلابه العسكري الناجح، بدأ جمال البنا في كتابة كتاب باسم "ترشيد النهضة.. دراسة عبر المستقبل المصري"، وأهداه إلى "الأبطال محمد نجيب وإخوانه لكي يظلوا أبطالاً وحتى لا يكون الفجر الكاذب"، وكان الفصل الأول بعنوان "تقييم حركة 23 يوليو" قدم فيه تعريفـًا للثورة بأنها حركة تقوم على نظرية محكمة تستهدف تغييرًا شاملاً وتشترك فيها الجماهير، وأن حركة عبد الناصر طبقـًا لهذا المعيار لا تعد ثورة، فليس لها نظرية محكمة، ولا تستهدف التغيير الشامل، ولم تشترك فيها جماهير، لأنها جمعية سرية من الضباط، هي إذن انقلاب عسكري، في الفصل الثاني "تساءل هلى يمكن تحويل الانقلاب إلى ثورة" بالنظر للظروف الخاصة بمصر، ومع أن هذا يستحيل نظريًا ؟ ولكنه ممكن إذا صدق العزم، وأول ذلك "البحث عن نظرية" وهو موضوع الفصل الثالث، ثم "حزب من نوع جديد" لأنه ابن الحركة، ولأنه سينادي بتغيير شامل وبهذا ينتهي القسم الأول من الكتاب وهو في قرابة 80 صفحة.

لم يكن جمال البنا يعلم وهو يكتب بسرعة وحمية ويرسل إلى المطبعة فورًا ما يكتبه لتجمعه وتطبعه أن المطبعة كانت ترسل نسخة مما تطبعه إلى الرقابة، وأن الرقابة ما أن فرغت من قراءة الفصل الأول حتى جن جنونها وقررت فورًا مصادرته، وجاء هذا بعد أن طبعت المطبعة الفصول الخمسة الأولى وهكذا، فلما مر جمال البنا على المطبعة كعادته ليسلمها ما كتبه ويأخذ منها نسخة مما طبعته ليراجعها ويثبت ما فيها من أخطاء حتى وجد أمامه لفيفـًا من الضباط وبعض الجنود وإحدى عربات البوليس، ولما علم الضابط بأنه هو المؤلف أخبره بمصادرة الكتاب وأخذ عليه تعهدًا بعدم مواصلة الطبع، ولما سأله عن الرقابة، قال من الممكن أن تذهب إلى البكباشي أنور السادات فهو كبير الرقباء قال هذا واشار إلى جنده الذين حملوا كل ما طبعته المطبعة وهو ورق "أفرخ" لم تطبق بعد لتكون "ملازم".

وذهب جمال البنا إلى البكباشي أنور السادات الذي أخبره أن أربعة من الضباط قراءوا كتابه، كل على حدة، وقرروا مصادرته.

فكر جمال البنا في رفع قضية، ولكن لم يكن في جيبه قيمة الرسوم المطلوبة لأنه دفع كل ما كان لديه للمطبعة، وحدث هذا كله في العشرة أيام الأولى من قيام الحركة، وكان جمال البنا يكتب بسـرعة وثقة.

وكانت الحركة قد أصدرت في اليوم الثاني لها أمرًا بالقبض على قتلة حسن البنا وكانوا معروفين يتمتعون بمناصبهم البوليسية، ورأى والد جمال البنا أن هذه لفتة

تستحق الشكر، فجمع أبناءه وذهب لمجلس قيادة الثورة، فقابل أولاً محمد نجيب وثانيًا جمال عبد الناصر.

كان محمد نجيب صريحًا بسيطـًا، مهذبًا ليس فيه شــائبة كبر أو تكلف، وقد كان هو الذي أحبه شــعب مصــر للنظــرة الأولى، أما جمال عبد الناصر فقد كان شيئـًا آخر، يسكت ولا يتكلم يتفحص زائره بعينيه كعيني أفعى، يأخذ ولا يعطي، يسمع ولا يتكلم، ولكنه عندما قدم الوالد جمال البنا قائلاً: "هذا أصغر أبنائي"، بادره هل أنت شيوعي ؟ فذكر جمال البنا أنه كان قد استشهد بإحدى كلمــات "ماركس" عن الثـورة، وقال: "كلا.. بل إن لي رسالة نقد للماركسية"، فرد فما هو ذا الكلام الذي قلته في كتابك ؟ كان عبد الناصر عدوًا مطبوعًا للشيوعية، وظن أن جمال البنا شــيوعي، أو أن لديه ميــول شيوعية مضادة للحركة.

مع أن الحركة لم تتسم وقتئذ ببادرة عداوة، فإن جمال البنا فهم من المصادرة أنهم لا يسمحون بنقد، فآثر أن لا يدخل معهم في معركة، وقرر أن يقصر نشاطه على العمل النقابي دون السياسي أو الديني.

كان جمال البنا قد حصل على رخصة مجلة أسبوعية تصدر شهرية باسم مجلة "الفكر" في فترة ربيع العلاقات مع ضباط الحركة "بضمانة" من أحد أصدقائه من أعيان الريف، وكان هو صاحب الامتياز ورئيس التحرير، ولم يكد يبدأ في إجراءات الإصدار حتى فوجئ بحدث 1954 (محاولة اغتيال عبد الناصر بميدان المنشية بالإسكندرية والهجوم الوحشي على الإخوان) فتوقف، وبعد فترة كان يطبع أعدادًا رمزية ثم استقر رأيه على أن يصدرها في شكل كتيب، كان أولها "موقف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة"، ثم الثاني "الأزمة والبطالة في الرأسمالية"، وكان كل منهما في قرابة 160 صفحة من القطع الصغير، ثم فتر اهتمامه بها لأنه وجد أن تحريرها سيشغله عن المهمة التي نصب نفسه لها وقتئذ في الحركة النقابية، فتراخى في الإصدار حتى جاءه إنذار بأنه إن لم يواصل الإصدار فإنه سيفقد ترخيصه، فلم يرد.

طوال الحقبة الناصرية استبعد جمال البنا أي نشاط ميداني، وعكف على محاضرات المؤسسة العمالية ومعاهدها، كما أصدر قرابة ثلاثين كتابًا عن الحركة العمالية المصرية، أحدها عن تاريخها من البداية حتى الفترة المعاصرة في 750 صفحة، والآخر عن الحرية النقابية في ثلاثة أجزاء تضم صفحاتها 700 صفحة، ولم يكن لدي الحركة العمالية شيء من هذا.

مع موت عبد الناصر وتولية السادات حدث انفراج فسمح بأن يعود جمال البنا لنشاطه الإسلامي، وبدأت البذرة التي وضعت سنة 1946 تتطور وأخذت مجموعة الكتب الإسلامية في الظهور فصدر في سنة 1972 "روح الإسلام" الذي طبع ثلاث

مرات، ثم "الأصلان العظيمان" سنة 1982 الذي حمل الفكر المتطور لجمال البنا إزاء القرآن والسُـنة.

نقطة اللقاء (الإنسان):

كانت مطالعات جمال البنا في السبعينيات والثمانينيات كلها تقربه من فكرة الإنسان، فكانت مطالعاته الأوروبية كلها تهدف إلى ذلك وأصبح إيمانه بالحرية ــ وهي قاعدة القيم الأوروبية ــ بدون حدود، في الوقت نفسه كانت دراساته للقرآن وللرسول ﷺ تصب في هذا المرمى، وهذا لأنه لم يلوث ذهنه بدراسات الفقهاء، ولا بحوثهم في الفقه أو التوحيد ــ وهي التي استكشف عوارها وكذلك السُـنة والتفسير ــ وهما قاعدة الفقه كله وقصر مرجعيته على القرآن وحده، وأنه في دراسته للإسلام كان يدرسه من خارج الإسلام وليس من داخله، ومن شأن هذا أنها أبعدته عن المؤثرات الجزئية وجعلته يرى الإسلام ككل، الإسلام كغابة دون أن تشغله أشجارها وجزئياتها وتعوقه عن أن يصدر أحكامًا كلية.

اكتشف جمال البنا أن القرآن يبدأ بمشية الله تعالى أن يجعل الإنسان خليفة له على الأرض وأن يسخر له كل ما فيها من مواد وقوى، وأنه علمـه الأسماء، أي مفاتيح ورمـوز المعرفة، وأنه أسجد له الملائكة، وأنه زوده بضمير وإرادة بحيث يكون الخيار له وتكون الحياة إرادة، كما تصور شوبنهور، كما أن القرآن تحدث عن حرية الفكر والاعتقاد بما لا يرقى إليه أي نص من نصوص حقوق الإنسان، بل وجعل الهدى والضلال خيارًا شخصيًا لا علاقة له بالنظام العام، لأن إيمان فرد أو كفره لن يؤثر في ملك الله، وإنما سيؤثر على نفسه.

وفي النهاية وجد في الإسلام ما أراده، وجد فيه أفضل ما انتهت إليه حضارة الغـرب: الحرية والعـلم والإرادة، وفيه أيضًا ما لا يوجد في حضارة الغرب ألا وهو العدل الذي يصون هذه القيم العظيمة ويحميها من الشطط .

وهكذا انتهت الرحلة الفكرية الطويلة لجمال البنا باستكشاف الإسلام وكانت نقطة التلاقي هي (الإنسان).

طوال ستين عامًا من سنة 1946 عندما بدأت الإشارة الأولى في فصل "فهم جديد للدين" في كتاب "ديمقراطية جديدة" حتى سنة 2000، كانت هذه الصورة الجديدة للإسلام محل دراسة وطرق ومعالجة، ولم يضق جمال البنا بأن تظل الدعوة حبيسة في أطوائه طوال هذه المدة لأنه رجل فكر، فكانت تعيش معه قدر ما كان يعيش معها، وكان لابد أن يدرس كل متداعياتها وأبعادها وأن يفرِّق من الإنسان الإسلامي والإنسان الأوروبي، ولم يحس حاجة لأن تظهر إلا عندما جاء الوقت الذي استكمل فيه هذا الجنين "العجوز" أعضاءه، فانزلق في مخاض طبيعي تطلبته الأجواء والظروف وكان ذلك سنة 2000.

وكان من حسنات ذلك أنها مكنت الداعية من أن ينظر طويلاً ــ ويعيد النظر ــ وسمحت للتطور الفكري أن يصاحب الفكرة ــ بحيث يضيف ويشطب ويعدل ــ حتى اللحظة الأخيرة وأبعد ذلك دعوته من أن تكون الدعوة الفطيرة أو البراقة، ولم يبـق إلا على ما أكد التطـور صحته.

والحقيقة أن الأفكار وإن كانت واحدة إلا أن بعضها أخذ صور وتأويلات عديدة كما في فكرة الحكم التي لم تكن في البداية مستبعدة من إطار الدعوة الإسلامية على أن تكون محكومة بضمانات إسلامية وضعها القرآن، وظهر هذا في كتاب "مسئولية فشل الدولة الإسلامية في العصر الحديث" الذي صدر سنة 1994 وكتاب "خمسة معايير للحكم الإسلامي"، ولكن هذه الفكرة تطورت بعد عشر سنوات في كتاب "الإسلام دين وأمة وليس دينـًا ودولة" الذي صدر سنة 2004، والذي استبعد أن تكون الدولة جزءًا لا يتجزأ من الإسلام.

تحدث "توينبي" عن فترة اعتكاف صانع الحضارات التي يغيب فيها.. يحاور نفسه.. ويطهر أعماقه بما ينتهي إليه فكره قبل أن يظهر، إن ظاهرة الاعتكاف ثم العودة قد ظهرت في اعتكاف الرسول والسيد المسيح وتصورها نيتشه في "هكذا تكلم زرادشت"، وقد حدث شيء مثل هذا لجمال البنا.

وإلى هذه المعايشة الطويلة يعود ثباتها، وأنها لم تتأثر بسن صاحبها كما تأثر دعاة "التنوير" في مصر طه حسين وهيكل ومنصور فهمي والعقاد وعلي عبد الرازق.. الخ، عندما بلغوا سن الشيخوخة، فإنهم تخلوا ــ بدرجات متفاوتة ــ عن بداياتهم الباهرة، وآووا إلى نوع من الحفاظ، إن جمال البنا لم تزده السنوات إلا شبابًا في الفكر، وفي العزيمة، وفي الإرادة، وفي الإنتاج أيضًا.

ما هي دعوة الإحياء الإسلامي ؟

تتمحور دعوة الإحياء الإسلامي حول فكرة رئيسية هي "**الإنسان المستخلف**"، فقد شاءت إرادة الله أن يجعل الإنسان خليفة له على الأرض، وفي دين كالإسلام صارم في التوحيد فإن هذا يكون أعظم تكريم يمكن الوصول إليه، كما يلحظ أن الله أمر الملائكة أن تسجد لآدم في حين أن لا سجود في الإسلام إلا لله.

لهذا خلق الله الإنسان، كما خلق الأرض، بصورة مميزة ليكونا مجلى الله ومشيئته في الكون، فخلق آدم من طين إشارة لارتباطه بالأرض، ثم نفخ فيه من روحه فوهبه الضمير والوعي والإرادة، ثم علمه الأسماء كلها، وهو تعبير عن تملك الإنسان لمفاتيح المعرفة، كما خلق الأرض كوكبًا مميزًا بين ملايين الكواكب فجعل مناخها محتملاً، وشق فيها البحار والأنهار، وبسط السهول والجبال، واختزن في جوفها المعادن، وأوجد على سطحها الحيوان والغابات والنبات، ليكفل للإنسان حاجته من المأكل والمسكن والملبس.

واختار من بقاعها بقعة هي كانت أصلح البقاع لتلقي دعوة الإسلام، هي شبه الجزيرة العربية، حيث تنبسط الصحراء كالبحر، وتنطلق الرياح كالعواصف، وبين أقوام لم يكدحوا بأيديهم في الأرض، ولم يحملوا على ظهورهم الحجر، مما شغل حياة الناس في العهود القديمة، ولم تذل رقابهم لملك أو إمبراطور، ولم يخضعوا لمران النظم وضبطها وربطها، كانوا أحرارًا يعيشون عيشة البداوة وتحكمهم الفطرة أو العرف، ويعيشون في خيام يذهبون بها حيث الرعي أو في بيوت ساذجة ويتحملون الحر اللافح نهارًا والبرد القارص ليلاً، ويعبدون آلهة من صنعهم، فما كانت تملك تحريمًا أو تحليلاً أو تفرض قداسة أو "تابو" من أي نوع، ولم يكن لديهم ميثولوجيا كالميثولوجيا اليونانية، أو الميثولوجيا العبرية (وهى التوراة وما أضيف إليها من أساطير وروايات)، تثقل كاهلهم وتعقد أفهامهم، كانوا مثل "الفايكنج" لديهم الجرأة، والشجاعة، والثقة في النفس، والإقدام.

وكان البساط الأصفر المترامي للصحراء، والرياح المنطلقة دون ما يصدها من جبال شاهقة تمثل أبرز خصيصتين لهذا المجتمع: المساواة والحرية، فلم يعرف المجتمع العربي القديم النظم الطبقية، ولا الألقاب الوراثية، ولا الحواجز ما بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا، التي كانت مألوفة في الإمبراطورية الرومانية،

والفارسية، وواصلت البقاء حتى الثورة الفرنسـية، وظلت بقاياهـا حـتى الآن في بعض المجتمعـات الـتي تحمـل أرسـتقراطيتها الألقـاب الموروثـة، إن العـرب لم يعرفـوا الأرسـتقراطية المقننـة حـتى عنـدما وصـلوا إلى المرحلـة الإمبراطوريـة، فالحضـارات القديمة لم تستطع أن تخترق أساس المساواة الذي غرسته البادية وعززه الإسلام.

وأنزل الله الإسلام ليهدي هذا الإنسان المستخلف، فالإنسان هو الغايـة، والإسـلام هو الوسيلة.

لم تقدر الكتابات القديمة المعنى الكامل لاسـتخلاف الإنسـان، فمـا كـان ليسـمح لهم بـذلك عهـدهم القـديم ونظمهم المسـتبدة، وبحكم عهـدهم وثقـافتهم تصـوروا أن الاستخلاف هو صورة من صور "العبودية لله"، وشاع هذا التعبير في كتابات ابن تيمية، وانتقل إلى بعض المفكرين المحـدثين مثـل المـودودي الـذي تصـور أن مضـمون هـذه الخلافة هو كما لو أن أحدنا أرسل خادمًا له ليلبي أمرًا من أموره، فإن عليـه أن يحقـق ما أراده سيده دون إضافة أو نقص أو تساؤل.. الخ، إن هذا الإسقاط البشري على الله تعالى يدخل فيما قاله الله: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ (النحل: 74)، لأنه تعالى يعلم أنهـا أمثال "إنسانية" لا يمكن أن ترقى إلى حقيقة الله.

ويكفي للدلالة على خطأ فكرة المودودي أن الله تعالى لـو أراد من هـذه الخلافـة العبد الطائع الذليل لما زوده بعقل، ولا أتاح له إرادة، أو حرية.

إن الله تعالى خلق نوعًـا فريـدًا من الكائنـات هـو الإنسـان، نفث فيـه من روحـه، وعلمه الأسماء، وسخر له كل ما في الأرض، فكيـف يقـال إن صـلاحية هـذا الخليفـة لا تعدو صلاحية عبد يرسله سيده في مهمة عليه أن يؤديها حرفيًـا دون زيـادة أو نقصـان، دون فكر أو فهم ؟!!

إن كلمة عبد في القرآن إنما يريد بها الله تعالى "مخلوق"، بل وليس لها معنى إلا هذا، أما فكرة "العبد" التي توجد في مجتمـع الرقيـق، فهـذه من ثمـرات فكـر بشـري طبقي ساد في إحدى مراحل البشرية، ومحال أن تتطرق مثل هذه الفكـرة إلى مقـام الله تعالى وهو خالق الحرية والحكمة، وقد أراد القـرآن من إبـراز حقيقـة أن الإنسـان مخلوق استبعاد فكرة أنه "خـالق" أو "إلـــه"، وهـو أمـر محتمـل لأن الإنسـان معـرض للزلل، وعندما يظن الإنسان أنه خالق، وأنه سيد الوجود، فعندئـذ يكـون قـد نـاقض مـا أراده الله عندما اسـتخلفه وأتمنـه على الأرض، ووصـل إلى "الشـرك باللـه"، وهـو مـا ينتفي عندما يمـارس الإنسـان صـلاحياته كخليفـة للـه زوده بالعقـل والضـمير والحريـة والإرادة، وأن الله تعالى لا يتدخل في عمله بحيث يشل إرادتـه واختياراتـه الدنيويـة ولا يعاقبـه في الحيـاة الـدنيا، لأن محاسـبته إنمـا تتم في الآخـرة، وهـذا المعـنى متكـرر ومترادف في القرآن الكريم، بل إن عطاء اللـه تعـالى مبسـوط للجميـع غـير محظـور على الذين يريدون الحياة الدنيا، وإنما يحاسب في الآخرة بمعيار لا يظلم فيه أحد قيـد ذرة، ويحكم فيه برحمة من الله تعدل مائة مرة رحمة البشر.

إن الله تعالى وإن كان يعلم بكل صغيرة وكبيرة خافية وظاهرة، فإنه وضع للكون نظمًا يسير عليها، ووضع للمجتمع البشري "سننًا" يلتزم بها و"كتب" على نفسه اتباع ذلك كله، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وفي إطار هذه السُنن والنظم يجب أن تفهم الإرادة الإلهية لا أن نطرح مفاهيم المجتمع البشري على الإرادة الإلهية.

إن هذه البداية تغير فهم الإسلام تغييرًا جذريًا، فالإسلام نظام يقيم مجتمع الإنسان المستخلف على الأرض، ويجعله الغاية، ويجعل الدين الوسيلة، فهل هناك شرع يصل إلى هذه الدرجة من الإنسانية، دع عنك أنه يفوقها ؟

ومن الواضح أن قيام الإنسان الخليفة بوظيفته يتطلب مجتمعًا حرًا قيمته الأولى الرئيسية "المساواة"، بحيث لا يوجد تميز، ويخضع الجميع لسلطة القانون، كما لا يمكن أن يوجد هذا المجتمع إلا عندما يقوم على الحرية في الفكر والعدل في العمل.

فهم الرسول جيدًا هذا فأقام على الأرض، في المدينة، مجتمعًا يحقق للإنسان العزة والكرامة، وأرسى القيم التي تؤدي إلى هذا، وكان أبرزها المساواة، فكل المسلمين عدول يسعى بذمتهم أدناهم، وهم كأسنان المشط، ولا يعلو أي واحد على القانون، فالرسول ﷺ نفسه قبل أن يُقتص منه، والرجال والنساء، والفقراء والأغنياء سواء في الحقوق والواجبات، كما وضع نظامًا يكفل الأمن والأمان للجميع، ويبعد الخوف من الحاجة، فلم يكن في المدينة بوليس ولا سجون، كما كفل الأمن الغذائي وما تتطلبه المعيشة بسن الزكاة والتكافل الاقتصادي، فحقق إسلام الإنسان.

نعم إننا لا نجد في هذا المجتمع إشارات إلى حقوق الإنسان لسبب بسيط هو أن النظام بأسره قام أصلاً للإنسان، فذكر حقوق الإنسان فضول، وعلى كل حال فإن لكل عصر لغته واصطلاحاته وما يركز عليه من قيم أو شعارات. المهم أن مضمون الإسلام عند الإنسان كخليفة وتنظيم المجتمع الذي يحقق ذلك بتقرير المساواة والأمن والكفاية كان محققاً بالفعل لكل ما ينشده دعاة حقوق الإنسان في العصر الحديث، ولو أجرينا مقارنة ما بين ديمقراطية السوق في أثينا وديمقراطية الجامع في المدينة لرجحت كفة الأخيرة، لأن ديمقراطية السوق الأثينية كانت تستبعد الرقيق والنساء من المشاركة، وهم أغلبية سكان أثينا، في حين أن ديمقراطية الجامع كانت تدخل الرقيق والنساء، وتسمح بأن تقف امرأة لترفض رأي الخليفة، ويستمع الخليفة ثم يأخذ برأيها ويقول قولته التاريخية: "أصابت امرأة وأخطأ عمر"، دلالات هذا لا تخفى، فما كانت المرأة لتجرؤ على هذا ما لم يكن في أصله إيمان عميق بحرية الرأي وكرامة الإنسان وتقرير راسخ لمبدأ المساواة.

لم يستمر مجتمع المدينة وإسلام الإنسان سوى ربع قرن تقريبًا، عشرة أعوام حكم الرسول ﷺ، وسنتين ونصف حكم أبي بكر، وعشرة أعوام حكم عمر، وعندما طعن عمر بن الخطاب طعن هذا المجتمع، وبدأت الفتن والقلاقل مع انحراف عثمان عن سُنة الشيخين، واحتدام الخلاف، فقتل عثمان وهو يقرأ القرآن، وتدفع عنه زوجته حتى بترت السيوف أناملها، وقامت حرب عنيفة حول هودج السيدة عائشة ما بين الذين يوجهون سهامهم إليه والذين يدافعون عنه، ثم أخذ نصف المسلمين يحارب النصف الآخر في صفين، وقتل علي بن أبي طالب الذي أراد إعادة مجتمع المدينة، وختمت الحقبة سنة 40 هـ بتحويل معاوية بن أبي سفيان الخلافة إلى ملك عضوض لا يختلف عن أي ملك كسروي أو قيصري، فهو وراثي سلطوي مستبد، ومن هذا التاريخ استمر هذا الحكم السلطوي الفاسد حتى أنهى مصطفى كمال الخلافة سنة 1924.

* * *

يعود هذا الانتكاس إلى أسباب عديدة، من أبرزها أن منظومة المعرفة الإسلامية في الحديث والتفسير والفقه التي وضعها الأئمة الأعلام إنما نمت في الفترة التي بلغت فيها الدولة الإسلامية مستوى الإمبراطورية (الإمام أحمد بن حنبل) عاصر الخليفة المأمون، ومع أن هؤلاء الأئمة كانوا نابغين فعلاً، وأرادوا القربى إلى الله وخدمة الإسلام وتنهيج المعرفة الإسلامية، إلا أنهم لم يكونوا ملائكة معصومين، وكانت وسيلة التعليم الكتاب المنسوخ باليد، وأهم من هذا أن مقتضيات الدولة الإمبراطورية فرضت نفسها عليهم، ولم يكن لديهم بديل، وقد تعرض الأئمة الأربعة للاضطهاد، بمعني كان المناخ مناخ يسمح بغير هذا وكان لابد لأتباعهم من مسايرة الدولة فجاءت أحكامهم مجافية للقرآن مداجية للسلطان، كما أن الانتصار السريع للإسلام على ممالك طبقية شائخة أدخل في المجتمع الإسلامي الملايين من أفراد هذه الممالك، ودخلوا في الإسلام لبساطته وسماحته، ولأن هذا الدخول يفتح الطريق أمامهم إلى المراكز، واستطاعوا بحكم ذكائهم أن يتولوا التفسير والحديث والفقه واللغة.. الخ، ولكنهم وقد كانوا حديثي العهد بالإسلام، طرحوا مفاهيم وراثاتهم الحضارية التي لم يتخلصوا منها تمامًا على الإسلام، فبعدوا به عن روحه الأصيل، الحر، البسيط، وكان المجتمع الإسلامي يموج بملل ونحل ومذاهب عديدة، وأضيف إليها ترجمة الفلسفة اليونانية التي تأثر بها الفقه الإسلامي في مراحله الوسطى (الحكم العباسي).

ولم يخل الأمر من كيد دفين للإسلام.

مع توالي القرون تبلور "إسلام السلطان" في الفكر السلفي الذي سيطر على منظومة المعرفة الإسلامية، وأصبح هو المقرر، أو كما يقولون "إسلام السُنة والجماعة" واكتسب أئمته وقادته قداسة، وظل الأمر كذلك حتى مشارف العصر عندما بدأت اليقظة الإسلامية.

* * *

لم تستطع اليقظة الإسلامية التي بدأت مع جمال الأفغاني ومن عاصره وزامله أن تقضي على الفكر السلفي، لأن قوة جديدة كانت قد فرضت نفسها على العالم الإسلامي هي الاستعمار الأوروبي ومحاولته طمس الإسلام والعربية في عديد من الأقطار، فتركزت جهود المصلحين عليه، وأصبح ذلك هو الشغل الشاغل، وشغلوا به عن قضية تجديد التنظير الإسلامي فانفسح المجال للمؤسسات الدينية التي أخذت في الظهور واحتكرت تمثيل الإسلام، كما أن الانتلجنسيا في الدول الإسلامية لم تسهم بدور في هذا المجال، لأن بعضهم آمن بنظريات مجافية للإسلام كالاشتراكية والقومية، ولم يكن لدي معظمهم الإحكام الفني للموضوع، ولأن الحكومات وكلت إليهم المناصب خاصة في الإعلام فأصبحوا يسبحون بحمدها.

وظهرت تطورات في المجتمعات الإسلامية، فأصبحت السعودية ـــ بعد حرب رمضان وصعود أسعار برميل النفط من أربعة دولارات إلى أربعين ـــ قوة، وكونت رابطة العالم الإسلامي التي تولت تزويد الأقليات الإسلامية في أوروبا والدول الإسلامية الفقيرة بالأئمة والكتب وقامت ببناء المساجد، كما أن الأعداد الغفيرة من العمال والمهنيين الذين هاجروا بمئات الألوف إلى السعودية والخليج ثم عادوا بعد أن تأثروا بالفهم والعادات هناك ونقلوا هذا لبلادهم.

وهكذا كان على دعوة الإحياء أن تقوم بمهمة التجديد الإسلامي الجذري، وإعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية، وكانت دعوة الإحياء مهيأة لذلك، ففي سنة 1946 أصدر داعيتها جمال البنا كتاب "ديمقراطية جديدة" وخصص فيه فصلاً عن "فهم جديد للدين" وجه فيه الحديث للإخوان المسلمين الذين كانوا قد وصلوا إلى الأوج "لا تؤمنوا بالإيمان، ولكن آمنوا بالإنسان"، وظلت فكرة "إسلام الإنسان" طوال خمسين عامًا تختمر وتتطور ولم يعلن عنها إلا سنة 2000، لمناسبة صدور الجزء الثالث من كتاب "نحو فقه جديد".

وكانت الخطوة الأولى هي إبراز المبدأ المحوري مبدأ "الإنسان المستخلف"، والبرهنة عليها بدلائل من القرآن الكريم، وأن الرسول ﷺ طبق هذا المبدأ بالفعل في الفترة القصيرة التي حكم فيها وخلفه أبو بكر وعمر، بحيث كان مجتمع المدينة مجتمعًا إنسانيًا بمعنى الكلمة تسوده المساواة، ويكفل للفرد الأمن والأمان.

ووضحت دعوة الإحياء كيف أن هذا المجتمع انتهى تمامًا سنة 40 هجرية عندما حول معاوية بن أبي سفيان الخلافة إلى ملك عضوض، وأن ما أطلق عليها الخلافة التي استمرت حتى ألغاها مصطفى كمال في تركيا، لم تكن خلافة، ولكن حكمًا سلطويًا وراثيًا مستبدًا للأسباب التي أشرنا إليها آنفاً.

تريد دعوة الإحياء العودة مرة أخرى إلى إسلام الإنسان، وترى أن روح العصر الحديث تساعد على ذلك، وهي ترى ضرورة إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية على أسس (إسلام الإنسان وليس إسلام السلطان)، ووضعت

مجموعة من الكتب تفتح الطريق لـــذلك، وتشـــرح أسس التأســيس الجديد والمبادئ التي يقوم عليها.

وتضمنت المراجع الـتي وضـعتها الدعـــوة أكـثر من ثلاثين كتابًـا كبـيرًا تعـالج كـل جـوانب القضـية الإسـلامية (السياسـة، المــرأة، حــرية الفكـر والعقيــدة، الـدعوات الإسلامية المعاصرة، الفقــه، التفســير، السُــنة، التنميــة، الخطـوط العريضـة للحكم الرشــيد التي تضمنها القـرآن).. الخ.

المبـادئ العملية التي تتمخض عنها دعوة الإحياء الإسلامي، وكلها من صميم ما جاء في القرآن وهي:

(1) الإنسان المستخلف هو الغاية التي جاء لها الإسلام، فالإنسان هو الغاية، والإسـلام هو الوسيلة.

(2) المسـاواة في الحقـوق والواجبـات بين النـاس جميعًـا، وبلا اسـتثناء هي أسـاس مجتمع الإنسان المستخلف.

(3) العقل، وما ينشأ عنه من علم ومعرفة هو ما يميز الإنسان ومـا جعـل اللـه تعـالى الملائكة تسجد له، ولهذا فإن العقـل أسـاس النظـر الـديني، ولا شـيء يستعصـي عليه سوى ذات الله وطبيعته والعالم الآخر، ويستتبع هذا إشـاعة العلم والمعرفـة في المجتمع.

(4) العودة إلى القرآن الكريم واعتباره كتاب هداية، واستبعاد كـل التفاسـير وكـل مـا جاء بـه المفسـرون من نسـخ أو أسـباب نـزول، إن الصـياغة القرآنيـة فيهـا قـوة الهداية، والقرآن يـؤتي أثـره بالانطبـاع. لقـد كـانت التفاسـير افتياتًـا على القـرآن وتقولاً عليه بما لم يقل، ولهذا لم يستفد المسلمون من القرآن، وهو روح الإسلام وأداة التحرير والثورية فيه، وكانت في الحقيقة من أسباب تأخر المسلمين.

(5) السـنّة يجب أن تضبط بضوابط القرآن، وليس لهـا تأبيـد القـرآن. وهـذه القضـية من أكبر قضايا الفكر الإسلامي، لأن السـنّة كانت البـاب الـذي دخـل منـه أعـداء الإسـلام وتمكنـوا بوضـع الألـوف من الأحـاديث الـتي تطعن في القـرآن وتشـوه العقيدة، بـل وتشـوه صـورة الرسـول ﷺ، وانطلى هـذا كلـه على المحـدثين الـذين حرصوا على تجميع الأحاديث والروايات، واعتبروا أن الإسناد دليل صحة، في حين أنه كان وسيلة الدس التي مرر بهـا الوضـاعون أحـاديثهم، وليس من المبالغـة أن بعض المحــدثين توصــلوا إلى "إرهــاب" النــاس، وفرضــوا السـنّة على القــرآن وفضلوها عليه.

(6) اعتبار "الحكمة" أصلاً من أصول الإسلام، والحكمة الـتي قرنهـا القـرآن بالكتـاب، وقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ﴾، هي كـل مـا انتهت إليـه البشـرية من أحكـام ومبادئ وأصول ثبتت صلاحيتها على مر الأجيال، وليست هي بالطبع السـنّة، كمـا ذهب إلى ذلك الشافعي.

(7) اعتبـار الزكـاة فريضــة مقدســة كالصــلاة وتنظيمهــا بحيث تــؤدي دور "الضــمان الاجتماعي والتأمين"، إن الفقهاء لا يزالون يعـالجون الزكـاة بالـدرهم من الـذهب

والفضة، ولا يزالون يتساءلون عما إذا كانت تفرض على غير الإبل والشياه والنخيل، وكيف توزع.. الخ، إن المفروض أن نتعامل معها بطريقة العصر، فهي على كل الثروات والأموال التي تزيد عن حد معين، ويمكن أن توضع لها قوام شعبي تطوعي منظم ومنهج، كما يمكن أن تقوم الدولة به عن طريق جهاز مستقل عنها تمامًا (مثل القضاء)، وتكون ميزانيتها مستقلة تمامًا عن ميزانية الدولة، لدرجة أن القائمين عليه لا يتقاضون أجورهم من الدولة، ولكن يأخذونها من الزكاة نفسها، وتصرف منها على محدودي الدخل أو من يتعرض للبطالة والمرض.. الخ، طبقًا لما هو متبع في نظم الضمان الاجتماعي، وهي الترجمة الحديثة لما يقولون عن "مصارف الزكاة".

(8) كل ما جاءت به الشريعة من أحكام عن الدنيويات، وسواء كانت في القرآن أو السنة إنما أنزلت لعلة هي بصفة عامة العدل والمصلحة، فإذا حدث أن جعل التطور الحكم لا يحقق العلة (أي العدل والمصلحة) عدلنا في الحكم بما يحقق الغاية، وهو ما اهتدى إليه عمر بن الخطاب في اجتهاداته المعروفة، كما يحدث أن يقضي التطور على العلة نفسها لينتفي الحكم كما في أحكام الرق أو الغنيمة أو الجزية.. الخ، فالإسلام لم يوجد هذه النظم وإنما وجدها وحاول إصلاحها حتى وصل التطور إلى درجة تمكن من القضاء عليها، وهو ما أراده الإسلام.

(9) مجاوزة السلفية وعدم الاعتداد بها، فالسلفية هي الماضوية ولا نستطيع أن نعيش حاضرنا في ماضينا.

(10) استبعاد فكرة أن الإسلام يسيطر على كل شيء، إن الإسلام ـــ على أهميته القصوى ــ ليس إلا بُعدًا واحدًا من أبعاد متعددة للحقيقة كالعلوم والفنون والآداب والفلسفة التي تنطلق كل من منطلقها الخاص، وتقدم عطاءها الذي وإن اختلف عن عطاء الدين، فإنه لا يزاحمه، كما لا يستبعده الدين.

(11) حرية الفكر والاعتقاد مطلقة، والعلاقة ما بين الأديان هي علاقة تعايش.

(12) تحرير المرأة من الدونية التي جاءت بها بضعة أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وتقرير مساواتها بالرجل.

القسم الثالث

الاجتهـــــادات

مقدمة:

قال صاحبي: "كان لنا أنصار ومعجبون كثيرون"، ولكنك عندما أصدرت "فتوى" عدم إفساد التدخين الصيام في رمضان انفض نصفهم، وعندما أصدرت "فتوى" القبلات انفض النصف الآخر حتى لم يعد لنا من الأنصار إلا النذر القليل".

قلت له: تعلم أني لا أصدر "فتاوى"، ولكن أقدم اجتهادات، أفلا تلحظ أن هذين الموضوعين قد عولجا في عدد من مقالات "المصري اليوم"، ولم يكونا ردًا على سؤال كما هو الحال في الفتاوى ؟

أما بالنسبة لانفضاض الأنصار فنحن لا نهدف لكسب الأنصار، وإنما نكتب لتجلية الحقيقة وتبليغها للناس ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: 29)، وبقدر ما أننا على استعداد لتقبل التضحية في هذا السبيل، فنحن نرفض أي مساومة أو تنازل أو أن نلحظ مستويات الجماهير أو نخاطب الناس على قدر عقولهم، فهذا دأب السياسيين، وليس دأب المفكرين.

على أننا إذا كنا قد خسرنا القطيع الذي يرى الإسلام عمامة ولحية ومسبحة وبسملة وحوقلة، فإننا كسبنا قلة مفكرة عاقلة متحررة من الأوهام.

وحسبنا أننا في كل هذه الاجتهادات نعتمد على نص قرآني أو حديث نبوي أو ما يقضي به العقل والمنطق.

والفرق بيننا وبينهم أنهم يعتمدون على أحكام الأسلاف وأئمة الفقهاء، ونحن لا نعتد بهم، ولا نعتمد عليهم، ولا نلزم أنفسنا الأخذ بأحكامهم التي صدرت منذ ألف عام وفي ظروف ليست هي المُـثلى، وهم على كل حال رجال ونحن رجال، وقد أتيح لنا من مصادر الثقافة والمعرفة ما لم يحلموا به، فنحن أقدر على استخراج الأحكام منهم.

وفيما يلي سنعرض هذه الاجتهادات والأسس التي قامت عليها من الكتاب أو السُـنة أو العقل:

[1]

الاجتهاد الأول: تبادل القبلات

عولجت في القسم الأول من هذا الكتاب بما فيه الكفاية، وحسبنا أن نبرز التفرقة بين قبلة تحدث تحت السماء أو في نادٍ أو مجتمع، وبين قبلة في غرفة نوم بين زوج وزوجته، فتلك الأخيرة هي التي تمهد للمخالطة الجنسية.

[2]

الاجتهاد الثاني: عدم إفساد التدخين للصيام في رمضان

جاء أول ذكر لهذا الموضوع في مقالين نشرا في جريدة "المصري اليوم" وهما كالآتي:

هل أصاب الفقهاء عندما جعلوا التدخين مبطلاً للصيام ؟؟[1]

الشائع والمنتشر أن التدخين يبطل الصيام، ومن دخن سيجارة واحدة، أو حتى أخذ نفسًا اعتبر مفطرًا.

الغريب أن هذا الحكم وصل إلى حد الإجماع الذي لا يسأل عنه، كأنه بديهية، وأعتقد أن المسئول عن ذلك هو التعبير العامي الشائع عن "شرب السجائر"، وبديهي أنه مادام شرب فإنه يبطل الصيام.

ولكن هذا التبرير، الذي يبدو بديهيًا هو مما لا يصلح في الفقه، فمتى كانت الأحكام تقوم على تعبيرات عاميـة ؟ والتعبير نفسه غير ســليم، ولا يشفع له الانتشار والشيوع لأن الدخان لا يشرب، ولكن يستنشق لأنه ليس سائلاً.

مع هذا فيبدو أن هذا السبب هو عدم إشارة الكتب والمراجع الحديثة عن مبرر تحريم تدخين الدخان، فقد جاز الأمر على العلماء، كما جاز على العامة.

وقد جاء اليوم الذي نحقق فيه هذه القضية.

نحن لا نجد بالطبع لا في القرآن الكريم، ولا في السنة، ولا في المراجع التي كتبت في القرون الهجرية الثلاثة أي إشارة إلى تدخين، وهذا أمر مسلم به بالطبع لأن التدخين إنما ظهر بعد نزول الرسالة بأكثر من ألف عام، فلا يمكن أن يرد فيها شيء عنها.

وجاءت النصوص مقصورة على الأركان الثلاث: الامتناع عن الأكل، والشرب، والمخالطة الجنسية. والصيام شعيرة من شعائر العبادة، والعبادة لها طبيعة خاصة أشار إليها الفقهاء وتحدث عنها ابن تيمية فقال: "إن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينهم، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم...."،

---

(1) جريدة "المصري اليوم"، العدد الصادر في 6/9/2006

فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع.

أما "العادات" فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيها عدم الحظر، فلا يحظر منها إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله، " والعبادة" لابد أن تكون مأموراً بها، فما لم يثبت أنه مأمور به كيف يحكم عليه بأنه محظور ؟

ولهذا كان أحمد وغيره من فقهاء أهل الحديث يقولون: إن الأصل في العبادات التوقيف، فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله، وإلا دخلنا في معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى 21)، والعادات الأصل فيها العفو، فلا يحظر منها إلا ما حرمه الله، وإلا دخلنا في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً﴾ (يونس 59) انتهى.

ومرة أخرى، إن أصل الإباحة لا يقتصر على الأشياء والأعيان، بل يشمل الأفعال والتصرفات التي ليست من أمور العبادة، وهي التي نسميها العادات أو المعاملات، فالأصل فيها عدم التحريم، وعدم التقيد إلا بما حرمه الشارع وألزم به، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام 119) عام في الأشياء والأفعال.

ولوحظ أن القرآن يندد بكل من يحرم أو يحلل من تلقاء نفسه:

- ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة 103)
- ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمْ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام 138: 140).
- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف 32).
- ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل 116).
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس 59).

ويشتد هذا عندما يكون بتحريم ما لم يحرمه الله، لما في هذا من العنت والضيق بالناس.

وجاءت السنة النبوية مؤكدة هذا المعنى فقال الرسول: "ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن ليس نسِّيا"، وقال في صيغة أخرى: " الحلال ما أحله الله في كتابه، والحرام ما حرم في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا لكم ".

ومرة ثالثة "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها".

وقال: "إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم لأجل مساءلته".

هذه الآيات والأحاديث تعبر أصدق تعبير عن مسلك الإسلام تجاه تحريم ما لم يرد بشأنه نص صريح في القرآن، وإن السكوت عما سوى ذلك لا يعني نسياناً وإنما "رحمة بكم"، ولهذا يفترض أن لا يستدرك.

ولكن منهج الفقهاء غير ذلك، وهم يريدون دائماً الأحكام الجامعة المانعة، ويحرصون على أن لا تفلت منها فلتة، وعندما أرادوا أن يقعّدوا الأكل والشرب "باعتبارهما ما جاء النص عليه"، قالوا: "وصول عين يمكن التحرز منها إلى جوف الصائم من منفذ مفتوح انفتاحًا ظاهرًا يحس مع العمد، والعلم بالتحريم والاختيار".

فقولهم (وصول عين) خرج به وصول أثر، فلا يضر وصول الرائحة بالشم إلى الدماغ، ولا وصول الطعم بالذوق إلى الحلق من غير وصول عين من المذوق.. وقولهم: (يمكن التحرز عنها) معناه: "يمكن تجنبها والابتعاد عنها، وخرج به العين التي لا يستطاع تجنبها، ولا البعد عنها، فلا يضر دخولها الجوف، ولا تبطل الصوم، منها غبار الطريق، وغربلة الدقيق، والذباب، والبعوض، فإذا دخل شيء منها جوف الصائم فلا يبطل صومه لعسر التحرز عنها" (كتاب الصيام للشيخ عبد الفتاح القاضي ص 49).

أقول: إن هذا التعريف لا ينطبق على الدخان لأنه ليس "عيناً" فهو هواء، وهو يمتزج بالهواء الذي لابد وأن يستنشقه الإنسان فلا يمكن الاحتراز منه، فضلاً عن أنهم تقبلوا دخول الرائحة بالشم إلى الدماغ.. (وهل يفعل المدخن إلا هذا) ؟؟.. أو الطعم بالذوق إلى الحلق، أما العلم بالتحريم والاختيار، فلا يوجد تحريم سابق، ولا يعتمد تحريم الفقهاء على تحريم سابق لأنه ـــ كما ذكرنا ـــ لا يوجد في كتاب أو سُنة أو مرجع قديم.

على أني لا أريد أن أدخل في مساجلة مع العلماء لأن هذا يخالف منهجي، ولكني أقول: إن صدور تحريم يسري على الملايين دون الاستناد على نص صريح من قرآن

وسنة، ولكن على أساس الاجتهاد يجعل حكمهم قابلاً للخطأ، فضلاً عن أن هذا جاء في أمر عبادي يكون الوضع الأمثل هو التوقيف، فلا زيادة ولا نقصان، كما أنـه يخـالف روح الإسلام الذي يؤثر التيسير ويعزف عن التعسير والتضييق الذي يوقـع الـدين في حـرج، وقد يجاوز إطار الطاقة والوسع.

ونـرى أنـه حكم بـني على اجتهـاد بشـري في اسـتخلاص الحكم دون وجـود نص صريح، بل وجود نصوص صريحة تخالف الاتجاه الذي ذهب إليه الحكم.

ولا يقال هنا إن التدخين ضار بالصحة، وإن من الخير الإقلاع عنه أصـلاً، فنحن هنـا نتحدث عن حلال وحرام أنزلـه الله، والإسلام لم يطلب من الناس أن يبلغوا الغايـة، أو أن يتقـوا اللـه حـق تقاتـه، وإنمـا رضـي منهم أن يبـذلوا الوسـع، وأن يـأتوا منـه مـا استطاعوا، وقد دلهم على طريقة التعامل مع الضعف البشري بأن يقـدموا مـا يمكنهم لتعويض ما لا يمكنهم.

وللقضـية جـوانب خاصـة واجتماعيـة، كمـا تخضـع لـروح العصـر، لـذلك لم تصـل الحملات على التدخين لأن تغلق شركات السجاير أبوابها، فلا داعي لإعنات مجموعـات عديدة باسم الشريعة وتحميل الشريعة ما تتحمله أصوليًا.

ملاحظة: كاتب المقال لا يدخن.

* * *

أما المقال الثاني:

إنها قضية التحريم والتحليل الشرعيين [1]

أثار المقال الذي نشر بهذه الصحيفة الأربعاء الماضي بعنوان: "هل أصاب الفقهاء عندما جعلوا التدخين مفسدًا للصيام" موجة عالية من التنديد والاستنكار والدهشة لهذا الرأي العجيب الذي ما قال به أحد من السابقين، ولم يكن هـذا مقصـورًا على الـدوائر الدينية التي جن جنونها، ولكن أيضًا على العامـة، بـل وعلى المـدخنين أنفسـهم الـذين يلقون العذاب في رمضان، فهؤلاء أيضًا خضعوا لعملية غسيل مخ لا شعوري لما استقر في الأذهان من التحريم، فتقبلوا التحريم ولعلهم وجدوا في هذه المعاناة لذة كالعاشق الذي قال: "لي لذة في ذلتي وعذابي".

وفي هذا المقال ندفع القضية خطوة إلى الإمام فنقول: إنها ليست قضية الصيام، ولكنها ما هو أعم وأهم وأشمل ـ قضية التحريم والتحليل الشرعيين ـــ وعنـدما أقـول الشرعيين فإني أعني القـرآن والسـنة، أمـا آراء الفقهـاء واجتهـاداتهم وفتـاويهم فإنهـا ليست شرعية بهذا المعنى، حتى لو قيـل إنهـا مبنيـة على القـــرآن والسُــنة ؛ لأنـه في غيبة وجود نص صريح من القرآن والسنة فـإن البنـاء المزعـوم على القـــرآن والسُـــنة ليس إلا دعوى يقولها صاحبها، ولعله يؤمن كـل الإيمـان أنـه مصـيب ومحـق، ولكن من

---

(1) جريدة "المصري اليوم" العدد الصادر في 13/9/2006.

حق غيره أن لا يرى ذلك، لأنه ليس نبيًّا معصومًا ولا ملكًا منزهًا، إنه بشـر، و"نـاس من الناس" وأغلب الظن أن يخطئ فالحديث الشريف يقول: "كل بني آدم خطاءون، وخير الخطائين التوابون".

قـالوا لي: إن المفـتي حـرم التـدخين أصـلاً، فقلت لهم: ليس لأحـد أن يحـرم أو يحلل، ولا أن يقول هذا حرام أو هذا حلال، لأن هـذا هـو مـا اختص اللـه بـه، إنـه وحـده الشارع، وقد قال لنا بصريح العبارة: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِـفُ أَلْسِـنَتُكُمْ الْكَـذِبَ هَـذَا حَلالٌ وَهَـذَا حَـرَامٌ لِتَفْتَـرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَـرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ لا يُفْلِحُـونَ﴾ (النحل 116).

من أجل هذا كان أحمد (بن حنبل) وإخوانه لا يقولون هذا حرام ويلوذون بغير هـذا التعبير مثل هذا سيئ أو لا أراه.. الخ.

لقد أوضحنا في المقال السابق الأساس الذي بني عليه الرأي الـذي انتهيت إليـه، وهو أن الصيام عبادة، وفي العبادة يكون الموقف الشرعي هو التوقيف ــ أي الوقـوف ــ عندما جاء به الشارع دون زيادة ونقصان، وأستشهدنا بكلام لابن تيمية جاء به "ولهذا كان أحمد وغيره من فقهاء أهل الحديث يقولـون: إن الأصـل في العبـادات التوقيـف"، فلا يشـرع منهـا إلا مـا شـرعه اللـه، وإلا دخلنـا في معـنى قـول اللـه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُـرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى: 21)، والعادات والأصل فيها العفو فلا يحظر منها إلا ما حرمه الله، وإلا دخلنا في معنى قولـه تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْـهُ حَرَامـاً وَحَلالاً قُـلْ أَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَـرُونَ﴾ (يونس 59).

ومعروف بالطبع أنه لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة الشـريفة شـيء عن التدخين، لأن التدخين لم يكن معروفًا، وأقـرب شـيء إليـه هـو البخـور، وهـو لا يفطـر الصائم، ولم يظهـر إلا بعـد ذلـك بمئـات السـنين، ومن أجـل هـذا اقتصـرت النصـوص المقدسة (القرآن والسُـنة) على تحريم الطعام والشراب والمخالطة الجنسية.

إذا كان الأمر كذلك فكل ما انتهى إليـه الفقهـاء من تحـريم يمكن أن يـدخل فيمـا حذرت منه الآيات، ومع تسليمنا بأنهم أفرغوا وسعهم في الاجتهاد وأنهم أرادوا الحــق.. الخ، فـإن هـذا كلـه لا يجعـل لكلامهم الإلـزام الشـرعي، ويعـد اجتهـادًا بشـريًّا يخطئ ويصيب.

وكان مما قيل لي: ماذا يفعل الناس أمـام هـذه البلبلـة ؟ هـل يأخـذوا بكلامـك أو يأخذوا بكلام المفتي ؟.. فقلت لهم: ليأخذوا بالرأي الذي يختارونه وهـذا أفضـل من أن يكون هناك رأي واحد ملزم (مادام لم يصدر به قرآن أو سُـنة)، والأمر.. أمر ضمير.. لا رأي فلان.. ولا رأي علان.

لقـد آن لنـا أن نطلـق سـراح النـاس وأن نحـررهم من أسـر الفتـاوي، وضـرورة خضوعهم لها وتسليمهم تسليمًا، أعطوهم فرصة لإعمال عقولهم ولاستلهام ضـميرهم،

وهم بعد الذين سيحاسبون، ولن يغنيهم أن يقولوا: إنا أطعنا "المفتي"، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَـا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب 67).

وإذا كان الحديث "إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين، فحرم عليهم بمسألته" (وقد أخرجه البخاري ومسلم)، فإني أضع الفقهاء أمام ضمائرهم وماذا سيكون موقفهم يوم القيامة عندما حرموا على الملايين تلو الملايين شيئًا لم يكن محرمًا حتى حرموه.

ليس هناك إسلام كاثوليكي، وليس هناك بابا إسلامي يحرم ويحلل، والإفتاء والمفتي أمور محدثة، وقد أجاب الرسول أحد الناس "استفت قلبك.. وإن أفتوك.. وإن أفتوك".

وقد يقول قائل إن الصيام أريد به حرمان الصائم مما يشتهيه من طعام وشراب، ويدخل فيه التدخين الذي قد يكون أشهى إليه من الطعام والشراب، فأقول: إن الله تعالى أعلم منكم جميعًا، ولو أراد أن يحرم شيئًا لذكره أو لأشار إليه بما يوحي المعنى، ولكنه لم يشأ لأنه رأى في الحرمان من الطعام والشراب والمخالطة الجنسية مقنعًا وكفاية، فلا تزيدوا أنتم، وما أعظم إشارة القرآن ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ (الحجرات 7)، إن الإسلام يريد تأديب المسلمين، ولكن لا يريد تعذيب المسلمين ولا إعناتهم، فليس في الدين من حرج.

القضية إذن قضية التحريم والتحليل الشرعيين، وليست قضية تدخين السجائر في رمضان إلا جزئية صغيرة، وقد يشفع للذين ذهبوا إلى التحريم أن الدخان ضار بالصحة، وأنا شخصيًّا لا أرى مدخنًا ـ خاصة من محدودي الدخل ـ يدخن إلا وألومه لومًا شديدًا، وأقول: إنه يستطيع بثمن علبة سجائر أن يشتري فاكهة تفيده هو وأولاده، ولكن نعود فنقول: إن هذا أمر وتحريم "مفتي" أمر آخر، لأنه يدخل في باب التحريم والتحليل الشرعيين، ما ليس فيهما، وإن الدعوة لإبطال التدخين لا تكون بسيف رمضان، ولا بحد الفتوى، ولكن بالإقناع، كما أني عندما رأيت أنه لا يفسد الصيام فهذا لا ينفي أنه قد يكون مكروهًا، ولكن ليس مفطرًا" انتهى المقال.

يمكن أن يضاف إلى هذين المقالين الملاحظتان التاليين:

الأولى: أن الإمام ابن عابدين ـ وهو من أئمة الحنفية ـ ذهب إلى أن التدخين لا يفطر صيام رمضان، ونحن مدينون بهذه المعلومة إلى أحد الردود التي أريد بها نقض وجهة نظرنا، لأننا ـ كما هو معروف ـ لا نبحث عما قاله فقهاء المذاهب.

ثانيًا : طالعنا رأيًا يتفق مع رأينا ذهب إليه العلامة السيد محمد حسين فضل الله، وهو من خيرة فقهاء الشيعة العراقيين إذ جاء في سجال استفسار منه:

(س) هل صحيح أن التدخين لا يفطر في شهر رمضان كما تقولون سماحتكم ؟

(ج) لعل الذين أثاروا الجدل حول هذه الفتوى لم يدققوا في حدودها، فإنني من الفقهاء الذين يحكمون بحرمة التدخين في الليــل وفي النهار وفي كل الزمن لأنه مضر، وكل ما يضر البــدن فهو حـرام، وقد بلغ من ضرره حسب المتخصصين أنه أصبح المسئول بدرجة كبيرة عن سرطان الفم والرئة والحنجرة، ما يعني أنه يعرض الجسم للتهلكة، والله تعالى يقول: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ البقرة: 195)، ويقول أيضًا في سبب تحريم الخمر والميسر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (البقرة: 219)، والمراد من الإثم الضرر، وكل ما كان ضرره أكبر من نفعه فهو حرام، <u>ولكن التدخين مع كونه محرمًا فهو غير مفطر، لأن المفطرات هي الأكل والشرب والجنس التي تحدث عنها القرآن، وهناك أمور أخرى مما اختلف فيها العلماء، لذلك فالتدخين ليس مفطرًا</u>، لأن دخول الدخان إلى الفم لا يفطر، فلو أن الإنسان مر على شخص يشوي لحمًا أو سيارة تطلق دخانـًا ودخل الدخان إلى فمه فإنه لا يفطر، ولكننا في الوقت نفسه نقول إنه يحرم على الإنسان أن يدخن، <u>ولكنه لو دخن وعصا الله في تدخينه فإنه لا يفطر، تمامًا كما نقول إنه يحرم على الإنسان الغيبة، ولكنه لو اغتاب لا يفطر فهو يأثم ولا يفطر</u>.

إن النقطة الهامة في إجابـة السـيد حسـين فضـل اللـه هي أن التـدخين لا يفسـد الصيام، وأن من يدخن في رمضان لا يُعد فاطرًا حتى وإن ارتكب إثمًـا يحاسـب عليـه، لأن السجائر ضارة، وقد قرر ذلك مع أنه يذهب إلى تحريمه أصـلاً، ولكن أمانتـه ودقتـه العلمية ومسئوليته كمرجع حالت دون القول إن التدخين مفطر.

كما علمنا أن آية الله العظمى السيستاني في العراق أباح للمدخنين تـدخين ثلاث أو أربع سجائر دون أن يفسد صيامهم.

إن النقطة الخاصة بضرر السجائر أمر مسلم به، بـل هـو مطبـوع على كـل علبـة سجائر، ولكن لا نذهب إلى أن الفقهاء لهم حق التحريم، فهذا ما ينفرد به الشارع، أمـا ما يصـدره الفقهـاء من أحكـام ـــ حـتى لـو كـان هنـاك نـوع من الإجمـاع ومن المـبرر الموضوعي ـ فإنه لا يمكن أن يماثـل التحـريم التشـريعي الـذي يصـدر عن القـرآن أو الرسول، وأفضل من أن يحرم الفقهاء أن يحاولوا معالجة أسباب انتشاره، وأن يكثفـوا من جهودهم في إطار ضرره بحيث تكون معركة قومية حضارية، وليست تحريمًا تصدر به فتوى إسلامية، ويبدو أن قضية السجائر لهـا أبعـاد سـيكولوجية واجتماعيـة وأنهـا لن تستبعد إلا مع تغيير في المواضعات الاجتماعية مما يحكم فيه التطور بالدرجة الأولى.

وأخيرًا فإنني عندما أصدرت هذا الاجتهـاد فـإني لم أقصـد عامـة المـدخنين، ففي مكتبي أربعــة لا يـدخنون في رمضـان وأشـجعهم على هــذا، وأبعـد من هـذا أن أقبـل التـدخين جهـارًا نهـارًا دون ذوق أو أدب أو مجاملـة، ولكـني أعـني بـه فئـة معينـة من المدخنين ـ قد يكونون قلـة ـــ ولكنهـا قلـة تصـل للملايين، هم الـذين أصـبح التـدخين

عندهم نوعًا من الإدمان فأصبحوا كأنهم مرضى، فهم لا يستطيعون الصبر عنه طوال نهار كامل، وهؤلاء لا يكون أمامهم ـــ إذا اعتبر التدخين مفطرًا ـــ إلا حلاً من ثلاثة حلول:

الأول: أن لا يصوموا ولعل لديهم الشجاعة لإعلان ذلك، وقد يمكن أن يتبجحوا ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

الثاني: أن يدخنوا سرًا عددًا من السجائر مع ادعائهم الصيام فيكونوا منافقين، جبناء، كذبة، وما أشنع هذا.

الثالث: أن يضغطوا على أنفسهم ضغطاً شديدًا فلا يدخنون، ولكن يعتريهم الاكتئاب والعزوف عن العمل أو اللجوء للنوم أو لشغل أنفسهم برؤية التليفزيون.. الخ.

هذه الحلول الثلاثة كلها سيئة، في حين أن هؤلاء يمكن أن يدخنوا عددًا محدودًا من السجائر لكسر حدة العادة ويكونون مع هذا صائمين.

فهذا الاجتهاد يكسب للصيام فريقًا لا أنه يخسره فريقًا.

* * *

[3]

الاجتهاد الثالث

حرية الاعتقاد وعدم وجود حد للردة في الإسلام

مما لا يكاد يصدق أو يتصور أو يكافح الفقهاء ويبذلوا أقصى جهودهم لتجريد الإسلام من إحدى مفاخره، وكأنهم وقد عجزوا عن الوصول إلى ذروته أرادوا النزول به إلى مستوى أفهامهم ـ وهذا فيما يبدو ـــ هو السر في إصرارهم على وجود حد للردة في الإسلام هو القتل عند رفض الاستتابة.

إن عشرات الآيات تصدع بحرية الاعتقاد مما قد نورد بعضها، كما أن القرآن الكريم ذكر الردة مرارًا ولم يرتب عليها عقوبة دنيوية، بل إن القرآن جعل الهدى والضلالة أمرًا شخصيًا لا علاقة له بالنظام العام، ومن باب أولى بالدولة، لأن من المسلم به أن ملك الله لن يتأثر بإيمان كافر أو يكفر مؤمن، فالله غني عن العالمين.

لقد كانت هذه القضية مثار اهتمامنا منذ أن وضع مشروع قانون بحكم الردة أيام السادات سنة 1977، وأصدرنا رسالة بعنوان "الإسلام وحرية الاعتقاد" استنكرنا فيها أن يؤسس الأزهر محكمة بابوية يضع قضاتها على رؤوسهم العمائم، وواصلنا العمل فأصدرنا خمسة بحوث عن هذا الموضوع نشر كل واحد على حدة ثم جمعت كلها في كتاب باسم "الإسلام وحرية الفكر".

وسنورد فيما يلي أكثرها اختصارًا:

[أولاً]

شواهد حرية الفكر والعقيدة من القرآن الكريم

تضمن القرآن الكريم عشرات الآيات التي تتحدث صراحة عن حرية الفكر والعقيدة والإيمان والكفر.

ولا يتسع المجال لإدراج هذه الآيات كلها، ولهذا فسنكتفي بإيراد بعض الآيات، و هي تدور حول الموضوعات الآتية:

(أ) أن الإيمان والكفر قضية شخصية لا تهم إلا صاحبها، بمعنى أنها ليست من قضايا النظام العام، وبالتالي فلا تدخل ولا إكراه عليها من أي جهة.

(ب) أن الرسل ليسوا إلا مبشرين ومبلغين، وليس لهم سلطة لإكراه أو جبر.

(حـ) أن الهداية إنما هي من الله وطبقًا لمشيئته، وأن الأنبياء أنفسهم لا يملكون وحدهم هداية الناس.

(د) أن الاختلاف والتعدد بين البشر مما أراده الله، ومما يفصل فيه يوم القيامة، وأن الإسلام يؤمن بالرسالات السابقة.

(هـ) أنه لا يوجد حد دنيوي على الردة.

وفيما يلي بعض هذه الآيات..

(أ) أن الإيمان والكفر قضية شخصية لا تدخل فيها ولا إكراه عليها:

- ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 256).
- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (يونس: 108).
- ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: 15).
- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: 29).
- ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون﴾ (النمل: 93).
- ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (الروم: 44).

- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾ (فاطر: 39).
- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر: 41).

(ب) أن الرسل ليسوا إلا مبشرين ومنذرين ومبلغين دون أي سلطة لإكراه أو جبر:

- ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (المائدة: 99).
- ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: 188).
- ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: 41).
- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود: 12).
- ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: 40).
- ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: 94).
- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل: 82).
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان: 58).
- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: 45).
- ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: 55).
- ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (الشورى: 6).
- ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى *فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى *وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ (عبس: 7).
- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: 22).

(ج) أن الهداية إنما هي من الله، وطبقًا لمشيئته:

- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: 272).
- ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللـهُ أَرْكَسَـهُمْ بِمَـا كَسَـبُوا أَتُرِيـدُونَ أَن تَهْـدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَن يُّضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ (النساء: 88(.
- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآَمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًـا أَفَـأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَـانَ لِنَفْسٍ أَن تُـؤْمِنَ إِلاَّ بِـإِذْنِ اللـهِ وَيَجْعَـلُ الـرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾) يونس: 99 ـ 100(.
- ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص: 56).
- ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر: 8).

(د) أن الاختلاف في العقائد بين البشر مما أراده الله تعـــالى وما يفصل فيه يوم القيامة:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَـادُوا وَالنَّصَـارَى وَالصَّـابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الآَخِـرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُـونَ ﴾ (البقـرة: 62).
- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُـودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَـيْءٍ وَقَـالَتِ النَّصَـارَى لَيْسَـتِ الْيَهُـودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (البقرة: 113).
- ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَـا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة:137).
- ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (148 البقرة).
- ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُـوبَ وَالأَسْـبَاطِ وَمَـا أُوتِيَ مُوسَـى وَعِيسَـى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 84).
- ﴿وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَلاَ يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِـذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَــةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هـود: 118 ـ 119).

- ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ * وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: 46).
- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (الزمر: 46).
- ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (الشورى: 10).
- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون: 1ــ6).

(هـ) أنه لا يوجد حد دنيوي على الردة:

- ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (البقرة: 108).
- ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 217).
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ (آل عمران: 90).
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾ (النساء: 137).
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَّرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: 54).
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ (التوبة: 74).
- ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النحل: 106).
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ (محمد: 25).

* * *

لا أعتقد أن أي داعية للحرية الفكرية على إطلاقها يمكن أن يأتي بمثل ما جاء به القرآن وما تضمنته الآيات السابقة التي قررت أن الإيمان والكفر قضية شخصية وليست من قضايا "النظام العام" التي تتصدى لها الدولة، فمن آمن فإنه ينفع نفسه، ومن كفر فإنه يجني عليها، والله تعالى غني عن العالمين، وقررت أن الرسل ــ وهم حملة الوحي وأولى الناس بقضية الإيمان والكفر ــ ليس لهم من سلطة إلا التبليغ، ولا يملكون وراء ذلك شيئًا، فالرسول ليس حفيظًا، ولا وكيلاً عن الناس ولكنه بشير ونذير ومذكر ومبلغ، وأكدت أن الهداية من الله، وأن الرسول ليس مكلفًا بكفالة هذه الهداية لأحد، وأنه لا يملك أن يهدي من يحب، وأن الاختلاف والتعددية كلها مما أراده الله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، وذكر الردة مرارًا وتكرارًا وبشكل صريح دون أن يفرض عقوبة دنيــوية عليها، وأكد مرارًا أنه هو الذي يفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

هل ترك القرآن شيئًا لدعاة حريـة الفكـر والاعتقـاد ؟..! اللهم لا، وقـد وصـل إلى الغاية عندما حدد سلطة الرسـل وهم أعلى الأفـراد مسئولية في مجـال العقيـدة هـذا التحديد الدقيق، وعندما صارح الرسول ﴿**ليس عليـك هـداهم**﴾، وأنـه ليس إلا بشـيرًا ونذيرًا، مبلغًا ومنكرًا، وجبهه أنه لا يملك أن يهدي من يحب، لأن الهداية بيد الله وحده، ووجهـه لأن لا يبخـع نفسـه لمسـارعة في الكفر، ونبّـه الرسـول في اسـتفهام إنكـاري ﴿**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؟**﴾ ﴿**وما عليك ألا يزكى؟**﴾.

ونعلم أن الفقهاء والمفسرين قالوا: إن هـذه الآيـات نسـخت بآيـة السـيف، وهـذا سخف وقول يرفضه من لديه ذرة من عقــل، فإذا كانت قد نسخت فما فائـدة الإبقـاء عليها في المصحف ؟ وكيف يتلوها الناس وهي منسوخة ؟ إن قضية النسخ كلها قضـية ضالة مضلة، وقد أثبتنا ذلـك في كتابنا: "الأصـلان العظيمـان: الكتـاب والسُــنة"، الـذي خصصنا فيه قرابة سبعين صفحة لتفنيد دعوى النسخ، وكذلك في كتابنـا "تفنيـد دعـوى النسخ".

ويقول بعض الفقهاء: إن آية ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ هي عموم يحكمـه خصـوص، هو أن المقصود هم النصارى أو اليهود الذين يدفعون الجزية، فهؤلاء لا يجــوز إكــراههم على الإسلام، وهو افتيات على نص الآيـة الصـريح ومضـمونها، وروحها، واجتهـاد فـائق أوجده روح العصر وطبيعة الذين ينتسبون إلى "المؤسسة الدينية " ويحجرون واسعًا.

إن من المرفوض تمامًا تطويع الآيات القرآنية لتعطي مفهومًا بعيـدًا عن ظاهرهـا، أو التحايل على المعنى الصريح للوصول إلى معنى مخالف، أو حتى مناقض، فهذا كلـه تلاعب بكلام الله وتسخير له لما تهـوى الأنفس، ومـا أشـنع وأبشـع هـذا ﴿**وَتَحْسَـبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ**﴾.

[ثانيًا]

شواهد حرية الفكر من سُـنة الرسول وعمله

السُـنة هي العمل، والسيرة، والطريقة وما يلتزم من قواعد، ومن هنا فهي عملية أكثر مما هي قولية، وسنعرض هنا للسُـنة العملية ثم نتبعها بمـا نقـل عن الرسـول من أحاديث يتخذها البعض الدليل المعتمد على عقوبة الردة.

عندما دخل الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة كان بها جالية قويـة من اليهـود، وحاول الـرسول اجتذابهم وتفادي شـرهم، ليس فحسـب بـتركهم أحـرارًا، وإنمـا أيضًـا باعتبارهم داخل أسرة "وأمة المدينة "، كما يتضح ذلك من "صـحيفة الموادعـة"، ولكن اليهود ساءهم أن يظهر رسول ناجح من غير بني إسرائيل وأخذوا في الكيد له بمختلف الطرق.

كما كان في المدينة ــ عنـد مقـدم الرسـول ـــ شـيوخ قبائـل وسـراة لهم منزلـة خاصة بحكم نسبهم وثروتهم وعراقتهم. ولم يـرحب بعض هـؤلاء بالـدين الجديـد الـذي غيّر الأوضاع التي كانت تحقق لهم السيادة، وجعل الناس سواسـية، وكـان كبـير هـؤلاء عبد الله بن أبيّ ــ سيد الخزرج ــ الذي كانوا ينظمون الخرز في تاج له ليكون ملكًـا أو رئيسًا، فلما جاء الإسلام آلت الرئاسة إلى الرسول وإلى المؤمنين.

وتكوّن من هؤلاء ومن اليهود حِلف جعل همه الكيد للرسول وإقامة العراقيـل في وجه الدعوة الجديدة والتآمر عليها. وقد وصل الأمر بعبـد اللـه بن أبيّ أن انخـذل بثلث الجيش عندما قرر الرسول الخروج في غزوة أحد. فلم يخرج وبقي بالمدينة، وكان من أساليبهم ادعاء الإيمان ثم الكفر بعد ذلك لزعزعة إيمان المسلمين وإشاعة الشـائعات ونشر الأكاذيب. وهؤلاء هم المنافقون الذين كشف الله سترهم، وأعلن خبيئة نفوسـهم في عدد من الآيات، بل وأنزل سورة خاصة بهم هي سورة المنافقون.

فماذا فعل الرسول بهؤلاء الذين قال فيهم القـرآن إنهم ﴿ **آمَنُـوا ثُمَّ كَفَـرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْـرِ وَكَفَـرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ﴾**، وقال: ﴿**لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾؟ وهي آيـات صـادعة بردة هؤلاء وكفرهم بعد إسلامهم.

لقد أحسن الرسول إليهم، وتغاضى عنهم، وعندما عرض ابن عبـد اللـه بن أبيّ ـــ وقـد كـان من خـيرة المؤمـنين ـــ أن يـأتي الرسـول بـرأس أبيـه حـتى لا يقتلـه أحـد المسلمين فيجد في نفسه غضاضة، قال الرسول: **"بل نحسن صحبته".**

* * *

وجـاء في رسـالة "السـلفية المعاصـرة إلى أين؟" لفضـيلة الشـيخ محمـد زكي إبـراهيم ـــ رائـد العشـيرة المحمدية، وعضـو المجلس الأعلى للشـئون الإسـلامية" ــ عرضًا لبعض نماذج الـذين ارتـدوا على عهـد الرسـول فلم يُقِم عليهم حـدًا، ولم يطلب منهم استتابة ومن هؤلاء:

- ارتد في حياته بعض المسلمين أفرادًا أو جماعات، وبعضهم كان ارتداده مـرات لا مرة واحدة فما قتل أحدًا منهم.
- ارتـد رجل آخر عن الإسـلام بعد أن كان من كتاب الوحي للرسول، ولم يتورع ـــ مع ارتداده ـ ةأن يقول الكلمة المنكـرة الـتي رواهـا البخـاري وغـيره "مـا يـدري محمد إلا ما كتبت له"، وعلى الرغم من ذلك كله تركه رسول الحرية حـرًا طليقًـا وقبل فيه الشفاعة حتى مات على فراشه (انظر هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري).
- وارتد اثنا عشر مسلمًا عن الإسلام على عهد رسول الله ثم خرجوا من المدينـة إلى مكة، ومنهم الحارث بن سويد الأنصاري، فما أهدر الرسول دم أحد منهم، ولا حكم بقتل مرتد منهم، واكتفى القرآن بقولـه عنهم: ﴿وَمَن يَبْتَـغِ غَيْـرَ الإِسْـلاَمِ دِينًـا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.
- وارتد عبيد اللـه بن جحش بعـد إسـلامه وهجرتـه إلى الحبشـة واعتنـق النصـرانية هناك، فما أهدر النـبي دمه، ولا طلب من النجاشـي تسـليمه إليـه ولا أوعـز إلى أحد بقتله.
- واعتنق النصرانية كذلك ولدان شابان، فشـكاهما أبوهمـا إلى الرسـول قـائلاً: "يـا رسول الله: ادع ولـديّ يدخلون النار"، فلم يقل له الرسول مثلاً اقتلهما، أو دعني أقتلهما، وإنما أسمعه الآية القرآنية: **﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾**[1].

بالإضافة إلى ما ذكره صاحب رسـالة "السـلفية المعاصـرة إلى أين" فنحن نـذكر حديث الأعرابي ما رواه البخاري ومسلم من أن "أعرابيًـا بـايع رسـول اللـه ، فأصـاب الأعرابي وعك بالمدينـــة، فأتى النبي فقال: يا محمد أقلني بيعتي. فأبى رسـول الله ، ثم جاءه فقال: " يا محمد أقلني بيعتي. فأبى. ثم جاءه فقال: يا محمد أقلني بيعـتي. فأبى، فخرج الأعرابي، فقـال رسـول اللـه إنمـا المدينـة كـالكير تنفى خبيثهـا وينصـع طيبها[2]، وقد ذكر الحافـظ ابن حجـر، والإمـام النـووي نقلاً عن القاضـي عيـاض[3] أن الأعرابي كان يطلب من رسـول الله إقالتـه من الإسـلام[4]. فهي حالـة ردة ظـاهرة، ومع ذلك لم يعاقب رسول الله الرجل ولا أمر بعقابه، بل تُرك يخرج من المدينة دون أن يعرض له أحد.

---

1) ص 24 ـ 25، الطبعة الأولى، 1408 هـ 1987 م، القاهرة.

2) البخـاري بشرح ابن حجر، ج 4 ص 96 وما بعدها، ومسلم بشرح النووي، ج 9 ص 455 وما بعدها، اللفظ الذي أوردناه هو لفظ مسلم، وعند البخاري ".. فبايعه على الإسلام"، وكذلك في الموطأ.

3) انظر ترجمته مختصرة في: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، للحجوي ج 4 ص 57 ـ 58.

4) فتح الباري، وشرح النووي على مسلم، كلاهما في الموضع السابق.

فهذه الحالات المتعـددة المترادفـة تثبت أن الرسـول لم يعـرف حـداً للـردة، ولم يأمر به، ولم يطبقه.

إذن ما بال الأحاديث التي يأخذ فيها ويعيد الفقهاء عندما قرروا عقوبة للردة.

لقـد فصـلنا في كتابنا: " كلا ثم كلا.. كلا لفقهـاء التقليـد، وكلا لأدعيـاء التنـوير" الصفحات من 71 إلى 78 هذه الأحاديث المزعومة فقلنا: "ويعجب الإنسان عندما يرى أن قضية الردة لا تستند في السنة على ما يتناسب مع وزنها، سواء جاء هذا الوزن من طبيعتها ــ أي الردة عن الإسلام ــ أو من عقوبتها وهي القتل.. إذ لا يجـد المـرء سـوى ثلاثة أحاديث، أو أربعة يدور عليها النقاش هي:

أولاً : حديث العرنيين: الذين قدموا على رسول الله ﷺ فبـايعوه على الإسـلام، ولكنهم استوخموا الأرض فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: أفلا تخرجـون مـع راعينـا في إبله فتصيبون من ألبانها وأبوالها ؟ قالوا: بلى.. فخرجوا، فشربوا، من ألبانها وأبوالها فصحوا، فقتلوا الراعي وطردوا النعم، فأرسل رسول اللـه ﷺ في أثـرهم من قبض عليهم وقتلهم .

الحـديث رواه البخـاري ومسـلم وبقيـة كتب الحـديث وليس فيـه مـا ينم عن حـد الردة، بل ليس في أغلب الروايات مـا يشـير صـراحة إلى ردتهم، ومعـروف أن القتـل عقوبته القتل، فضـلاً عن عقـوقهم واسـتياقهم الإبل، فلـو لم يرتـدوا لاسـتحقوا القتل.. وقد أورد مسلم الحديث في "باب المحاربين والمرتدين"، وأورده الشـوكاني في بـاب "المحاربين وقطاع الطرق".

فلا يمكن أن يستند إليه في أن القتل عقوبة الردة.. وهو ما دفع ابن تيمية للقول: "هؤلاء قتلوا ــ مع الردة ــ وأخذوا الأموال فصاروا قطاع طرق محاربين الله ورسـوله، وتابعه ابن القيم في زاد المعاد والطبري في تفسيره".

ثانيًا: الحديث الثاني: هو الذي قرر فيه الرسول ﷺ أنه لا يجوز قتل مسلم إلا في حالـة من ثلاث: قتل نفس، وزنا بعد إحصان، والمـارق عن الـدين المفـارق للجماعة.. وهناك روايات عديدة للحديث تقرن معظمها ــ كروايات عبد الله بن مسـعود ــــ الردة بمفارقة الجماعة، بل إن روايـة عائشة: **"لا يحل قتـل مسـلم إلا في إحدى ثلاث خصال: زان محصن فيرجم، ورجل قتل مسـلمًا متعمـدًا، ورجل يخرج من الإسلام فيحارب الله عز وجل ورسوله فيقتل** [1].

ورأى ابن تيمية أن رواية عائشة تفسر ما جاء في حديث ابن مسـعود وغـيره عن المـارق عن الـدين، المفـارق للجماعـة.. وأن "**فـراق الجماعـة إنمـا يكـون بالمحاربة**".

---

(1) وكأنها تأولت آية الحرابة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: 33).

وانتقد كاتب معاصر هذا الرأي لابن تيمية، ورأى أنه: "رأى فردي لم يتابعه عليه أحد"[2] وأن ابن تيمية اجتهد في تأويل الحديث فجانبه الصواب من جهتين: إحداهما أن صياغة الحديث نفسه واضحة لا تحتاج إلى تأويل، لأن مثل هذا النص غني عن التأويل، وعلماء الأمة متفقون على أن النص الواضح الذي لا يمنع من العمل بظاهره مانع شرعي أو عقلي فيجب بقاؤه على ظاهره ولا يجوز صرفه عن ظاهره أبدًا".

وقد قلنا إن ظاهر "المفارق للجماعة" يفسح مجال الاحتمال، فليس هناك افتيات أو حذف للظاهر، وما جاز فيه الاحتمال بطل به الاستدلال.

ويستطرد الكاتب:

"والجهة الثانية التي جانب ابن تيمية فيها الصواب أن علماء الأمة من قبله ومن بعده يوردون حديث ابن مسعود: "التارك لدينه، المفارق للجماعة" دليلاً ثانيًا بعد حديث: "من بدل دينه فاقتلوه" على وجوب قتل المرتد عن الإسلام إذا لم يتب.. وحاشى الله أن يكون الفقهاء قد اجتمعوا على ضلالة أو باطل.. إلخ".

وقد كان يستطيع أن يقول: إن كتب الأحاديث تضمنت روايات يقتصر فيها الحديث على الردة دون الإشارة إلى مفارقة الجماعة، فقد جاء في سنن النسائي روايتان لحديث عن عثمان بن عفان لا يتضمنان المفارقة، اقتصر فيهما الحديث على من "ارتد بعد إسلامه" في رواية ابن عمر عن عثمان، أو "يكفر بعد إسلامه فيقتل" في رواية بسر بن سعيد عن عثمان، وتضمن مسند الإمام أحمد رواية عن عائشة بدون ذكر مفارقة أو محاربة، ولكن الموقف لا يتغير مع هذه الأحاديث بعد ورود أحاديث ابن مسعود وعائشة وغيرهما التي تضمنت المفارقة والمحاربة. مما يحسن معه التوقف لاحتمال أن يكون رواة حديث عثمان وعائشة عند الإمام أحمد لم يرووا الحديث بالكامل، أو من باب الأخذ بالأحوط في مثل هذا الحد الجسيم، وهو المسلك الذي يتفق مع روح الشريعة.

ثالثًا: الحديث الثالث، والذي يعتبرونه أقوى ما في الباب هو ما جاء بنص: "من بدل دينه فاقتلوه".

والحديث في البخاري وأبو داود سننه ومالك في الموطأ والنسائي في السنن.

قال صاحب نصب الراية: "قلت روي من حديث ابن عباس، ومن حديث معاوية بن حيدة ومن حديث عائشة[1].

---

2) عقوبة الارتداد عن الدين بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين، تأليف د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني، ص39 (مكتبة وهبة).

1) نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي، الجزء الثالث، ص 456 (سلسلة مطبوعات المجلس الأعلى بدار بن صورت الهند، الطبعة الأولى 1938 مطبعة دار المأمون، شبرا مصر.

أما حديث ابن عباس فأخرجه البخاري في كتاب الجهاد في استتابة المرتدين عن عكرمـة أن عليًـا أُتِي بزنادقـة فـأحرقهم فبلـغ ذلـك ابن عبـاس فقـال: لـو كنت أنـا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ: (لا تعذبوا بعذاب الله)، ولقتلتهم لقوله عليه السـلام: "من بدل دينه فاقتلوه"، ووهم الحاكم في المستدرك فرواه في كتاب الفضـائل وقـال على شرط البخـاري ولم يخرجـاه، رواه ابن أبي شـيبة وعبـد الـرازق في مصـنفيهما بـدون القصة.. حدثنا ابن عيينة عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول اللـه ﷺ: (من بدل دينه فاقتلوه) انتهى.

وأما حديث معاويـة بن حيـدة فأخرجـه الطـبراني في معجمـه الكبـير عن بهـز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيـدة.. قـال: قـال رسـول اللـه ﷺ: "من بـدل دينـه، فاقتلوه إن الله لا يقبل توبة عبد كفر بعد إسلامه".

وأما حديث عائشة فأخرجه الطبراني في معجمـه الوسـيط عن أبي بكـر الهـذلي عن الحسن وشهر بن حوشب عن عائشة مرفوعًا نحوه، سواء".

ولنا عن هذا الحديث كلام بالنسبة للسند والمتن معًا..

أما السند، فإن الروايات المتكررة له تنتهي إلى عكرمة عن ابن عبـاس، ومـع أن عكرمة من أفضل رواة ابن عباس، فقد استبعده مسلم ولم يخرج لـه إلا حـديثًا واحـدًا في الحج مقرونًا بسـعيد بن جبـير: "وإنمـا تركـه لطعن طائفـة من العلمـاء فيـه بأنـه" كذاب، وبأنه كان يرى رأي الخوارج، وبأنه كان يقبـل جـوائز الأمـراء" كمـا قـال مؤلـف "الحديث والمحدثون" الشـيخ محمـد أبـو زهـو ـ وهـو من أكـثر الفقهـاء ورعًا ـــ وقـد خصص الذهبي لترجمته في ميزان الاعتدال قرابة صفحتين كبيرتين أورد فيهما مختلف الآراء فيه ما بين أنه بحر من البحور، وأنه كذاب لا يحتج بحديثه.

والرواية الثانية عن بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة وقد وثق بهز جماعـة بينمـا اختلف فيه آخرون وتوقفوا في الاحتجاج به "ميزان الاعتدال ج 1 ص 165".

كما أن راوي الرواية الثالثة شهر بن حوشب ـ وإن كان من الرواة المشهورين ـ فقد اختلف فيه، وقال: بعضهم لا يحتج به أو تركوه.

مع أن المحدثين عادة لا يردون أحاديث لمثـل مـا أوردنـاه من شـبهات او أقاويـل عن الـرواة، وأنهم لا يـرون أن مـا قيـل فيهم يوقـف الاحتجـاج بهم، فقـد يجـوز لنـا أن نتوقف إذا كان الأمر يتعلق بالقتل.. وأي حرج في أن نقف مثـل موقـف الإمـام مسـلم من عكرمة ؟؟

أما المتن: هناك أيضًا شيء يحيك في النفس بالنسبة للمتن، فقد جاء الحـديث ـــ رواية عكرمة في سـياق حكايـة أوردناهـا آنفًا ـــ فكلمـة "زنادقـة" الـتي لـو استقصـينا تاريخها لأظهر هذا التقصي أنها لم تشـتهر في أيـام الخلافـة الراشـدة.. كـذلك تحريـق علي ـ كرم الله وجهه ـ لهم مع نهي الرسول واسـتبعاد أن يجهـل على مـا علمـه ابن

عباس، ثم ورود التعبير على إطلاقه مما يسمح بانطباقه على من يبدل دينه إلى الإسلام، أو من يبدله من مسيحية إلى يهودية، أو من يهودية إلى مسيحية (وهو ما ذهب إليه بعض الأئمة) وهو يناقض ما قرره الرسول: "من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها[1]". وفي الحديث رواية معاوية بن حيدة " إن الله لا يقبل توبة عبد كفر بعد إسلامه " وهو يخالف العديد من الآيات، بل إنه يخالف أحاديث جاءت عن ردة البعض ثم ندموا فأرسلوا من يسأل عن توبة لهم.. فنزلت سورة آل عمران **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** (آل عمران: 86ـ89).

فرجعوا إلى الإسلام وحسن إسلامهم، وهذا هو ما يتفق مع روح الإسلام ورشد التشريع، ولم يذكروا أن الرسول طلبهم ليقتلهم أو يستتيبهم كما كان يفترض لو كان هناك حد مقرر للردة..

ولو أخذ بنص رواية ابن حيدة لما كان للفقهاء أن يقرروا الاستتابة التي هي في شبه إجماع بينهم.

رابعًا: واستدلوا أيضًا بما وقع في حديث معاذ "أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له: أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه فإن عاد فاضرب عنقه، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها فإن عادت وإلا فاضرب عنقها".

وجاء في فتح الباري: قال الحافظ وسنده حسن، هو نص في موضوع النزاع فيجب المصير إليه ".. وجاء الحديث في نصب الراية في صيغة مختلفة: "أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه، فإن تاب فاقبل منه، وإن لم يتب فاضرب عنقه، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها، فإن تابت فاقبل منها، وإن أبت فاستتبها" وأورده مصنفو جامع الأحاديث للجامع الصغيرة وزوائده والجامع الكبير للإمام السيوطي (حديث رقمه 9562 ص 431 ج 3). وعلقوا في الهامش (وردت فاسبها) في مراجع أخرى.

ومن هنا يتضح أنه لا يمكن "المصير إليه" كما ذهب الحافظ، فضلاً عما شاب سنده، إذ هو من رواية محمد بن عبد الله العرزمي، وهو (متروك من السادسة) كما قال صاحب تقريب التهذيب (ص 330).

وقد استعرض صاحب نصب الراية الأحاديث التي جاءت فيها إشارة إلى قتل المرتدة، والأحاديث المعارضة، إذ اكتنف التجريح رواة الأحاديث الأولى، خاصة ما جاء فيها عن أن النبي ﷺ قتل امرأة لردتها (نصب الراية ص 456 ج 3)، وهو أيضًا ما فعله الشوكاني في نيل الأوطار (ج 7).

ويخالف الحكم بالقتل الأثر الذي جاء عن عمر بن الخطاب وأورده صاحب نصب

---

1) رسالة الرسول ﷺ إلى ملوك حمير ـ انظر: سيرة ابن هشام، ص 236 ج 4.

الراية، والشوكاني في نيل الأوطار عن الشافعي... أن عمر قال لوفد قدموا عليه من بني ثور: هل من مغربة (بكسر الراء وفتحها) خبر، قالوا: نعم أخذنا رجلاً من العرب كفر بعد إسلامه فقدمناه فضربنا عنقه، قال: هلا أدخلتموه جوف بيت فألقيتم إليه كل يوم رغيفًا ثلاثة أيام واستتبتموه لعله يتوب أو يراجع أمر الله ؟ "اللهم إني لم أشهد، ولم آمر ولم أرض إذ بلغني".

وفي رواية أوردها الشوكاني، ورواه البيهقي من حديث أنس قال: لما نزلنا على تستر، فذكر الحديث وفيه "فقدمت على عمر ــ رضي الله عنه ــ فقال: يا أنس ما فعل الستة رهط من بكر بن وائل الذين ارتدوا عن الإسلام فلحقوا بالمشركين ؟ قلت: يا أمير المؤمنين قتلوا بالمعركة، فاسترجع ثم قلت: وهل كان سبيلهم إلا القتل ؟ قال: نعم كنت أعرض عليهم الإسلام.. فإن أبوا أودعتهم السجن" 7/170، ثم قال: "اللهم إني لم أشهد ولم آمر، ولم أرض إذ بلغني". فهذا نص يجعل العقوبة السجن لا القتل.. وليس هناك ما هو أشد من استنكار عمر.

وأهم من هذا كله أن رسول الله لم يقتل أحدًا لا رجلاً ولا امرأة للردة وحدها، وقد رفض أن يجيب أحد الأعراب عندما قال له: "يا محمد أقلني من بيعتي" ولكنه لم يلحق به أذى. ولا تعرف ملابسات الموضوع. وقد انتقد مؤلف: "عقوبة الارتداد عن الدين بالأدلة الشرعية وشبهات المنكرين" الذين ذهبوا إلى أن النبي لم يقتل أحدًا بتهمة الردة، وعاب عليهم عدم الرجوع إلى المصادر الوثيقة.. إلخ، ثم قال: "وفي عام الفتح أمر بقتل ابن خطل، وكان مسلمًا ثم ارتد ورجع إلى مكة.. ولما علم بقدوم موكب الفتح بقيادة صاحب الدعوة هرع إلى المسجد الحرام وتعلق بأستار الكعبة، ورغم هذه الحيلة أمر النبي بقتله، فقتل حدًا للارتداد بالدين"[1]..

فما هي قصة ابن خطل ؟

قال ابن إسحاق "وعبد الله بن خطل رجل من بني قسم بن غالب، وإنما أمر بقتله أنه كان مسلمًا فبعثه رسول الله مصدقًا.. (أي جامعًا للصدقات وهي الزكاة) وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى له يخدمه.. وكان مسلمًا فنزل منزلاً، وأمر المولى أن يذبح تيسًا له فيصنع له طعامًا، فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئًا، فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركًا، وكان له قينتان تتغنيان بهجاء الرسول".

فهذا التقصي التاريخي يوضح أن للرجل ماضيًا جنائيًا يستحق عليه القتل خلاف الردة.

وذكر مؤلف "عقوبة الارتداد " في مكان آخر من كتابه عن امرأة ارتدت يقال لها أم مروان، أن الرسول أمر أن يعرض عليها الإسلام، فإن تابت وإلا قتلت"، وأحال في الهامش على مرجعه نيل الأوطار للشوكاني 7/ـ 217 وكان من الأمانة أن يذكر ما أورده الحافظ عن ضعف إسناد الحديث. وقد أورد الحديث الزيلعي في نصب الراية

1) المرجع السابق ص 58.

عن معمر بن بكار السعدي، حدثنا إبراهيم بن سعد عن الزهري عن محمد بن المنكـدر عن جابر، وقال ومعمر بن بكار في حديثه وهم، وألحقه بحـديث عن الـدارقطني أيضـًا عن محمد بن عبـد الملـك الأنصـاري عن الزهـري عن عائشة، وقـال: ومحمـد بن عبـد الملك هذا، قال أحمد وغيره: يضع الحـديث، وأورد الـزيلعي حـديث الـدارقطني روايـة عبد الله بن أذينة عن هشام بن الغاز عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: ارتدت امرأة عن الإسلام فأمر رسول الله أن يعرضوا عليهـا الإسـلام فـإن أسـلمت وإلا قتلت، فعرض عليها فأبت أن تسلم فقتلت، وقال: "وعبد الله بن أذينـة جرحـه ابن حبان وقال: لا يجـوز الاحتجـاج بـه بحـال، وقـال الـدارقطني في المؤتلـف والمختلـف: متروك، ورواه ابن عدي في الكامل وقال عبد الله بن عطارد بن أذينة: منكر الحـديث، ولم أر للمتقدمين فيه كلامًا" (458 نصب الراية ج 3).

وقد فصل ابن تيميـة في هـذه القضـية إذ ذكـر أن النـبي قَبِـل توبـة جماعـة من المرتدين، وأمر بقتل جماعة آخرين ضموا إلى الردة أمورًا أخرى تتضمن الأذى والضرر للإسلام والمسلمين، مثل أمره بقتل قيس ابن حبابة يوم الفتح لما ضم إلى ردتـه قتـل المسلم وأخذ المال، ولم يتب قبل القــدرة عليه، وأمر بقتـل العرنـيين لمـا ضـموا إلى ردتهم نحـوًا من ذلك، وكـذلك أمـر بقتـل ابن خطـل لمـا ضـم إلى ردتـه السـب وقتـل المسلم ـ وأمر بقتل ابن أبي السرح لما ضم إلى ردتـه الطعن عليـه والافـتراء، وفـرق ابن تيمية بين النوعين: أن الردة التي فيهـا محاربـة للـه ورسـوله والسـعي في الأرض فسادًا لا تقبل فيها التوبة بعد القدرة".

فإذا أصر بعض الناس على صحة وقوة حديث: "من بدل دينه فاقتلوه"، فقــد رأى البعض أنه للجواز وليس للوجوب، وما يصرفه عن الوجوب هو مـا سـبق من الشـواهد التي تثبت أن الرسول لم يقتل مرتدًا لمجـرد أنـه "بـدل دينـه"، ولكنـه جمـع إلى ذلـك أفعالاً من المحاربـة الـتي تسـتحق القتـل، ومـا جـاء من آثـار عن عمـر في ذلـك أيضًـا وأشرنا إليها. وعندئذ تحكمه ضوابط الجواز، ودرء الحدود بالشبهات.

وقد عالج قضية وجود أحاديث تعارض حرية الاعتقاد التي أكدها القرآن الشيخ عبد المتعال الصعيدي في كتابه "حرية الفكر في الإسلام" فقال: "فإذا ورد مع هذا أحاديث آحاد تفيد قتل المرتد على تغييره الاعتقاد يدخل في باب العقائد لا الفروع.

وأما نحملها علي المرتد المقاتل لأن المسلمين كانوا على عهد النـبي في حالـة حرب فكان من يرتد بعد إسلامه لا يلزم بيته، بل ينضم إلى أعداء الإسلام يقاتــل معهم فكان الأمر بقتله على قتاله مع أولئـك الأعـداء لا على ردتـه عن الإسـلام، وكـان عـدم قتله للمنافقين الذين ارتدوا بعد إيمانهم لأنهم لم يقـاتلوا المسـلمين، بـل كـانوا أحيانـا يقاتلون بجانبهم ولم يكن عدم قتلهم للجهل بكفرهم لان النبي كـان يعلم نفـاق كثـير منهم.

وحينئذ تكون تفرقة المرتدين في ذلك راجعة إلى حملهم للسلاح مـع ارتـدادهم أو

عدم حملهم له، فمن حمل السلاح بعد ارتداده يقتل، ومن لم يحمل السلاح ولم يقاتل لا يقتل، وهذا أحسن ما يجمع به بين الاختلاف الذي ورد في هذه المسألة والحق أحق أن يتبع.

وبعد: فإن الأقوال كثيرة جداً في المرتد، وقد أحصاها ابن حزم في كتابه "المحلى" فقال: كل من صح أنه كان مسلمًا متبرأ من كل دين حاشا الإسلام ثم ثبت عنه أنه ارتد عن دين الإسلام وخرج إلى دين كتابي أو غير كتابي أو إلى غير دين، فإن الناس اختلفوا في حكمه، فقالت طائفة: لا يستتاب وقالت طائفة: يستتاب وفرقت طائفة بين من ولد في الإسلام ثم ارتد وبين من أسلم بعد كفره ثم ارتد. ثم ذكر أن من قال لا يستتاب انقسموا فرقتين ؛ فقالت طائفة: يقتل المرتد تاب أو لم يتب راجع الإسلام أو لم يراجع وقالت طائفة: إن بادر فتاب فقبلت توبته سقط عنه القتل، وإن لم تظهر توبته أنفذ عليه القتل. وأما من قال يستتاب فانقسموا أقساما ؛ فطائفة قالت: نستتيبه مرة فإن تاب وإلا قتلناه. وقالت طائفة: نستتيبه ثلاث مرات فإن تاب وإلا قتلناه وطائفة قالت نستتبه شهرا فإن تاب وإلا قتلناه. وطائفة قالت: نستتيبه مائة مرة فإن تاب وإلا قتلناه. وطائفة قالت: يستتاب أبدا ولا يقتل. وأما من فرق بين المسر والمعلن فإن طائفة قالت: من أسر ردته قتلناه دون استتابة ولم تقبل منه ومن أعلنها قبلنا توبته. قال هؤلاء: وأما المعلن فنقبل توبته. وطائفة قالت: لا فرق بين المعلن والمسر في شيء من ذلك، فطائفة قبلت توبتهم معاً أقر المسر أو لم يقر، وطائفة لم تقبل توبة مسر ولا معلن" انتهى الاقتباس من الشيخ عبد المتعال الصعيدي.

[ثالثًا]

قضية الردة أيام أبي بكر

يُورد الفقهاء كدليل لا يدحض على مشروعية محاربة المرتدين، محاربة أبي بكر للمرتدين في مستهل خلافته، وما من قضية أسيء فهمها كهذه، فأولاً: لم يكن أبو بكر هو البادي بالحرب، وكان ما قام أولاً به هو رد القبائل التي ما أن سمعت بوفاة الرسول حتى أرادت أن تتحرر من أمرين:

الأول: دفع الزكاة بحجة أنهم كانوا يدفعونها للرسول استجابة للآية ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾، فقالوا: لسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من كانت صلاته سكن لنا.

والثاني: أن يتحرروا من خلافة أبي بكر، فإنما خضعوا للرسول بحكم صفته، أما أبو بكر فلا، وقال شاعرهم:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا ... فيالعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكرًا إذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

فالقضية إذن لم تكن ردة عقيدة، إذ كان منهم من يؤمن بالله والرسول ويصلي، ولكنهم رفضوا الزكاة، ورفضوا خلافة أبي بكر، فهو تمرد على أخص مقومات الدولة،

وأخذ هذا التمـرد صـورة عمليـة عنـدما تصـوروا أن ليس بالمدينـة من يحميهـا بعـد أن أرسل أبو بكر الجيش مع أسامة إلى الشام تطبيقًا لوصية الرسول، ولكن أبا بكر كــان عالمًا بنوايـاهم فأعـد من كبـار الصـحابة مجموعـات تحمي "أنقـاب" المدينة، فلم يكـد المتمردون يصلون المدينة حتى صدتهم هذه المجموعات فارتدوا على أعقــابهم، وبعـد ذلك بمدة، وبعد أن رجع جيش أسـامة أرسـل أبـو بكـر سـراياه لمعاقبـة هـذه القبائـل وإعادتها إلى حظيرة الدولة.

وعلى هـذا فـإن أبـا بكـر لم يحـارب المرتـدين، ولكنـه حـورب من المرتـدين ورد عليهم، ولم تكن القضية قضـية إيمـان وكفـر، ولكن قضـية مـال وسـلطان، وكـان هـذا واضحًا كل الوضوح، وقد حاربوا معًا في سبيل قضية مالية سياسية، فالقبائـل المرتـدة حاربت لرفض الزكاة، وأبو بكر حارب لأخذها وقد قالها صريحة: **"والله لو منعــوني عناقًا [أو عقالاً] كانوا يدفعونه لرسول الله لحاربتهم عليه".**

وقد استنكر عمر بن الخطاب ولفيف من الصحابة أن يحارب أبو بكر هذه القبائـل وهي مسلمة تقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وكان مصـيبًا في هـذا من ناحيـة الإيمان، ولكن أبو بكر كشف ــ وهو في موقع رجـل الدولة ـــ ملحظًـا خَفِيَ على عمـر هو رفضهم الزكاة وتمردهم على السلطة المركزية، وواحد من هذين يكفي لحربهم.

هذه هي الحقيقة في قضية الردة، ومنها يعلم مدى المغالطة الـتي يقـع فيهـا من يسـتدل بهـا على صـحة مقاومـة ـــ أو عقوبة ـــ من يرتـد ردة فكريـة دون أن يناصـب الدولة العداء أو يرفض دفع الضرائب أو الالتزامات القانونية الأخرى.

وقد وسعت سماحة الإسلام حـتى هـؤلاء، كمـا يتضـح من موقـف الخليفـة الرابـع الإمام علي ــ كـرم اللـه وجهه ـــ من الخـوارج الـذين انحـازوا عنـه بسـلاحهم، ورمـوه بالكفر ونصّـبوا لهم أميرًا غيره، ومـع هـذا فلم يقـاتلهم حـتى قتلـوا آمنًا، فلمـا طـالبهم بقاتله قالوا: "كلنا قتــله" وعندئذ ــ فحسب ــ قاتلهم".

[رابعًا]
شواهد حرية الفكر من عمل ومواقف الصحابة

أدت التطورات السياسية المتلاحقة التي تعرض لها المجتمع الإسـلامي إثـر وفـاة الرسول إلى ظهور تيارات لم تكن معهـودة وقته، كـان أبرزهـا "الفتنـة الكـبرى" الـتي نشبت بين علي ــ كرم الله وجهه ــ ومعاوية ابن أبي سفيان، هذه الفتنة الـتي أسـالت من دماء الصحابة والرعيل الأول من المسلمين أكثر مما أسالته حروب الفتح، ووصلت فيها المرارة ببعض الناس حدًا كفَّروا فيه عليًا وعثمان ومعاويـة وكـل الـذين شـايعوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم وسبي نساءهم، وقال واصل بن عطاء: إنه لا يقبل شــهادة علي أو معاوية أو من شايعهم واشترك في القتال ــ خاصة بعد صفين ــ على باقة بقل

ـ لأن أحد الفريقين أخطأ خطأ جسيمًا، ولكنه عجز عن أن يعينه، وهكـذا رفض شـهادة الجميع.

على أن هذا لم يكن أبـدًا موقـف الصـحابة المقـرر والمتبـع من الأغلبيـة العظمى للصحابة.

وجاء في رسالة: "السلفية المعاصرة إلى أين" التي سبقت إليهـا الإشـارة، أمثلـة لسماحة الصحابة إزاء الانحرافات في العقيدة التي تمس الله تعالى.

لم يكفر الصحابة "القــدرية" الـذين قـالوا: إن اللـه لم يقـدر ــ ولا يقـدر ــ على تقـدير الهدى أو الضـلال على أحد، بـل قـالوا إن الإنسـان يخلـق عمـل نفسـه لنفسـه بنفسه.. هداية أو ضلالاً.

ولم يكفر الصحابة الفرق التي زعمت منهم أن الله أجبر الخلق وأكرههم على مـا هم عليه، وأن الكفر والإيمان والطاعة والمعصية في الناس كالبياض والسواد، والطول والقصر في خلقة الآدمي ما للمخلوق في ذلك صنع ولا يد.

بل إنه لما قتل أمامهم غسل وكفن وصلى عليه ودفن في مقابر المسلمين.

ولم يكفر التـابعون أحـدًا من المعتزلـة الـذين قـالوا بخلـق القـرآن، وأن مـرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين فلا هو مسلم ولا هو كافر، بل هو خالد في النــار، وأن الله لا يخلق ولا يقدِّر على العباد الـذنب أو المعصـية، بـل العبـد يخلقهـا ويقترفها، وأن الله لم يتكلم، وأن القرآن ليس بكلام الله، بل هو خلق مما خلق الله، فليس للــه كلام عندهم.

ولم يكفروا المرجئة الذين قالوا: إن الإيمان قـول بلا عمل، فمن أقـر بالشـهادتين فهو كامل الإيمان وإن لم يصلّ طول عمره ركعة واحدة، أو لم يقم بطاعة واحدة، بــل هو عندهم في مقام جبريل وفي منزلة الأنبياء والمرسلين سواء بسواء.

ولم يكفروا الجهمية الذين يقولـون: ليس على العـرش إلـه يعبـد، وليس للـه في الأرض كتب لله ولا ألواح ولا كلام، وينكرون المعـراج نهائيًا، كمـا ينكـرون صـفات اللـه التي جاءت في القرآن، حتى قال فيهم ابن المبارك: إنا لنحكي قــول اليهــود ولا نحكي قول الجهمية. ومـع هـذا عنـدما قتـل زعيمهم (الجهم بن صـفوان) ووزيـره (الجعـد بن درهم) غسـلوهم وكفنـوهم وصُـلوا عليهم ودفنـوهم في مقـابر المسـلمين، ولم يجـروا عليهم حكم الردة ولا الزندقة ولا الكفر أو الإشراك أو الوثنية، مع أن هؤلاء وسـابقوهم هم أصول الفرق الاثنتين والسـبعين الـتي جـاءت في الحـديث المشـهور"[1].. إن كـان

---

1) في هذا الحديث مقال يرجع إليه في كتابنا: أصول الوصول، فهو عند الجمهور ضعيف، وكانت أشد أيام هذه الفتن في عهد المأمون والمعتصم والواثق من الدولة العباسية. وقد تفرع عنها في مصر جماعة : التكفير والهجرة، والناجون من النار، والتبين والتوقف.. إلخ، هذه الأرهاط المسماة بالجماعات

صحيحًا.

وقد نقل ابن تيمية أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكفر أهل هذه الفرق بل صلى خلف بعض الجهمية وبعض القدرية، وأن أكبر ما توصف به كل تلك الفرق عند ابن تيمية هو الفسق" انتهى.

وحقق الشيخ: محمد زكي إبراهيم، مؤلف رسالة "السلفية المعاصرة.. إلى أين" الفرق العلمي بين الكفر العملي والاعتقادي فقال:

برغم ما حققناه في فصول رسالة أهل القبلة نحب أن نوجه عناية الإخوة القارئين الصالحين إلى أنه عندما يذكر الحديث النبوي لفظ: (الكفر أو الشرك) كأثر لمعصية أو خطيئة فإنه لا يراد به أبدًا الردة أو البراءة من دين الله، لا لا وألف مرة لا، ولكن يراد به علميًا وفقهيًا وعقليًا وجماعيًا أن من عمل كذا أو قال كذا أو كذا فقد أشرك أو كفر، يعني قلد المشركين والكفرة في بعض أقوالهم أو بعض أعمالهم، أي أنه عصى أو خالف أو تهاون أو تجاوز، ليس إلا، بحسب واقع الأمر، وهذا هو ما يسميه العلماء بالكفر أو الشرك العملي لا كفر الإيمان أو شرك العقائد والتوحيد.. عياذًا بالله.

يجب أن يكون هذا مفهومًا عن يقين، ومعلومًا مذاعًا على الناس، وإلا فلم يبق على وجه الأرض الآن مسلم، فإنه لا يكاد أن يبقى شيء لم يقلد فيه المسلمون غيرهم إلا العقائد والعبادات وبعض الأخلاق، فإن الطوفان الحضاري المعاصر لم يبق شيئًا إلا خالطه، سواء كان حسيًا أو معنويًا، والتخلص من ذلك أمر مستحيل تمامًا على العالم والجاهل والسلفي والخلفي جميعًا، وقانا الله نكارة الجهل بالعلم أو حقارة العلم بالجهل القبيح.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**والذين يرمون الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ (32 ص).

[خامسًا]
قضية الردة صناعة فقهية

إذا لم يكن في القرآن الكريم ما ينص على عقوبة دنيوية على الردة، وإذا لم يكن في عمل الرسول أو قوله ما يتضمن مثل هذه العقوبة، وإذا جاءت مواقف معظم الصحابة بعيدة كل البعد عن تكفير مسلم أو الحكم بردته أو فرض عقوبة عليه، فمن أين جاءت تلك الأحاديث المستفيضة والمسهبة عن حد الردة ؟

لقد جاء بها الفقهاء عندما أرادوا أن يدونوا الفقه ويقننوا الأحكام، وكان ذلك في أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية عندما احتدمت العداوات السياسية والخلافات المذهبية وهددت وحدة الأمة وكيانها، عندئذ وقف الفقهاء موقف حماة القانون والنظام والسلطة، وكأن المناخ أملى عليهم أن يبتروا من المجتمع كل خارج

الإسلامية.

عليه، ووجدوا من الأحاديث والسوابق التي وضعت، أو رويت بطريقة مشوهة، أو اصطنع لها سند قوي ما يمكن معه أن يضفوا صفة شرعية على عملية البتر هذه، وتوصلوا بحكم الصناعة الفقهية إلى إضافتين، **الأولى** إبداع صيغة **"من جحد معلومًا من الدين بالضرورة"** بحيث تتسع للجميع، **والثانية** فكرة الاستتابة.

واعتبروا أن عقوبة الردة لا تدخل في باب الحدود بالمعنى الدقيق، ولكنها عقوبة فريدة، فمن توقع عليه لا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يصلى عليه، ويصبح ماله فيئًا للمسلمين.

قال صاحب الجوهرة:

ومن لمعلوم ضرورة جحد — من ديننا يقتل كفرًا ليس حد
ومثل هذا من نفى ما أجمع — أو استباح كالزنا فلتستمع !

وواضح تمامًا أن هذه الصيغة اعتبارية بحتة، ويمكن لأي فقيه أن يعتبر أمرًا ما "من المعلوم من الدين بالضرورة"، وأن من يجحده فهو كافر، حلال الدم.. إلخ. وقد اعتبرت المحكمة السودانية التي حكمت على محمود محمد طه بالردة والموت أن من أسباب ردته أنه "جحد الحجاب وهو معلوم من الدين بالضرورة !".

وجاء في أحد الكتب تحت عنوان: "الكلمات تكون كفرًا": "ولو قال: إن الصلاة لا توافقني. أو قال: داري مثل السماء والطارق، أو قيل له هذا حكم الله فيقول: لا أعرف حكم الله. أو يقول: أنا أعلم الغيب، أو يقول الرجل لامرأته: أحل الله أربعة نسوة، فتقول له: أنا لا أرض بهذا.. ولو قال: ليت الزنا والقتل والغصب كان مباحًا. يكفر.. إلخ [1]..

وقد يعرض الفقهاء تصورهم للردة بتعبير آخر خلاف "من جحد معلومًا من الدين بالضرورة"، هو "قول كُفْر، أو اعتقاد كُفْر، أو فعل كفر" وهو ما لا يقل تعميمًا أو شمولاً عن صيغة "من جحد معلومًا من الدين بالضرورة.." على أن الشيخ: جاد الحق علي جاد الحق، أصدر فتوى نشرت خلال شهر رمضان في جريدة الوفد (عدد 23/ 2/ 1993) تصور العلاقة بين الاعتقاد والعمل جاء فيها:

"أجمع المسلمون على أن من أنكر ما ثبتت فرضيته كالصلاة أو الصوم، أو حرمته كالقتل والزنا بنص شرعي قطعي: في ثبوته عن الله تعالى، وفي دلالته على الحكم، وتناقله جميع المسلمين كان خارجًا عن ربقة الإسلام لا تجري عليه أحكامه، ولا يعتبر من أهله، قال ابن تيمية في مختصر فتواه: "من جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة كالصلاة، أو جحد تحريم المحرمات الظاهرة كالفواحش والظلم والخمر، والزنا والربا، أو جحد حل بعض المباحات المتواترة كالخبز واللحم والنكاح فهو كافر"، لما كان ذلك، وكان الشاب الذي أفطر في نهار رمضان عمدًا من غير عذر شرعي. إذا كان جاحدًا

---

1) كتاب: مفيد العلوم ومبيد الهموم، للشيخ: جمال الدين أبي بكر الخوارزمي. ص 52.

لفريضة الصوم، منكرًا لها كان مرتدًا عن الإسلام، أما إذا أفطر في شهر رمضان عمـدًا دون عذر شرعي معتقدًا عدم جواز ذلك كـان مسـلمًا عاصـيًا فاسـقًا يسـتحق العقـاب شـرعًا ولا يخرج بذلك عن ربقة الإسلام "!!

ولا جدال أن هذا يمثل منزلقًا خطيرًا في التشريع إذ هـو يعطي الفقهـاء سـلطة كبـيرة سلطة يصغر أمامها تحذير القرآن ﴿ **وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِـنَتُكُمُ الْكَـذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ**﴾، لأن هذه السلطة لا تحكم على الأشـياء ولكن على الأشـخاص.. كمـا أن هـذا التكييف " مفتوح " غير محدد، يمكن أن يدخل فيـه من يشـاء مـا يشـاء ! وهـو أمـر يخـالف قواعد التشريع التي تشترط التحديد وتميل للتقليل لا التكثير.. وهي ـــ أي هـذه السـلطة ـــ تمثل خطرًا ماحقًا على حرية الفكر، بل يمكن القول إنه لا تكون هناك حرية فكر مـع وجـود مثل هذه السلطة.

الإضافة الثانية: الاستتابة.. وهذه أيضًا مما لا نجدها في كتاب أو سنة، فعلى كـثرة ما يَحثُ القرآن والرسول المؤمنين على التوبة، فإنه لا يمـارس أبـدًا (الاسـتتابة) الـتي قررها الفقهاء.. ولعل الرسول لم يستتب أحدا إلا ما روي عن أنه قال لمن طُبق عليـه حد السرقة: "قل تبت إلى الله" فلما قالها، قال له الرسول: "تاب الله عليك"[1].

والاستتابة بالطريقـة الـتي فصـلها الفقهـاء تفقـد جوهرها، فمـا دام هنـاك إرهـاب وسيف وراءها فيغلب أن لا تكون نابعة عن رضا، واقتناع وإيمان، ولكن تعوذاً من القتل وتخلصًا من العقوبة، فهي في الحقيقة إرهاب فكري وإذلال نفسي.

وهاتان الإضافتان فقهيتان قلبًا وقالبًا، معنى ومبنى، ولا نجد لهمـا ذكـرًا في قـرآن أو سنة، بل إنهما يجافيان تمامًا روح الإسلام ويرفضهما كل من لديه " حس " إسلامي أصيل تكون في النفس ثمرة لقراءة القرآن ومطالعة السيرة، والشـيء الوحيـد الـذي أقحمهما في كتب الفقه هو "فنيـة الحرفـة الفقهيـة" ورغبـة الفقهـاء أن يكـون فقههم شاملاً كاملاً لا يفلت صغيرة ولا كبيرة، والوصول بما أرســـوه من أصـول ومبـادئ إلى غايتها، وأن الأوضاع أوقفتهم موقف حماة القـانون والنظـام وليس دعـاة حريـة الفكـر والعقيدة.

[خاتمــة]

ماذا يترتب على حرية الاعتقاد ؟

من هذا العرض الذي عرضناه لقضية حرية الفكر والاعتقاد كما جاء بها القرآن، وكما طبقها الرسول، وكما التزم بها معظم الصحابة يتضح أن نقطة التحول جاءت مع ظهور الفقهاء ووضعهم لأسس المذاهب وتقنينهم للأحكام، والظـروف التي وجدوا أنفسـهم فيها من ناحية، وشيوع وضع الأحاديث وتلفيق الإسناد، أو الرواية بالمعنى، أو الفهم المبتسر للأحاديث من ناحية أخرى، فضلاً عن أن الوضع المقرر للفقهاء عامة

---

[1] **وقد جاء لها ذكر عند عمر بن الخطاب، ولكننا هنا نتحدث عن الله والرسول.**

باعتبارهم رجال القانون يضعهم في صف النظام والسلطة والحكم القائم. كل هذا جعل الفقهاء يبدعون صيغة "من جحد معلومًا من الدين بالضرورة" ويحكمون عليه بالموت إن لم يتب.

ولما كانت الظروف السياسية الماضية وتطبيق أحاديث ركيكة المتن قوية السند ولا تتفق مع الأصول الموضوعية التي وضعها القرآن والرسول هي التي أملت على الفقهاء هذا الفقه، فلا نرى داعيًا على الإطلاق لنتمسك بأقوال الفقهاء، وأن الأصول التي وضعها القرآن والرسول أولى بالاتباع شكلاً وموضوعًا، لأنها هي التي تمثل الإسلام الموضوعي، المطلق الخالد وليس الإسلام الذي أملته الأوضاع والضرورات وكبلته في الأصفاد.

وإذا كانت الأوضاع القديمة قد أملت على الفقهاء موقفهم، فإن الأوضاع الحديثة تملي علينا أن نعود إلى ما قرره الله والرسول، لأنه هو ما يتفق مع مناخ الحرية في العصر الحديث، وبهذا نجمع الحسنيين: الاتفاق مع الإسلام ومعايشة العصر.

و إذا كان الاعتقاد يقوم على القلب كاستجابة أو هداية، وإذا كان الله تعالى قد أراد الاختلاف والتعدد في المجتمع وقضى بأن يكون الفصل في هذا الخلاف إليه وحده يوم القيامة.. فإن هذا يقتضي ـ بداهة ـ إبعاد كل صور القسر والإلزام، بل حتى التدخل في دائرة الاعتقاد الديني، وأن تقوم كل معالجة في هذا الأمر بأسلوب الدعوة والحوار الذي وضعه الله للأنبياء، ويسري هذا الحكم على الناس جميعاً دون تفرقة مسلمين وغير مسلمين، لأن المناط الذي بني عليه هذا الموقف عام لا يختلف. ويمكن أن تظهر هيئات إسلامية وأقلام إسلامية ودعاة مسلمون.. يدعون لما يرون أنه الحق بالأسلوب الذي وضعه الله للأنبياء وأوضحه القرآن في آياته، ولكن مما يجافي هذا الأسلوب أن يبيح أي واحد لنفسه إطلاق الأحكام علي المخالفين فيدعي أنهم كفرة أو منافقون أو ملحدون.. أو أن يدخل في جدل خاطئ عقيم حول مدى "إيمان" من يرتكب إحدى الكبائر أو يشذ في الاعتقاد، وهل يكون مؤمناً أو كافرًا أو منافقاً، فهذا فضول وتعسف يخالف الأصول العامة للإسلام والنهج الذي نهجه نبي الإسلام، فليس دور الدعاة أن يكونوا قضاة، إنهم بتعبير داعية إسلامي كبير "دعاة لا قضاة" وقد ينشأ الاختلاف عن اجتهاد، فإن أخطأ المجتهد فلن تفوته حسنة الاجتهاد وإن فاتته حسنة التوفيق، وقد يكون عن جهل، وعندئذ تكفي الدعوة لتعريفه بما جهل، وقد يكون انحرافًا أو عنادًا، وهذا لن تصلحه القوة بل ستزيده عنادًا، فإذا كان عن ضعف وتقصير فإن الله يغفر لمن يسأله المغفرة، ويبدل سيئات التائبين حسنات.

فإذا كان مجرد إصدار الأحكام أمر يجافي توجيه القرآن وأسلوب النبي ﷺ فلا ريب في أن ذلك يسري بصورة أعظم علي أي محاولة لاستعداء السلطة علي المخالفين وعلي استخدام السلطة لأجهزتها وهي أساساً أجهزة قمع أو اصطناع في هذا المجال كائنا ما كانت النية والهدف، فلو أصدر أحد الكتاب كتابًا ينكر فيه وجود الله أو رسالة الرسل، فإن فكرة مصادرة الكتاب أو محاكمة المؤلف يجب أن تكون مستبعدة تمامًا،

وبدلاً من ذلك فيمكن أن ندعو الله له بالهداية أو نعرض عنه، أو نقارعه الحجة بالحجــة والدليل بالدليل، وعلينا أن نعلم أن المجتمع البشري لم يخل من أمثال هؤلاء، جــاهلين أو معاندين، وقد كانوا موجـودين أيـام الرسـول أعظم من وجـودهم هـذا الزمـان، ولن يكون مؤلف الكتاب شراً من فرعون، ولن نكون نحن أفضل من موسى وهـارون وقـد قال الله لهما: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلا لَيِّنًـا لَعَلَّهُ يَتَـذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ (طه: 43-44) ومن يعلم فقد ينقلب داعيـة الإلحـاد إلي داعيـة الإيمـان.. كما حدث أكثر من مرة.

إن العقلية البوليسية العقابية أو حتى القضائية ليست خلـق الـدعاة.. ولا هي ممـا يجب أن يسمح لها بالتدخل في إطار الاعتقاد.

* * *

[4]
الاجتهاد الرابع
قضــايا المــرأة

نالت قضية المرأة بجوانبها المتعددة أهمية كبرى من دعوة الإحياء الإسلامي تمثلت في إصدار أربعة كتب عنها هي:

(1) الحجاب.

(2) المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء.

(3) جواز إمامة المرأة الرجال.

(4) ختان البنات ليس سُـنة أو مكرمة ولكن جريمة.

وقد غطت هذه الكتب موضوع المرأة كاملاً وبوجه أخص:

(1) الحجاب.

(2) الاختلاط ــ العمل ــ الفساد السياسي.

(3) الزواج ــ الطلاق.

لقد قلنا عن الحجاب أنه كان شرعة مقررة منذ ألفي سنة ونص عليها في قانون حمورابي، كما جاءت اليهودية مقررة الحجاب ومحملة المرأة مسئولية النزول من الجنة وتبعتها المسيحية في هذا، وكانت المرأة في أثينا تحجز فيما يشبه "الحريم" وإذا خرجت تضع حجابًا، وكان أرسطو هو الذي قنن دونية المرأة وانسحب أثره الكبير على الحضارة الرومانية التي جعلت المرأة لا تبلغ سن الرشد أبدًا، ولابد من تعيين وصي عليها قد يكون أبوها أو زوجها أو أخوها.

هذه وقائع تاريخية ثابتة، فلا نتجنى على الحققة إذا قلنا: إن الإسلام لم يفرض الحجاب، ولكن الحجاب هو الذي فرض على الإسلام وأن الإسلام لا يمكن أن يفرض شيئاً كان مفروضًا من قبل، وشأن الإسلام في هذا شأنه في الرق الذي وجده وبررته

كل النظم والفلسفات وكان عمود الإنتاج، وقامت الحضارة الرومانية عليه ففرض الرق على الإسلام، وكما قال العقاد فإن الإسلام لم يأت بالرق، ولكنه جاء بالعتق.

حاول الإسلام أن يخفف من وطأة الحملة على المرأة وظلمها وانتقاصها، وبالنسبة للحجاب فإن كلمة حجاب لم ترد في القرآن الكريم بالنسبة للمرأة إلا مرة واحدة، وكان ذلك بالنسبة لزوجات التبي اللاتي قال عنهن القرآن ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ﴾ وضاعف لهن العقوبة والمثوبة وحرم على الرجال زواجهن بعد وفاة الرسول.. الخ، وكان النص الخاص بالحجاب يعني ستارًا وليس زيًا، فالآية تقول ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، وفسر ذلك بأن غرف زوجات الرسول لم يكن لها أبواب أو ستر يحميها، فلما نزلت هذه الآية أسدل الستار على غرفاتهن.

أما ما جاء في القرآن الكريم خاصًا بزي المرأة، فلا يتضمن حجيًا صريحًا لمكان من جسم المرأة إلا فتحة الصدر بنص الآية ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، ولا يعني هذا النص إيجاب الخمار (غطاء الرأس) لأنه كان موجودًا قبل الإسلام وكانت حكمته حماية الرأس من التراب والشمس والغبار.. الخ، أما ما جاء في الآيتين ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ و﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾، فليس فيها نص محدد، ولم يكن القرآن ليعجز عن أن يبين ــ على وجه التحديد ــ ما يكشف وما يغطى من جسم المرأة، ولكن القرآن لا يتحدث أبدًا عن التفاصيل حتى في الصلاة والزكاة والصوم والحج، القرآن يركز على الكليات والقيم لأنها هي التي يمكن أن تصمد أمام التطور ولما يطرأ على المجتمع من تغيير وتبديل، من أجل هذا جاءت كلمات القرآن عامة ليمكن تفسيرها طبقاً للمفهوم والعرف الذي يختلف من جيل إلى جيل.

ويمكن القول أن القرآن لا يريد من المرأة الابتذال والخلاعة والتبرج ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ دون أن يحدد تفاصيل، ولا يمكن الإدعاء أن القرآن نص على تغطية رأس المرأة وشعرها، ولو أراد لنص، ومعروف أن أي تحريم لابد أن يأتي في القرآن بنص لا يقبل تأويلاً لأنه إذا قبل تأويلاً جاز الاحتمال وإذا جاز الاحتمال بطل الاستدلال.

وعلى كل حال فإن تغطية الرأس لم تكن أبدًا تقوى وورعًا ورعاية لحشمة، ولكن لحماية الشعر من وعثاء الطريقة وغباره وأشعة الشمس الحارقة.. الخ، فهي قضية زي وليست قضية دين، ويمكن للمرأة إذا أرادت أن تغطي رأسها أن تلبس كما تلبس الفلاحة المصرية طرحة سابغة، أو كما تلبس المرأة الأوروبية برنيطة.

فإذا قالوا الأحاديث فإن الأحاديث ليس لها قداســة القـرآن ولا تأبيده، وعلى كل حال، فإن المحدثين يضعفون الحديث الشائع الذي هو أساس حجاب الوجه والكعبين" يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لا يصلح أن يظهر منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه ويده، لأنهم يرون أن خالد بن دربك راوي الحديث لم يكن معاصرًا للسيدة عائشة، فضلاً عن راووين للحديث فيهما كلام، وقد تمسك الفقهاء والمحدثون السعوديون بهذا النقد لأنهم يرونه سفورًا ويذهبون إلى أن الحجاب الحقيقي هو ستر

الرأس والوجه بحيث لا يبدو إلا عيناً واحدة مرتكزين على تفسير لابن عباس للآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾ بحيث لا يبدين إلا عيناً واحدة.

وهناك وجه آخر للقضية يكاد ينسى مع أنه بديهي، ذلك هو أن الحجاب قضية رأي شخصي، بل هو حق من حقوق الإنسان، وبالتالي فلا يمكن إرغام المرأة على وضع الحجاب أو نزع الحجاب، ومع أننا لا نتردد في أن نطلق على النقاب "وصمة عار"، فإننا لا يمكن أن يطلق هذا الوصف على اللاتي يرتدين النقاب، لأن الحديث عن الموضوع يختلف عن الحديث عن الشخص، فجمال البنا لا يسمح لنفسه أن يقول لمنقبة "أزيلي نقابك" إذا كانت قد وضعته بملء إرادتها وكاحتياط لها.

أما الحجاب الذي يبدي الوجه والكفين فإنه زي عملي، وفي الوقت الذي لا يطمس شخصية المرأة كالنقاب ويمكنها من العمل، فإنه زي "عملي" من ناحية أنه يريح المرأة من عناء تصفيف شعرها كلما أرادت الخروج وما يتطلبه هذا من عناء ووقت وجهاد وما يلزمها زيادة الكوافير مرة كل أسبوع أو شهر.. الخ، وإن كانت له انعكاساته على صحة الشعر.

على أن قضية الحجاب تصغر أمام قضية الاختلاط، إن المجتمع الذي يفصل ما بين النساء والرجال منذ أن يبلغوا الحلم مجتمع غير طبيعي يؤدي إلى تضخم المشاعر الجنسية مع الكتب الذي يفرضه العزل بحيث يحدث نقص في القضية فلا تصبح سوى وتتعرض لما يشوهها منه وما قد يدفع بها إلى صور من الشذوذ والعلاقات المثلية (اللواط والسحاق) التي تتم سرًا بالطبع ولا تعقب آثترًا يلمسها الآخرون، والذكور والإناث في هذا سواء، ونحن نرى أن الصورة السليمة للاختلاط هي الاختلاط في العمل، فجو الدراسة وجو العمل يجعل الاختلاط طبيعيًا ويجعل العلاقات والتصرفات في إطار العمل، ومن ناحية أخرى فإن العمل عنصر رئيسي في حياة الإنسان ذكرًا أو أنثى ويجب على كل واحد أن يمارسه لأنه هو الذي يصقل الشخصية، وهو الذي يجعل للوجود معنى وهو الذي يقدم إضافة للمجتمع وهو الذي يكسب الإنسان مهارات وخبرات، ومن هنا فيجب على المرأة أن تمارس العمل حتى وإن لم تكن في حاجة إليه، لأن المسألة ليست مسألة ليست الخاصة، وفن مسألة الحياة الحقيقية والواقعية وليست حياة الحاجة المادية، كما أنها لا يجوز أن تخضع للأوهام والظنون، وعلاقة الزمالة التي يفرضها العمل تكشف للجميع عن طبيعة صاحبها، لأنه لا يستطيع أن يصانع أو يتكلف طوال اليوم وطوال الشهور والسنين، من هنا فإن العمل يتيح للمرأة مجالاً يمكن منه أن تتعرف على الرجال على حقيقتهم وإذا وجدت ما يرضيها منه يكون هو المرشح للزواج ويتم هذا بطريقة يمكن أن تـُعد المثلى.

ولا يثنينا عن هذا الرأي ما يقدمونه من أحاديث وأقاويل تندد بالشر الجسيم في الدنيا ونار الجحيم في الآخرة، لأننا لا نتردد في القطع بأنها أحاديث موضوعة وأريد بها إرهاف حاسة الإيمان أو التحذير المبالغ فيه عن أخطار ولأنه حتى لو كان في الاختلاط

أخطار فإن أخطاره تقل عن أخطار الكبت الذي يشوه النفس ويصيبها بالآفات وإن لم يظهر ذلك في العلن.

وينتقد جمال البنا مقرر الفقهاء أن الإسـلام يسمح للمرأة بحق العمل، ثم يضعوا شروط هذا السماح أن يكون بإذن زوجها (أو وليها) وأن لا ترأس الرجال وأن تذهب إليه محجبة، وأن لا يكون على حساب الوقت الذي تتطلبه الحياة الزوجية.. الخ، وبهذا يسلبون بالشمال ما أعطوه باليمين.

وأخيرًا.. فإن دعوة الإحياء الإسلامي ترى أن حق العمل السياسي والترشيح للمجالس النيابية وغيرها بحيث يكون مكفولاً للمرأة كما هو للرجل ؛ لأن المرأة بقدر ما هي إنسان فإنها أيضًا مواطن ولها حقوق وعليها واجبات المواطن، بل يمكن لأيضًا أن تسهم في الخدمة العسكرية والإسعاف الطبي والخدمات ما يجمع بين طبيعة المرأة وما بين ناحية هامة من نواحي العمل العسكري.

من الاجتهادات المؤكدة لجمال البنا أنه لا يجوز الطلاق المنفرد ــ أي الذي يوقعه الزوج على زوجته بالحلف بيمين الطلاق ــ وهو يقول أنه إذا ظل يحلف بالطلاق طول النهار، فهذا لغو لا يعتد به ولا يقضي بطلاق، إذ لابد في الطلاق من وجود شهود وتوثيق وتسوية الموقف بين الزوجين، وسنده أن الزواج تم برضاء وشهود وتوثيق ولا يمكن الانفكاك منه إلا بمثل ما عقد به.

أما النصوص فهو يقول إن ما كان يرضي المرأة في القديم لم يعر يرضيها في الحديث، ولابد من ملاحظة الاختلافات والتطورات الاجتماعية العميقة في هذه الناحية، فما كان عدلاً في القديم يمكن أن يكون ظلمًا في الحديث.

فإذا تعسف أحد الزوجين، فإن المحكمة تفرض حكمها على أساس استبعاد التعسف في استخدام الحق وهو مبدأ إسلامي مقرر.